

باقات من شعر المغرب العربي

أ. د. مسعد بن عيد العطوي

دراسة تحليلية لأبنيتها الجمالية والدلالية

باقات من شعر المغرب العربي



الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك



باقات

من شعر المغرب العربي

دراسة تحليلية لأبنيتها الجمالية والدلالية

الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد - الأردن

2015

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس

الصفحة	العنوان
3	الفهرس
5	مقدمة
7	تهمس اللسانات والأسلوبيات
11	مفهوم الإبداع
21	مكونات الرومانسية قي الشعر الأندلسي
53	مفهوم الحدائة
59	الحدائة الشعرية
65	الحدائة
79	لإيحاء بالمكان والزمان
87	المثالية والواقعية
93	مصير الحدائة
97	قبسات من الأدب العربي
101	الشاعر الفرقاني
105	عن الشعر المغربي
111	النقد في بلاد المغرب العربي
117	الأدباء التونسيون
119	لغة الشعر
127	الفكر في المغرب
129	مع الشاعر المغربي الأمراني

الصفحة	العنوان
139	الأشياء المنكسرة
153	قالت لي الحرية
167	أجراس الأمل
175	ديوان إشراقات
185	الأدب في دول المغرب العربي
193	محمد العيد محمد علي الخليفة
199	المراجع
203	المجلات

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الواسع العليم، المحيظ بهذه الكون وملكوته ما تقدم منه وما تأخر. كلما تكونت الحضارات ألهم الله المبدعين الهامات جديدة ودعم الحدس عندهم يحقق الأماني لكل حضارة، وأرسل رسله صلى الله عليهم وسلم بالكتب والحكمة لتوجيه مركز الإيمان والاعتدال والوسطية والسلام والحلول السلمية بين الرغبات المتصارعة.

ونحن نكتشف جديداً في الماضي ونعايش جديداً ونبني لجديد المستقبل فكل واع وعالم بالحكمة يدرك التواصل المعرفي والإبداعي منذ القدم إلى ما بعد الحاضر وما وراء المستقبل فلعلنا نكون متواصلين لا رافضين ولا مفرطين وإنما نحترم العقلانية والإنسانية، والخيرية والاكتشافية، فنشدوا بها دائماً.

إن التأمل في الفكر الشعري يأخذ الإنسان إلى آفاق معرفية متنوعة، فأنت ترى فيه القديم وتاريخه، وحكايته وتجاربه، وأساطيره ومعالم مكانه وتأثير زمانه، واللغة التي تحمل دلالاتها وتاريخها وشحنها وعلامات استعمالها اللغوي في كل مرحلة، فالشعر الجاهلي يحمل كل هذه الدلالات وكذلك الشعر الإسلامي والأموي يحمل هذه ولكن بفروق كثيرة وإضافات يتضح ذلك في الدراسة التاريخية للأدب عبر العصور.

دأب المفكرون والنقاد في عصرنا الحديث على طرح بعض الثنائيات متشدد ومتحور، إسلامي وكافر، تراثي وحضاري، مقلد وحداثي، كلاسيكي ورومانسي، وغيرها من معجم الألفاظ الدلالية التي ما زالت مهيمنة علينا في سائر التوجهات الفكرية ولما نحصر أنفسنا في النقد الأدبي نجد كما هائلاً من هذا المعجم مسيطراً على منهجية التفكير والطرح وهي مصطلحات تجذر الانقسام والانفصال المفتعل فكم أوجدنا من مصطلح للقديم كال تقليد، والإتباعية والبعث والأصالة والإحياء وكلها توحى في مفهومها المصطلحي بالتخلف والالتزام بالقديم ورفض الحديث، ونحن لو درسنا الأدب بعيداً عن هذه الثنائية لوجدنا التواصل بين التراث والمعاصر من ناحية المضامين والتحويلات النفسية والعقلية

والتطور الحضاري وتوظيف اللغة في ألفاظها وتراكيبها وموسيقاها ودلالاتها واستلهاها للحديث، واستيعابها لكل جديد فالدارس لشعر الشعراء يدرك بذور التواصل المضموني والفني بين القديم والحديث بل بين الحديث والمعاصر.

ونحن لو قيض الله لنا من يدرس سليات الثنائية لأدركنا أنها من عناصر التخلف الثقافي، فقد أحدثت صراعاً ألهت الأجيال وشغلت العقول وجعلتها هامة جامدة حتى في الطرح الإسلامي والاجتماعي والفكر النقدي الثقافي والأدبي ومن هذا فإني دأبت على تجاوز هذا الطرح الثنائي في كثير من أبحاثي النقدية محاولاً إظهار عوامل التواصل بين هذه الثنائيات.

وهنا أدعو دعوة واضحة لرفض المناهج النقدية التي تقوم على الثنائية بغية اكتشاف طرائق جديدة بعيدة عن طرائق الطرح النقدي القديم لعلنا نرصد و نكتشف سبلاً نقدية جديدة ليست ببعيدة عن الجمال الفني وألوانه وهي تنأى عن الصراع والتناحر الذي يجعل الانتصار هدفاً للناقد أو الباحث ولعلنا نأتي بطرح نقدي موازٍ لأولئك النقاد مثيري الثنائية فنقول:

إن الأمر الذي يهم الناقد ويهدف إليه هو أن يكتشف المعالم الجمالية والمضامين الإنسانية والتجديدات الفكرية وفي محاولة لإكتشاف تلك المعالم الفنية والفكرية في نتاج الأديب وربما تواصل الماضي مع الحاضر مع استشراف للمستقبل وكل هذه التأملات تمهد ل طرح توجهات إبداعية، ونظريات تتوالد عن النقد الفكري بعيدا عن الأنشغال بالصراع الثنائي.

الأستاذ الدكتور

مسعد عيد العطوي

غرة محرم 1436هـ / 2014م

تبوك

تهميش اللسانيات والأسلوبيات

كنت أقف طويلاً عند نقد السرد بدءاً بالمقالة والقصة القصيرة والرواية والقصيدة الحديثة بل حتى القصة الشعرية، فتبين لي ظهور اتجاهات كثيرة تهيمن على المتلقي والناقد فإذا قُيِّض له ولوج عالم الإنسان ومكوناته من الأفراح والأتراح من المعاناة والبؤس فإن هذا الناقد يستعين بالفلسفة حول الإنسان ونظريات علم النفس ويدور في فضاء فرويد ومعارضيه، وإذا كان الناقد له انزياح نحو المجتمع وتكويناته وشرائحه فإنه يغلب عليه توجيه دلائل النص إلى القضايا الاجتماعية، وإذا كان الناقد معنياً بالسياسة وحرّياتها وديمقراطيتها واستبدالها فإنه قادر إلى جذب النص إلى السياسة وإسقاط ظهور النص على الواقع لتكون رمزاً أما إن كان ذهنية الناقد دينية أو معارضة فإنه يجد في النص السردى ما يحوره لصالحه وغير هذه الاتجاهات الكثير.

من هنا كان النص الشعري والقصصي مسرحاً لنقد ذهني فكري أو وجداني تارة أخرى و الذي أراه مهماً هو لغة النص السردى وكان لهذا الاتجاه الذهني أثره على البنية فالسرد تطور مضمونياً ولكنه لم يتأثر بالتنظير لغوياً وشكلياً وبناء نص لغوي من حيث الحروف بل حتى الألفاظ ثم عملية السياقات والتراكيب فأكثر النصوص السردية مهلهلة لولا إضاءة المضمون لما كان هناك نصاً أدبياً. وأنت تقرأ للسارد أجيالاً من الإبداع عبر سنين عمره فلا تجد تحولاً في الأسلوب ولا ثراء في اللغة رغم الممارسة وتلون الموضوعات. ولغياب التفاعل اللساني والأسلوبية وغيابها عن النقد السردى والنثري والشعري كل ذلك أوجد انفصاماً في تركيبية النص. فقد خبا الإبداع الشكلي وأخذنا نلهث وراء المثيرات التي تعارض الدين وتضاد والمجتمع وتمثل الأحوال الشاذة. إذ جعلنا لها الهيمنة مما أفقدنا الطريق إلى التشكيل اللغوي الذي ينير للناقد والمتلقي التفاعل بين المبنى والمعنى وتأثير بعضهما على بعض. وهو التفاعل الذي أشار له أرباب الألسنية واللسانيات ونقاد الأدب بالأسلوب والأسلوبيات وافتقدنا نظرية الدال والمدلول، والتداولية اللغوية بل الدلالة حتى السياقات

وبنية اللغة ونظرية المنطوق والمفهوم في التأويل الذي أثرى الفكر وفتق النص القرآني والحديث من خلال علم البرهان ودلائله النصية.

ونحن نجد كما هائلاً من الشعر اتخذ هذا المنحنى الذي يهيمش اللغة ويقوم على المضمون. ومن جانب آخر فقد هيمنت الذاتية للمتلقي وهيمن الناقد على النص وتحولاته ولم يكن للنص حضوره ولا هيمنته وإنما هو مثل الغصن تميله الريح حيث اتجهت شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً كما تجلت فكرة يراها الباحث في جلّ الدراسات حول السرد مفادها أن الناتج النقدي للنص خارج النص؛ خاضع للمؤثرات الخارجية للمتلقي أو الراصد للحراك السردى. وكانت النتيجة ضعف التكوين اللغوي وتطويره النصي عند المبدع فهو لا يهتم بالشكل اللغوي مثل أي إنسان لا يهتم بمظهره أو كمثل الحالة النسائية المهيمنة التي تجاوزت حدها فأهتمت بالخارج لم تظهر الداخل بل أرادت بالأصباغ تغيير الداخلي عن مساره فأنت أمام قطبين غير متكافئين أو متوازيين على الأقل، وهما أدوات المبنى ووسائله وبنيته العميقة من خلال الشكل والآخر هو النتاج النقدي الذاتي المنفصل عن الاستنباط التأويلي والبرهاني للغة و الشكل.

خلاصة لهذا العرض يمكن القول إننا لو نظرنا إلى أسباب تهميش اللغة لوجدناه يتمثل فيما يلي:

أولاً: غياب التنظير النقدي المرتبط باللغة العربية الأم فقد أعرضنا عن الدراسات الأسلوبية التي تعتمد على اللغة فلم نجمع بين اللسانيات والأسلوبية بل إننا لم نحصر على استنباط الاتجاهات من خلال البنية اللغوية وإنما من خلال المضمون فكأن الأسلوب غشاوة ضبابية تحترقها بل عناء.

ثانياً: هيمن النقد الانطباعي الذي يفيض من خلال ثقافة الناقد وتكوينه الذهني والوجداني فالكثير من النقاد يتفاعل مع العصر وظواهره فمثلاً الآن اتجهنا إلى الأسرة والمرأة وأخذنا نقتطف ما يكون فيهما من انحراف أو ما يفتعله السارد لتمثل قضايا اجتماعية ذات مغزى فكري والواقع أن له تأثيره في تفكيك الأسر.

ثالثاً: نحن نلهث وراء الاتجاهات النقدية الغربية، ونأخذ زهرات من هنا وزهرات من هنا وكلما أعدنا النظر فنأخذ منه ونحاول الاقتداء به وهكذا نقدنا ونظرياتنا مستوردة وليس أدل على ذلك من تعدد المصطلحات بل اختلاف مضمونها فنحن أمام الرمز والغموض، والإسقاط، والانزياح والتجريد والقناع وكلها تدور في فلك متقارب ونحن ندور في الاتجاهات ونختلف على مصطلحاتها وطرائقها في فلك دوار ممل. ونحن لم نقف على المنهج وحده ونأخذه ونأخذ منطقته ونسبر نور لغتنا وأدبنا ونعود به إلى فكر جديد بديع.

رابعاً: إن الناقد العربي ناقد انحيازي للقيمة الذهنية أو هو ناقد جزئي ينقد جانباً من النص ويعرض عن جوانب أخرى فالنقاد السرديون يقفون عند القيم الذهنية، ويعرضون عن قيم اللغة التي تحمل في طياتها تكوينات تراثية وواقعية. وصوراً عجيبة خيالية أو واقعية شاهدة للعيان أو مستشرف للواقع إن اللغة هي الكنز الذي يتفجر ينابيع مختلفة إذا كانت القراءة استنطاقية مؤهلة للاستنطاق بكم من المعرفة ومن الممارسة الفكرية والنقدية.

مفهوم الإبداع

الإبداع لغة:

بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه، والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالي: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾، وقال تع إلى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقها و مبدعها.

والبدعة كل محدثة، ويرى ابن الأثير أن (البدعة بدعتان، بدعة هدى وبدعة ضلال فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ، فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح).

وفي الأثر: "كل محدثة بدعة".

لذلك فإن الإبداع والحداثة متقاربان متقارنان ولذا ابن منظور قال في لسان العرب "البديع المحدث العجيب"، "البديع من أسماء الله تع إلى لإبداعه الأشياء واحداثه إياها".

الإبداع اصطلاحاً:

"الخلق من عدم أي اختراع شيء لا على مثال سبق" ويكون في أنواع المعارف إنشاء شيء جديد انطلاقاً من التعامل نوعاً خاصاً من التعامل مع شيء أو أشياء قديمة، قد يكون هذا التعامل إعادة تأسيس أو تركيب، وقد يكون نفيًا أو تجاوزاً.

وقد يختلف الإبداع في الدين عنه في العلم التجريبي، كما يختلف عنهما أيضاً في الفن.

فالإبداع في الدين بمعنى الخلق من عدم وفي الفن إنتاج نوع جديد من الوجود بواسطة إعادة تركيب أصيلة للعناصر الموجودة.

وفي الفلسفة: نوع أصيل من استئناف النظر في المشاكل المطروحة لا يقصد حلها حلاً نهائياً لأنه ليست هناك حلول نهائية بل تطرح من أجل الاهتمام بالمستجدات⁽¹⁾.
أما في العلم التجريبي "فالإبداع اختراع واكتشاف يتم عن طريق خطوات فكرية ميزتها الأساسية أنها تقبل التحقق منها"^{108:1} من مقال محمد عابد الجابري، ويعرفه علماء النفس بأنه "قدرة عامة على إنتاج الجديد واستحداثه ومتابعة الجهود العقلية في تنميته".
الإبداع ص 36.

والإبداع وليد الفكر السائد في العصر فهو الموحى بتوالد الأفكار لأن الإنسان يولد على الفطرة فيتأثر بما حوله من الحركات واللغة والطبيعة والعلوم فيكون خاضعاً للمفاهيم والمبادئ وطرق التفكير وسبله وآلياته. وهنا يكون الفكر مستمراً وأداة لترسيبات هذه المفاهيم فهو أداة لها من خلالها تتكون أفكاره وآراءه ونظرياته من ثم يصلح للأفكار والنظريات والآراء الحاضرة والمستقبلية وترتبط بعلاقات بنيوية تستقي منها دلالتها ووظيفتها، مما جعل التفكير يكون محتوى أيضاً⁽²⁾.

و الإبداع يتبلور من قوة الرغبة الذاتية لكل عقل بأن يتميز بذاتيته وأنها خاصة به ولكن لا حقيقة واقعية له إذا لم يرتكز على الأصالة والبناء الفكري الثقافي السالف والمعاصر ويلتمس التحديث عن طريق الذات الفاعلة بالتهيؤ والاستعداد، والاختمار، والإلهام والتحقيق والتعديل وهذه الوسائل تدعو الذات إلى التحرر من التقليد، والسير مع المفاهيم الشائعة، والنماذج الواضحة، غير أن الذات والأننا يجب أن تعتمد على الصدق أولاً في مناحي تفكيرها، وعلى اليقين من الصحة ثانياً، لكيلا يكون على عيني المبدع حجاب يحول بينه وبين الارتكاز على التفكير السليم في عطاء الآخرين، وألا ينجح إلى العناد والمخالفة والشذوذ لمجرد الظهور، لأن الاختلاف من أجل الاختلاف يفقد المبدع سمة التفكير، ويبعد به عن مادة الإبداع التي تتفاعل من مصانع الفكر لدى الآخرين، وحينما يضع أفكاره في ميزان التقويم، ويجد فيها مبرراً لتبنيها، فإنها تبرز قدرة الاعتزاز بالنفس، والتصدي لمعارضها

(1) فصول 108

(2) فصول 107 من مقال محمد عابد الجابري

والعمل على نشرها، وهذا ما تعنيه الشجاعة عند ماكينون إنما يعني الإشارة إلى نوع آخر من الشجاعة الشخصية، شجاعة العقل والروح والشجاعة الأدبية، وقد تتخذ تلك الشجاعة لدى المبدعين مظاهر متعددة منها شجاعة التساؤل، وشجاعة الرفض لما هو خاطئ ولو كان شائعا مقبولا... وشجاعة التفكير بطريقة مختلفة، وشجاعة التخيل لما هو مستحيل، ومحاولة تحقيقه⁽¹⁾.

والإبداع إذا كان واقعا تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه فهو مقبول وما أوسع من باب؟ حيث تركه الله لقدرة العقل المكونة من المبادئ والمفاهيم والتشابك والتلاقح والتمازج مع الكون وفكره. وإنتاج فكر جديد من خلال انصهارها مع مواهب المبدع. والإسلام في أول عهد لم يمنع الفاروق من الإبداع الإداري بل إن إبداعه تجاوز ذلك إلى تطبيق أشياء منه ما يمس الشرائع كمثل حكمه في عام المجاعة بمنع قطع يد السارق لأن الحاجة ألجأت الناس إليها، إذن فالإسلام يمنع الإبداع فيما يقصر عنه العقل فحسب وأما ما يمكن أن يدركه الناس إليها، إذن فالإسلام يمنع الإبداع الذي منعه الإسلام هو الذي يخشى منه تغيير مسار الدين الإسلامي كالرهبانية التي ابتدعها أهل الأديان السابقة.

وذلك يعود لأن الدين الإسلامي منزل من الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان وخلق عقله إذن فالعقل البشري قاصر عن استحداث شيء في الدين صالح لكل زمان ومكان ومن هذا المنطلق لا يجوز أن يأتي الإنسان بحكم ناقص.

أزمة الإبداع:

كلمة أخذ يرددها المهتمون بالأدب في البلاد العربية وعممها الكثير على مناحي المعرفة الفنية والفكرية والفلسفية والتجريبية، وهذا أمر يحتاج إلى نظر إن لم يكن نظرات، وإنما لو رأينا العوامل المؤثرة في الإبداع التي اشتراطها الجابري فإنها تنحصر في الأصالة والجددة ويرى أن التوقف والتدهور الذي أصاب المعرفة يكمن سببه في احتذاء النموذج السلفي وبعبارة أخرى يعود إلى المبادئ والمفاهيم الراسخة التي كونت الفكر فيقول

(1) الإبداع: ص 84 د. عبدالستار إبراهيم

الجابري: "وفي إطار التحليل أبرزنا أن النموذج السلف، هو الذي يتحمل القسط الأوفر من المسئولية فيما يعاينه الفكر العربي المعاصر من أزمة وفشل، ذلك أنه سواء تعلق الأمر باطروحات الداعية السلفي والداعية الليبر إلى أو الداعية الماركسي فإن هناك دور نموذج - سلف) يشكل المرجع لكل منهم، به يفكر، وعليه يقيس وفي ضوءه يرى، وبوحي منه يقرأ أو يؤول. إذن فالنموذج السلف هو الذي يغذي عواقب التقدم و الإبداع في الفكر العربي فهو الذي يصرفه عن مواجهة الواقع، ويدفع به إلى التعامل مع الممكنات الذهنية على إنها معطيات واقعية وأخيراً و ليس أخراً، هو الذي يجعل الذاكرة ومن ثم العاطفة واللاعقل، تثوب فيه عن العقل⁽¹⁾.

الواقع إن هذا القول خاضع للمنطق الذي عابه نفسه فإن الكاتب متأثر بمفاهيم مستقاه من المنهج الديني المسيحي المحرف منهج السلف بالنسبة للحضارة الأوروبية فلم تتقدم في حضارتها حتى أعرضت عنه ومفهوم آخر استقاه من النظرية الماركسية التي ترى أن الأديان وتضم إليها الدين الإسلامي عامل من عوامل التخلف للشعوب والواقع أن ديننا الإسلامي لا ينطبق عليه ما ينطبق على الأديان المحرفة فإنه يمد المنتمين له بفكر واضح وصريح وبقوة إيرادية لا حدود لها وذلك لأنه دين وعمل صلاحه للدنيا وخير دليل على ذلك بأننا لو عملنا بأفكار وآراء أسلافنا رواد النهضة الحديثة من مثل رفاة الطهطاوي، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا وغيرهم الكثير من الذين يرون أن المسلم عليه أن يأخذ ويقتبس من العلم التجريبي. وما وافق الدين والعقل ولو عمل بالنموذج الإسلامي وغاص العلماء في مضامينه واستوحوا أفكارهم من خلاله لوجدوا الدر الكامن في أصدافه كما ظهر في النماذج التي ذكرتها. ومن الأسباب التي أودت بآراء السلف عدم المبالاة بأفكارهم، فأعرض عنها المنفذون للسياسة والفكر فقد كانت الأفكار تصدر لمعالجة حدث حاضر واقعي ولكن لم يؤخذ بذلك الفكر في زمانه وظروفه.

من هذا المفهوم نجد أن النموذج الإسلامي يختلف عن غيره لأنه يمد العقل بما لا يقدر عليه وهو قابل لكل حدث يسير بالحياة إلى الأفضل وهو ثابت غير متذبذب بخلاف

(1) فصول 109

الأفكار التي احتلت الصدارة في العالم الثالث التي تنقل من مذهب إلى مذهب فإنها متذبذبة غير معتمدة على دستور الهني ولا تراث تجريبي ولا مفاهيم صحيحة ومع ذلك لقيت تأييداً من آباء تلك الاتجاهات فاحتضنوها لأنها نابعة من جد لهم ولكي تقف في وجه الاتجاه الإسلامي الذي يعارض تلك القوى ويجبر عليها الدخول للمجتمع فلذا استلم القيادة الاتجاه المتذبذب الذي لا يقف على أرض صلبة ولا أسس متينة وذلك نتاج الثنائية التعليمية والتربوية التي عصفت بالوحدة العربية.

لو نظرنا نظرة عقلية في أسباب أزمة الإبداع، فإن ذلك يقودنا أولاً إلى أن نتساءل حول مسببات الأزمة. هل تعود إلى الجمود الفكري في العالم العربي وعدم الوعي بأهميته؟ أو أن الفكر العربي لم يُتَح له الفرص لكي ينمو ويزدهر ويبدع؟ أم أن الواقع يدل على أن الفكر العربي هائج متطلع يتناول ما هو أمامه بالتفاعل والبحث ويبدل الجهد ولكن لم يهتد إلى طريق الابتكار والإبداع؟ أم أن الأنهار العلمية والثقافية المتدفقة أخذت عليه الوقت فنهج نهج العلماء الأوائل الذين يأخذون من كل فن بطرف قبل تشعب العلوم الحديثة؟ أم أن الإبداع العربي مواصل المسيرة في البحث والتنقيب غير أن المسيرة متعثرة بفعل العوامل المحدقة بالعالم العربي ذاته من فرقة وضياح وفقدان الجو العام الخصب للإبداع، أليس الفكر جزءاً من هذا الكيان العربي الذي يتناحر ويتقاتل، ويفتك بعضه بعضاً. لماذا لا تقول إن الفكر العربي نفسه يتقابل ويتحارب ومن ثم لا يتآزر ولا يتعاون مما جعل قواه تنخر ويضل طريق الإبداع، أليس من الممكن أن تحارب وتروج له الأسلحة الفكرية والشائعات كما تحارب وتروج الأسلحة للقتل والقتال ألم تكن مصادر الأسلحة للعالم العربي ليتقاتل مع بعضه هي مصادر الفكر ليتصارح في ثنائية فكرية مستديمة.

ونحن لو تناولنا مسألة الجمود الفكري، ندرك أن الواقع يبطلها ولا يقرها لأن العالم العربي في حركة دائبة، فمن بداية النهضة وهو ينشر التعليم في الداخل، ويلتمس الفكر في الخارج، غير أنه لم يبلغ مرحلة الإبداع، فهذه مئات الكتب بل آلاف تصدر في كل قطر عربي في شتى المناحي المعرفية.

أما إتاحة الفرص للفكر العربي لكي ينمو فهي عملية نسبية. وواقع العالم العربي الإداري تأتية الهجمات التي تهز تفكيره عن التوازن والتركيز، فلم يكن أمام العقول العربية والوسائل الكفيلة والحافزة على الإبداع والمحتضنة له. بل أن السبل الفردية تتخللها العقبات، فلم يعط صاحب المواهب حقه من الرعاية، ولم يضمن له المقارنة الإبداعية مع نتاج العالم أو العالم العربي على الأقل، بل لم يحصل على المعارف في حقله التي تجعله يرسى دعائم معرفته ومن ثم ينطلق إلى الإبداع ولم تكن الوسائل الأكاديمية أو الفردية قادرة على جمع النتاج للمبدعين حتى يُقارن بينها وبين إبداعه.

ولم يدخل المبدع في احتكاك مع الآخر ليتمكن من تمحيص فكره وثقيفه عن طريق اللقاء والحوار والندوات، وأما هذا الزخم الهائل من المعرفة فهل تمكن العالم أو الباحث من الإلمام بالمعرفة المنقحة أو المجمع على الأقل فلا يحتاج إلى جهد مادي وم إلى تحول بينه وبين المعرفة والمعروف في العالم المتقدم بذلهم الأموال الطائلة للبحث العلمي، إذن فإن الأمر متشعب وأحوج ما يكون إلى تضافر الجهود وإخلاص في العمل تدفعها عزيمة صادقة صابرة من المجتمع وقادته وصفوة العلماء فيضعوا الباحث أمام الإحساس بالمسئولية، والتفاعل مع الخبر، وممارسة الإبداع ويتبنوا منهجية للتفكير لا تقف عند حد من الإبداع بل تتنامى في مواصلة مستمرة لكل بارقة فكرية لتتوالد وتتفاعل عن طريق التلاقح والتمازج مع الخبرة العالمية والعربية والذاتية الفردية.

وكل ما ذكرنا يحتم على الشعوب أن تبلورها في أطر ومناهج تستجيب للإبداع وتيسر عملية التلاقح وتساعد على خصوصيته، وتمده بعناصر النماء والتطور، وتكون مأزراً وحصناً للمبدع وتتجسد وتتلون في إثارة العقول وتحريكها، وتفاعلها مع الأفكار، من هذه الضرورة الحتمية تكونت وتبلورت الدراسات حول المناخ الإبداعي من قبل علماء النفس وعلماء الاجتماع، والأدباء والمفكرين، واتضح لهم عن طريق الدراسة والاستبيان أن المواهب الذاتية تنمو وتشتعل مع إتاحة الفرص وتحمو وتنطفئ مع خمول المجتمع وتقوقعه، واندراجه في السلوكيات التي ترفض بلا عقل ولا موضوعية ولا واقعية. إذن فالمجتمع يحكم عليه من حيث الوعي قبوله وتشجيعه للقبسات الإبداعية التي تصدر عن المبدعين وما مدى

الاستجابة لها وإتاحة الفرصة لبروزها، وما دوافع المجتمع لتشجيعها وتنقيتها وتمحيصها، إلى جانب إزالة العوائق من الطبائع والعادات التي تتسم بها بعض الشعوب وتقف حجر عثرة في وجه البحث والتعبير الصريح للإبداع. وربما أن هناك بعض المجتمعات التي تسري فيها روح الطبقية، ففتيح النجاح السهل، والمركز الاجتماعي، والكسب المادي، ولم تحوج الفرد إلى المثابرة والتعب والتحصيل، بل أن الكدح وراء القدرة العلمية يعرقل تقدمه المعنوي والمادي ومن المؤكد أن جزءاً كبيراً من هذا الفشل لا يعود إلى ضعف الإمدادات المادية، أو التجهيزات الحديثة بقدر ما يعود إلى سيادة مناخ اجتماعي يشجع على قيم غير فكرية كاهلية، والمركز والسلطان، والكسب المادي السريع، ويؤدي إلى أن يتولى الوظائف القيادية أشخاص ذوو خصائص لا تتناسب مع الأهداف والقيم العامة لهذه المنظمات ومثل هذا المناخ لا يؤدي إلى البلبلة وإثارة الشك في قيم البحث والإبداع فحسب، بل يؤدي إلى تكوين قيم جديدة تكون لها قوة أكبر في حصار النمو الإبداعي الفعال، أو تقبل القيم الإبداعية على الإطلاق⁽¹⁾ "الإبداع".

لذا كان من واجب المجتمع أن ينمي أشكالاً من القيم تتقبل وتؤازر حرية البحث، والتعبير والإبداع، وتفسح العديد من المجالات لتحتوي الفروق والاتجاهات الفردية في مناحي الحياة، وكثير من الكتاب في عصرنا الحاضر يتصور أن المجتمعات الإسلامية تعرقل مسيرة البحث وينجم ذلك التكبيل عن التقييد بالقيم الإسلامية في نظرهم، وذلك مخالف للواقع وأن العرقلة نابعة من العادات المخالفة للإسلام أو من النظم الإدارية المهيمنة، أو أن الأمر لا يعود إلى ذلك وإنما مرجعه إلى أن الكاتب يقلد الغرب في الطعن على الدين، وليس معنى ذلك أننا ننفي العقبات التي تقف في وجه المبدع من المجتمعات العربية والإسلامية مع توفره بنسب مختلفة ولكن ما أريد أن انفيه هو أن الإسلام وتعاليمه بمعزل عن تلك العراقيل والحواجز، بل أن هناك فئات ذات مصالح ربما تحارب الإبداع تحت مظلة الإسلام، إما لهدف مادي أو طبقي، أو طعن في الإسلام وتشنيع أو لضعف إدراك للتعالم الإسلامية.

(1) عبدالستار ابراهيم ص 200 الإبداع

ومن الدوافع التي تعرقل مسيرة الإبداع النظرة الطبقيّة التي تتمثل في كثير من الشعوب فينظرون إلى الفرد من خلال طبقات المجتمع، فهذا يميني والآخر يساري واشتراكي ورأسم إلى وهذا من أسرة كبيرة، وهذا من أسرة صغيرة، وهذا حضري والآخر بدوي وهذا فلاح وهذا صناع وغيرها وكأن الصفات تلك تدخل في عوامل التكوين العضوي والذكائي والعقلي والمواهب والاستعدادات.

والنظرة إلى المثالية تختلف من مجتمع إلى مجتمع، فكثير من الذين يكسبون رضا الناس فينمون العلاقات هم من أولئك الذين لا يعتمدون على قدراتهم ومواهبهم وكمثال على هذا تدل البحوث في مجال الشخصية الإبداعية على أن نسبة كبيرة من المبدعين من النوع الانطوائي أي النوع الهادئ الانعز إلى المستبطن، المولع بالثقافة أكثر من الناس، والذي يميل إلى التحفظ والترفع إلا مع الأصدقاء المقربين، والذي يميل للتخطيط للمستقبل، وأن ينظر قبل أن يخطو ولا يتفق في الانطباع الوقي، ولا يحب الإثارة، ويأخذ أمور الحياة اليومية بجد كاف، ويجب طريقة الحياة المنظمة، ويتحكم في مشاعره تحكما وثيقاً⁽¹⁾.

وربما أن بعض المجتمعات تعاني من فشل أولئك الذين يتعاملون في الأعمال الإدارية، والأعمال المهمة بكل موضوعية، وجدية وعلى قدر من الأمانة وخافة الله، وحرص على الوطنية، ولهم ضمير يقظ محاسب غير أنهم لم يخضعوا لظروف ورغبات الفئة التي لها مصالح لذا سرعان ما يذاع فشلهم وفشل مؤسساتهم وقد لاحظ كاتل² وابان عن الشخصية المقبولة في هذا المجتمع الذي يعثر مسيرة الإبداع فيقول د. عبدالستار أن النمط المتكامل والصورة النموذجية لهذا النمط هي الشخصية الانبساطية الشخصية خفيفة الظل، سريعة الحركة، القادرة على الجذب والكسب، والمحبة للحفلات، وتبادل الأحاديث، والتصرف السريع واللباقة ويلاحظ كاتل³ أن شيوع هذه التصورات تخلق مناخاً يساعد على شيوع أنماط من الشخصية يكون هدفها النجاح الاجتماعي الضيق القائم على سرعة

(1) عبدالستار ابراهيم 203

البديهة، والجاذبية اللفظية، والانفعال والاتجاه نحو الخارج والإغراق فيه، في مقابل اختفاء نمط الشخصية الإبداعية الدقيقة، والتأملية والمفكرة⁽¹⁾.

ومن هنا يجب أن تولي الشعوب والأمم الإبداع أهمية وذلك بتهيئة الجو المناسب، فتقوم النظم الإدارية بتبني خطط تفسح مجالاً للإبداع والمبدعين فتبرز الأساليب الفاعلة لتنمية الاتجاهات الابتكارية وتفتح أبواب البحث ووسائله ومناهجه وتكثف مراكزه وتبذل له الأموال الكفيلة بالحوافز المشجعة.

(1) عبدالستار ابراهيم 203

مكونات الرومانسية في الشعر الأندلسي

إعداد مسعد بن عيد العطوي

مقدمة

الحمد لله الذي أظلنا بظلال الإسلام و صيرنا أخوة في الأوطان وحمل أسلافنا راية الإسلام وعمروا البلاد ونشروا العدل والخير في جل الأماكن والأزمان ونصلى ونسلم على رسولنا السراج المنير والهادي إلى الصراط المستقيم، لقد درست الأدب الأندلسي في إحدى السنوات، واطلعت على دراسات فوجدتها تقوم على تاريخ لهذا الأدب، وقد وقفت كثيرا من الدراسات على قضايا اجتماعية وفنية وهناك أساتذة متخصصون في الأدب الأندلسي بذلوا حياتهم في البحث عن إظهار كنوزه فجزاهم الله خير الجزاء. ولما أعلنت جامعة جرش عن مؤتمريهم السنوي الأدبي النقدي ودعاني صديقي الدكتور/ خلف الجردات الذي كان معنا مشاركا في مؤتمر جامعة الزيتونة وعدت للأدب الأندلسي أستمطر أفكاره وأتأمل سماته وإذا بالذاكرة تستدعي الرومانسية ومكوناتها فإذا بي أعثر على كثير من تلك المكونات الرومانسية في الشعر الأندلسي، فالوجدان حاضر الوجود في جلّ أشعارهم، والانفعال الذاتي هو مصدر تجاربهم، ومحاكاة الطبيعة والطبيعة ذاتها تتلون أشكالا طبيعية في أشعارهم بعد أن انغمست في أحاسيسهم وهم يحادثون الطبيعة في الأرض الخضراء، والورود والأزهار والأشجار والغابات وهم يقفون على الماء في سمائه وسحبه وفي أنهاره وجداوله ونفوسهم مملوءة بهذه الجينات الناعمة ومن هنا فإني أحاول أن أكتشف السمات الرومانسية في الشعر الأندلسي ومن خلال الدراسة أدركت أن الشعر الأندلسي العربي له دوره في تكوين الجذور الأولى للرومانسية الغربية فأشكر لجامعة جرش دعوتها للبحث في شعر الأندلس، وأشكر للدكتور، خلف جردات والدكتورة جودي بطاينة أشكر لهما دفعهما لي لمراجعة البحث المرة تلو الأخرى حتى بلغ هذه الدرجة مع أنني كدت أهمله لانشغالي، لعله يرضى الأخوين الكريمين أدام الله لهما حب البحث والتمحيص والتقصي.

وقد يسأل سائل لماذا اخترت مصطلح الرومانسية مع أن التعريب بها هو الوجدان والإجابة هي أنني أريد أن أعقد القران بين الأندلس العربي وبين الرومانسية الأوربية فالجذور الأولى للرومانسية كثيفة في الشعر العربي في الأندلس مما يدل على أن الشعر العربي الأندلسي له أثر كبير في الأدب الأوروبي ولا سيما في الشعر واتجاهاته ولعل الدراسة هذه تسهم بإدخاله إلى الأدب المقارن.

فالأندلس من القارة الأوربية، فالطبيعة متشابهة وجمالها مؤثر في كل فرد يعيش عليها، والأندلس كانت مجمع الثقافات وكثير من أصول الأندلس العرقية متواجدة في الأندلس وممزجة مع الشعب العربي والبربري.

فلو تأملنا في مسيرة الحياة الثقافية الأندلسية لرأينا أن الأندلس يستقبل الفكر والثقافة بل العادات المجتمعية وسرعان ما يفرض الأندلس سمات جديدة على الثقافة ومكونات المجتمع لما يتسم به الأندلس من المكان المؤثر والحياة المتنوعة، والبيئة المتفاعلة الفاعلة، فمنهم من لهم دور في الفكر السياسي ومنهم من لهم دوره في الآراء الفقهية والفكرية، وتطارحوا نظريات الفلسفة وكانت لها موجات بين القبول والرفض، وأكثر تأثيرها على الأدب شعرا ونثرا، وهم من الأوائل الذين روّضوا الموشحات يقول ابن بسام ((وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها... وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واختراع طريقتها، فيما بلغني محمود القبري العزيز)).

مع أن المشاركة يرون البداية منهم والشاعر ابن سناء الملك يدعيها وكتب الطراز عنها، والناقد يدرك العلاقة بين الموشحات وسهولتها وحريرتها ومعانيها وصورها وذاتها ورمزيتها وبين الرومانسية.

فالاختلاف بين عادات وقيم الشعوب في الأندلس ولد فكرا متنورا، وهذا يثري الوجدان والأحاسيس المتدفقة عند الفرد وهذا ما كان إبان توالد⁽¹⁾ متقاربة وهذا ما أوجد قاسما ثقافيا بين تلك الشعوب، يضاف إلى ذلك كون الأوروبيين استفادوا من ثقافة الشعوب العربية الفارسية والهندية وهذه الظاهرة هي التي كونت الأدب الأندلسي فجعلت

(1) ابن بسام، الذخيرة 1: 469

شعره يمثل الأحاسيس أكثر من غيرها بل لنقل: إن الأحاسيس والانفعالات تداخلت مع كل موضوع ومضامين الشعر تلك هي الجذور الأولى للرومانسية. وتأمل معي وصف الطبيعة لعمر بن الشهيد فقد تشكل في هذه المقطوعة بعضا من سمات الرومانسية:

ومما شجاني في الغصون حمائم
يرجعن أحناءً لمن شواجياً
سقى الله أيكاً ما يزال حمامه
وكم ليلة للدهر باهيتُ نجمها
تجاوب في جنح الظلام حمائم
فيرسلن أسراب الدموع سواجماً
يهيج مشتاقاً ويُسعدُ هائمًا
بنجم من الصهباء يجلو الغوائم⁽¹⁾

إن الأندلس كان مغرباً للحياة المتنعة والرفاه، ومن ثم ميل النفس إلى السلام والأمن الفردي والبعد عن الصراع وهذا معانق لما وجد من مكونات الرومانسية في أوروبا فإن الرومانسيين دعوا إلى السلام والسلام وهربوا إلى الغاب وأعماق البحار وآفاق الفضاء في أدبهم هربوا من الصراع ولو نقبنا في أدب الأندلس لوجدنا يفيض بهذه الظاهرة: هروب من الصراع الفكري والعقائدي، والفتن والحروب ومن نتائج ذلك في الشعر الأندلسي كثافة الانفعال والتدفق الوجداني والفيض بما يفتعل بالذات، فتولد لنا الشعر العاطفي، والحب الذي يغمر الشعراء والشعر، وتمثل ذلك في سهولة الشعر وقصر جملة وأبحره وغنائيه فنجسدت لنا الموشحات، وكثير من الشعر المغنى. ولم تلبث تلك الثقافة الأندلسية أن غزت مثقفي أوروبا ومفكريهم والأمراء والأثرياء فتوافدوا إلى الأندلس من أجل التحصيل وتنويع الثقافة فأعجبهم الشعر الأندلسي واستمال أمراء ومثقفي أوروبا؛ فأبدعوا على شاكلته؛ وهذه وغيرها تشكل النظرية التي تقول إن الأندلس مصدر الإشعاع لأوروبا فهم تلقوا من المشرق ومن العمق الأندلسي أنماط الترسيبات الاجتماعية وكون الأندلس بفعل ذلك متلقياً اجتماعياً يصهر كل داخل ومداخل في معمل من القيم والفكر والسلوكيات بما يتلاءم مع التكوين الأندلسي وهذا شأنهم في سائر الفنون المعرفة وأنماط المعرفة.

(1) الذخيرة 1: 525

ومن هذا التأثير والتأثر والقبول والنماذج نُجِد مظاهر الرومانسية في الأدب الأندلسي.

إن التجديد في الشعر الأندلسي تكون من البيئة الأندلسية فإذا كان الشرق يتسم بالصحراء التي كونت ذهنية الشعر في المشرق من الارتحال والديار والأطلال وركوب الإبل والخيال، فإن الأندلس تتسم بجمال الطبيعة وروعيتها ورياضها الجميلة وورودها وأزاهيرها وشلالاتها وأنهارها وسمائلها وتلاها الخضراء فتلك الطبيعة ولدت الشعر الوجداني أو قل هي الجذوة التي ولدت الرومانسية المبكرة في الشعر العربي والشعر الأوربي فكل باحث أثر الطبيعة في الرومانسية فهي أهم مكونات الشعر والمؤثرات، والعصفور في كل صورته وخيالاته.

ويقول يحيى البكري في وصف الطبيعة في الأندلسية:

وروضُها الغناء مسرَّحٌ روضةٍ	تبخترُ في المواشي من حبرتها
مشاعرُ تهيامٍ وكعبةُ فتنةٍ	فؤادي من حُجابها ودعاتها
فكم صافحتني في مناها يدُ المنى	وكم هبَّ عرفُ اللُهي من عرفاتها

فأنت ترى أن الشاعر ممتزج مع الطبيعة، وأنها مصدر أحاسيسه، وأنها فتنته الدائمة حتى استدعى لها صور مقدسة هي الكعبة، وإن قلبه ملك للطبيعة يدافع عنها ويدعو لها.

ومنها:

وكم خطبتني مصرُ في نيل نيلها	ورامتُ بنا بغدادُ وردَ فراتها
ولم أرض أرضاً غير مبدلٍ نشأتي	ولو لحتُ شمساً في سماء ولاتها
ولي أملٌ إن يسعد السعدُ نلته	ويفهم سرَّ النفسِ في رمزاتها

وأسنى المنى ما نيل في ميعة الصبا وهل تحسنُ الأشياء بعد فواتها؟⁽¹⁾

وقال علي العنسي:

الأفقُ طلقٌ والنسيمُ رُخاءُ والروضُ وشتُ بُرْدَه الأنداءُ
والنهرُ قد مالتْ عليه غصونهُ فكأنمما هُوَ مقلّة وطفاء
وبدأ نثارُ الجلنارِ بصفحه فكأنمما هُوَ حية رَقطاء
والشمسُ قد رَقمتْ طِرازاً فوقه فكأنمما هُوَ حلة زُرْقاء⁽²⁾

فقد استحوذت الطبيعة على الشاعر والمتلقي يدرك تفاعل الشاعر معها من خلال مكونات الحياة الإنسانية التي جلبها لوصف الطبيعة.

فالشعر الأندلسي تشكل من معالم الطبيعة فمناظرها مهد الراحة ومناظرها هي المثالية، ومناظرها متعة البصر والبصيرة فهو روح وريحان الشعر بل هي نبع الانفعال والأحاسيس.

ويقول: أبي روح الجزيري حين أغرب:

أحنُّ إلى الخضراء في كل موطن حنين مشوقٍ للعناق وللضم
وما ذاك إلا أنّ جسمي رضيعها ولا بدُّ من شوق الرضيع إلى الأم⁽³⁾

فهل هناك تلاحم أكثر من الرضيع لأمه فالطبيعة هي الأم وهما الأرض معا وشعر الأندلس تشكل من مزيج بشري من حضارات وأجناس وألوان متعددة ومتنوعة بينما

(1) يحيى البكري، الذخيرة 1: 454

(2) علي النعسي، نفع الطيب 2: 263

(3) أبي روح الجزيري، نفع الطيب 2: 99

تشكل الشعر الشرقي من جنس العرب الذي هيمن واستحوذ حتى الأجناس الداخلة في التكوين الحضاري الجديد بعد إن تداخلت الشعوب في الإسلام، ولكن بعد استقرار الأندلس أضحى هناك تشكيل جديد يتمرد على الهيمنة والاستحواذ فظهرت روح المساواة والتمرد على الإلزام واللجوء إلى الطبيعة يقول يحيى بن الحكم البكري حول فكرة المساواة وأن فقدانها يؤدي إلى الألم والألم مكون من مكونات الرومانسية:

أرى أهلَ اليَسارِ إذا توفوا	بنوا تلك المقابرَ بالصخور
ابوا إلا مباحاة وفخرأ	على الفقراء حتى في القبور.
فإن يكن التفاضل في ذراها	فإن العدل فيها في القعور
رضيتُ بمن تأنقَ في بناء	فبالغ فيه تصريف الدهور
المأ يبصروا ما خربته الد	هور من الأدائن والقصور
لعمراً أبيهم لو أبصروهم	لما عرّف الغني من الفقير
ولا عرفوا العبيد من المو إلى	ولا عرفوا الإناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوباً صوف	من البدن المباشير للحرير ⁽¹⁾

ويقول بن زيدون⁽²⁾ عن الغربة التي تحمل الانفعال البشري على مر العصور:

ودع الصبرَ محبباً ودعك	ذائع من سره ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن	زاد في تلك الخطى إذا شيعك
يا أخا البدر سناءً وسناً	حفظ الله زماناً أطلعك
إن يطّل بعدك ليلي فلکم	بت أشكو قصر الليل معك

(1) يحيى بن الحكم البكري، نفع الطيب 2: 256

(2) ابن زيدون، الذخيرة، 1: 286

والرومانسية تشكلت من ألوان مختلفة وأفرزت عددا من الخصائص التي ميزتها على الأجناس الشعرية والأدبية ومنها.

الذاتية:

هي إحدى عناصر حياة الإنسان وهي مكون الرغبة، والشهوة، والحب، والبغض، وهي الحوض التي ترد فيه الأفكار من كل حذب وصبوب من تمازج الإنسان مع كونه الحسي والمعنوي والفكري وأنا لا أستبعد تأثر الذاتية بالمكونات أولا فالذاتية متأثرة ومؤثرة، وكثير من أدب الكلاسيكية في الغرب وشعر التراث العربي يهتمي خلف الوصف والموضوعية، ويخفي الذاتية وانفعالاتها حتى ظهر الشعر الأندلسي، فتكشف من خلال الشعر عظم التأثير الذاتي، وكأنها مصدر مائي للأفكار والإبداع، أو حوض يغمس فيه كل واقعة أو حادثة، وأنا قرأت الشعر الأندلسي فرأيت عجبا لتواجد الذاتية في كل موضوعات الشعر مما جعلني أجد التماثل بين الشعر الأندلسي وشعر الرومانسية الحديث، والذي اطلعت عليه من الدواوين الأندلسية تتشكل فيه الذاتية فالشاعر حاضر في جل شعره فهو أن وقف على الطبيعة فتجده متأثرا بها مستلهما جمالها، واقفا على أنهارها ومتأملا في أزهارها.

وتجد الشاعر قد بث الانفعالات والأحاسيس في ثنايا شعره فهو أن تباهي ظهر في شعره، فترى الشعر يفيض بابتهاجه وأفراحه وأنسه وهو يكسو شعره بالألم والحزن في حالة شكواه وألمه فالشاعر يقف مع ذكرياته بكل أبعادها الشعورية، فتضخم أحاسيس الذاتية وهيمتها على الفرد تتمحور في جوانب متعددة فتبنى الانفعال للشهوة والرغبة والحب وفي جانب تبني الألم والحزن والمعاناة المعذبة، نتيجة للحرمان فيكون الانفعال بالحزن طاغيا. وهذا عامل مشترك بين الأندلسيين والأوروبيين في مظاهر حياة كثير من شبابهم مما أثر بوجود الألم نتيجة الصراع على مكونات الحياة. وقد أسس الأندلسيون لهذا المكون الحياتي في شعرهم بالحزن والألم يقول ابن خفاجة:

وكيف يعيُض الدمع أو يبرد الحشا وقد باد أقرانُ وفات شبابُ

وقد حُطَّ عن وجه الصبح نِقَابُ
يَمُدُّ جَنَاحِيهِ عَلَيَّ غَرَابُ
إِذَا نَسِيْتُ رَسْمَ الْوَفَاءِ صَحَابُ
وَمَا انْدَقُّ رَمَحٌ دُونَهُ وَكَعَابُ
فَفَاتَ سَبَاقاً وَالْحِمَامُ قِصَابُ
نَجِيبٌ بِهَا دَاعِي الصَّبَا وَنَجَابُ
شَبَابٌ أَرْقَنَاهُ بِهَا وَشَرَابُ
وَقَفْتُ وَدُونِي لِلتَّرَابِ حِجَابُ
لَطَالَ كَلَامٌ بَيْنَنَا وَخَطَابُ
فَأَقْشَعُ عَنْ شَمْسٍ هُنَاكَ ضَبَابُ⁽¹⁾

أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ لَيْلَةٍ
كَأَنِّي، وَقَدْ طَارَ الصَّبَاحُ، حَمَامَةٌ
وَلَسْتُ بِنَاسٍ صَاحِباً مِنْ رِبِيعَةٍ
وَمَا شَجَانِي أَنْ قَضَى حَنْفَ أَنْفِهِ
وَأَنَا تَجَارِينَا ثَلَاثِينَ حِجَّةً
كَأَنْ لَمْ نَبْتَ فِي مَنْزِلِ الْقَصْفِ لَيْلَةٍ
إِذَا قَامَ مَنَا قَائِمٌ هَزَّ عَطْفَهُ
وَأَنِّي إِذَا يَمَمْتُ قَبْرَكَ زَائِراً
وَلَوْ أَتَيْتُكَ كَانَ حَاوِرَ مَيْتاً
وَأَعْرَبَ عَمَّا عِنْدَهُ مِنْ جَلِيَّةٍ

وهو لا يتوارى في المدائح خلف الأوصاف والموضوعية بل تغطي ذاتيته ورغباته
وأماله واعتذاراته كلها تتجلى صراحة في شعره.

ويقول ابن خفاجة: عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي:

فَرَقْتُ بِهِ مَا بَيْنَ حَقِّ وَبَاطِلِ
كِبَارِقِ رَعْدٍ عِنْدَ رَعَشِ الْأَنَامِلِ
وَلَا طَاشَ عَقْلِي يَوْمَ تَلَكِ الزَّلَازِلِ
كَمَثَلِ سَهَامٍ أُثْبِتَتْ فِي الْمَقَاتِلِ
لِمُقْتَبِلِ أَوْ فِي الْعَصُورِ الْأَوَائِلِ
وَكُلُّهُمْ مَا بَيْنَ رَاجٍ وَآمِلِ

مَقَالَ كَحَدِّ السِّيفِ وَسُنْطِ الْمَخَافِلِ
بِقَلْبِ ذَكِيِّ تَرْتَمِي جَنَائِلُهُ
فَمَا دَخَضْتُ رَجْلِي وَلَا زَلَّ مَقُولِي
وَقَدْ حَدَقْتُ حَوْلِي عُيُونٌ إِخَالَهَا
لِخَيْرِ إِمَامٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنِ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجاً يُؤْمُونَ بِأَبِهِ

(1) ابن خفاجة، نفع الطبيب 1: 539

مخافة بأس أو رجاء لنائل
فأنت غياث كل حافٍ وناعل
إلى درب قسطنطين أو أرض بابل⁽¹⁾

وفوذ ملوك الروم وسنط فئائه
فِعِشْ سالماً أقصى حياة مؤملاً
سَتَمَلِكُهَا ما بين شرق ومغرب

فأنت ترى معالم الشاعر أولاً ثم ينداح للمدح وهذا ابن زيدون يشير إلى الصداقة
بينه وبين ممدوحه فتجلى ذاته، ومظاهر حياته، ونظراته الفكرية:

ه نداء مغلوب العزيم
قِكْ فالعذابُ به أليم
رِ سِرِي فبرح بالسليم
ني في ذمامك بالذميم
ع يشوقُ ذكره الفطيم
في ذلك المرأى الوسيم
في ثوب أوأه حلِيم
ك من فؤادي في الصميم⁽²⁾

إيه أبا عبد الإل
إن عيل صبري من فرا
ذكرى لعهدك كالعرا
مهما ذممتُ فما زما
زمنٌ كمألوف الرضا
أيام أعقد ناظري
وأرى الفتوة غضة
اللّه يغلم أن حُب

ومن تجلي الذاتية: علاقة المبدع بالمرأة فهي محور الارتكاز في الشعر الأندلسي في
جمالها وأنسها ومجالسها وحضورها متتديات الأنس، بل إن المرأة والطبيعة تقترنان في ذاتية
الشاعر بل المرأة ملاذ عندهم، فهي قرينة الروح وهي ضياء الحياة، وهي نافثت الانفعال في
كيان المبدعين. فهي باث الأنس. ومشعلة النفس، ومستحوذة على تكوين الشاعر.

(1) القاضي منذر بن سعيد، نفع الطيب 1:371

(2) ابن زيدون، نفع الطيب 3:272

الذكريات:

ومن محاور الذاتية الرومانسية الذكريات فهي تلج في كيان المبدع في زمان وفي كل مكان وفي أي عمر من الأعمار والأندلس بجماله ورفاه حياته وتدفق الأنس ظل ماثلاً في التجربة الإبداعية فمهما تقلبت بها الأحوال فإن الذاتية حاضرة في الإبداع.

يقول أحمد بن المقري:

وَقَفْنَا بِرَبِّعِ الْحَبِّ وَالْحَبُّ رَاحِلٌ	نَحَاوُلُ رُجْعَاهُ لَنَا وَيُحَاوِلُ
وَأَلْقَتْ دَمَوْعُ الْعَيْنِ فِيهِ مَسَائِلًا	لَهَا عَنْ عِبَارَاتِ الْغَرَامِ دَلَائِلُ
وَبِالسَّفْحِ مِنْهَا كَمْ سَقَيْتُ لِبَانِهَا	فَمِثْلُهُ وَالسَّفْحُ لِلْبَانَ مَائِلُ
إِذَا نَسَمَهُ الْأَحْبَابِ مِنْهَا تَنَسَمَتْ	تَطِيبُ بِهَا أَسْحَارُنَا وَالْأَصَائِلُ
ثَيْرٌ شَجُونِي سَاجَعَاتُ غَصُونِهَا	فَمِنْهَا عَلَى الْحَالَيْنِ هَاجَتْ بِلَابِلُ
مَرَابِعُ الْأَفْيِ مَرَاتِعُ لَدَّتِي	مَطَالِعُ أَقْمَارِي بِهَا وَالْمَنَازِلُ ⁽¹⁾

والشاعر أكثر صراحة وفضا بالذكريات لوطنه الأندلس فكيف به وهو أحد الأمراء ذوي السلطان وذوي الجاه والرفاه.

تضاءل العقلانية:

ومما تلتقي فيه الرومانسية مع الشعر الأندلسي أن العقلانية تضاءلت في الشعر الأندلسي، وقد تشكلت الأحاسيس والانفعالات في رحيق الشعر وفي وجدانهم، فأضحى الشعر وليد العاطفة والأحاسيس فهي التي تثير عواطف الانفعال وتموج بالتجربة الشعرية في إبداع الشعراء، وليس هذا يعارض تعدد الموضوعات الشعرية، بل يحولها من توالد الفكر العقلاني إلى الاندفاع الانفعالي إلى مع إضاءات العقلانية من خلال الفيض الشعوري وقلت

(1) أحمد بن المقري صاحب نفع الطب 16:1

مجاراة الشعراء واتباعيتهم لغيرهم فانطلق الشاعر من عبقريته الفردية فشعر الشاعر من تكويناته الذاتية. والذاتية عند الأندلسيين أضحت هي نبع التجربة الشعرية، فإذا مدح الشاعر فإن ذاته بارزة متألفة فهو يحكى تلك العلاقة مع الممدوح، وإن وصف الطبيعة فهو حاضر معها ولها، وإن وصف فهو يسبر أغوار ذاته في كل صورة شعرية، يحكم من خلال رضاه أو غضبه أو رغبته أو رهبته، فالعاطفة هيمنت على العقل. والقارئ لديوان الشعر الأندلسي يدرك هذه الظاهر عند أغلب الشعراء والشعر الرومانسي اتخذ هذا المنهج الوجداني منبع للتجربة، وحارب العقلانية وجعل الأحاسيس مصدر للمعرفة فالشعر الرومانسي والشعر الأندلسي يلتقيان في هذه الخاصية.

الطبيعة:

الكون هو الطبيعة في السماء والأرض والطبيعة في المعنويات عالم آخر ما زال مجهولا ولكن الطبيعة الأرضية وما فيها من أشجار وجداول مائية، وحيوانات أليفة وبرية وبحار وفضاء وماء وجداول وسحب وثلوج تلك التي هيمنت على مسمى الطبيعة وقد تعامل معها الإبداع الإنساني ولكن يتفاوت وأكثره وصفي من خارج الإطار لكن الشعر الأندلسي كان له علقو بالطبيعة، فهي المؤثر الأكبر تفاعل معها، بثها أحاسيسه وأضحت مكونه الجمالي، فهي المعالم التي يصور بها حياته، وقد أكتست أشعار الأندلسيين بالطبيعة، وقد احتلت الطبيعة جلّ دواوينهن، وصورهم، ونفسياتهم، وماجت مع أحاسيسهم والطبيعة ملاذهم، فالأندلسيون تعانقوا مع الطبيعة قبل الرومانسيين بل إن الشعراء في الأندلس لهم السبق، وله الكثافة، فهي مصدر من مصادر إبداعهم الأمر الذي جعلني أقول إنه أكبر مكون للرومانسية عند الغرب، فهم الذين فتقوا العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

يقول الأمير الأموي المستعين:

يا حسن أندلس وما جُمعت لنا
فيها من الأوطار والأوطان

بتعاقب الأحيان والأزمان
مَوْشِيَّة بِبَدَائِعِ الْأَلْوَانِ
بِرُبُوعِهَا وَتَلَاظِمَ الْبَحْرَانِ
دُرَّراً خِلَالَ الْوَرْدِ وَالرَّيْحَانِ
نَدْمَائِهَا بِشِقَاتِقِ التَّعْمَانِ
والتَّفْتِ الْأَغْصَانُ بِالْأَغْصَانِ
حَدَقُ الْبَهَارِ وَأَمَلِ السُّوسَانِ
مَعَ مَا حَلَلْتُ بِهِ مِنَ الْبَلْدَانِ⁽¹⁾

تلك الجزيرة لست أنسى حُسنها
نَسَجَ الرِّبِيعُ نَبَاتِهَا مِنْ سُنْدُسُ
وَعَدَا النَّسِيمُ بِهَا عَلِيلاً هَائِماً
يَا حُسْنَهَا وَالطَّلُ يُنْثَرُ فَوْقَهَا
وَسَوَاعِدُ الْأَنْهَارِ قَدْ مَدَّتْ إِلَى
وَتَجَاوَبَتْ فِيهَا شُؤَادِي طَيْرِهَا
مَازَرْتُهَا إِلَّا وَحَيَانِي بِهَا
مِنْ بَعْدِهَا مَا أَعْجَبْتَنِي بِلَدَةِ

كان المستعين المذكور أديباً بليغاً، ومن شعره يعارض هارون الرشيد في قوله:

وأهابُ سحر فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْهَيْجَرَانِ
زَهْرُ الْوَجْهِ نِوَاعِمُ الْإِبْدَانِ
مِنْ فَوْقِ أَغْصَانِ عَلِي كُتُبَانِ
فَقَضَى بِسُلْطَانِ عَلِي سُلْطَانِي
حُسْنًا، وَهَذَا أُخْتُ غُصْنِ الْبَانِ
فِي عِزِّ مَلِكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي
ذُلُّ الْهَوَى عِزُّ وَمَلِكِ ثَانِي
وَبِنُو الزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عِبْدَانِي
كَفَأَ بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانَ⁽²⁾

عَجَباً يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي
وَأَقَارِعُ الْأَهْوَالِ لَا مُتْهِيبَا
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثُ كَالدَّمَى
كَكْوَاكِبِ الظُّلْمَاءِ لُحْنُ لِنَاطِرِي
حَاكَمْتُ فِيهِنَّ السُّلُوْءُ إِلَى الرِّضَى
هَذَا الْهَلَالُ، وَتِلْكَ بِنْتُ الْمُشْتَرِي
فَأَجْنُ مِنْ قَلْبِي الْحَمَى وَتَرْكَنِي
لَا تَعْذِلُوا مَلِكاً تَذَلُّ فِي الْهَوَى
مَاضِرٌ أَتَى عِبْدَهُنَّ صَبَابَةَ
إِنْ لَمْ أُطِعْ فِيهِنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى

(1) الأمير الأموي الأندلسي المستعين، نفع الطيب، 228:1

(2) الأمير الأموي المستعين، نفع الطيب، 431:1، 430

الألم والحزن:

ومكونات الألم والحزن تصحب الإنسان حيثما حل وارتحل وفي كل زمان ومكان وقد فاض الشعر العربي بالشكوى، ولكن الحزن والألم تكاثف في الأندلس؛ لأن مسارب فقدان اللهو والأنس كثيرة فمها دامت الأفراح، فأنها تتبعها الأتراح، وكثرة الحروب وفقدان الأمن وانتزاع الأموال وتجول الشعراء بين إمارات متداعية كل ذلك أوجد بيئة تموج بالأسى والحزن، وقد فاضت تجربة الشاعر الأندلسي بألوان شتى من المعاناه، ويصور الألم والحزن الشاعر أبي حاتم الحجاري حيث يقول:

أما الأسى فعليّ منه غايلُ
من ناظريّ عليّ أعظمُ شاهدٍ
في كل آونةٍ إلى أفق الثرى
خفض عليك فللحياة تقلصُ
مُزجت لنا الدنيا بشهدٍ ظاهر
نفسٌ أصعده ودمعٌ سائلُ
ومن العيون على القلوب دلائلُ
شمسٌ مغورةٌ وبدرٌ آفلُ
هي نومةٌ والعمرُ طيف راحلُ
وبظهر ذاك دمُ الأفاعي القاتل⁽¹⁾

وقد تكاثرت الآسى والحزن والألم وشكوى الأكتئاب بين شعراء الأندلس وذلك لشفاية قلوبهم فهي تتألم لفقدان أي شئ من المال أو الولد أو الصديق كما قال أبو القاسم البلوي الإشبيلي:

لمن أشكو مُصابي في البرايا
أمورٌ لو ئديرها حكيمٌ
أما في الدهر من أنشي إليه
يئست من الأنام فما جليسٌ
ولا ألقى سوى رجلٍ مصابٍ
لعاش مدى الزمان أخا اكتئابٍ
بأسراري فيؤنسُ بالجواب؟؟⁽²⁾
يعزُّ على نهائي سوى كتابي

(1) ابن بسام، الذخيرة 495/3

(2) التلمساني، نفع الطيب 325/3

الرفاه ورغد العيش:

ومن مكونات الذاتية الجدة وتوافر الخير، ووفرة المال، تلك كونت الذوق من الكدح والمعاناة إلى الرفاه ورغد العيش مع وفرة الفراغ، فالشباب والجددة مفسدة للمرء أي مفسدة، فتكونت عندهم مجالس اللهو والأنس، وغلب على الفرد الأندلسي تكوين الأحاسيس الذاتية فهو يسعى حثيثاً إلى ما يملأ فراغه و إلى ما يحقق ملذاته ورغباته، فانتشرت الموسيقى والأنغام وألوان الغناء فهتف الفرد الغناء بروح ملؤه الحب والرغبة والجمال، والمتعة بها.

فهذا الشاعر ابن عبدون يصور مجلساً من مجالس الأنس التي عمت أرجاء الأندلسي:

سَقَاها الحَيَا مِنْ مَعَانَ فِسَاحِ	فَكَمَّ لِي بِهَا مِنْ مَعَانَ فِصَاحِ
وَحَلَّى أَكَالِيلَ تَلْكَ الرُّبَى	وَوَشَى مِعَاطِفَ تَلْكَ البِطَاحِ
فَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ عَهْدِي بِهَا	وَجَرِّيَ فِيهَا ذِيوَلِ المِرَاحِ
وَنُومِي عَلَى حِبْرَاتِ الرِّيَاضِ	يُجَاذِبُ بَرْدِيَّ مَرُّ الرِّيَاحِ
وَلَمْ أَغْطِ أَمْرَ النُّهْيِ طَاعَةَ	وَلَمْ أَضْغِ سَمْعاً إِلَى الحَيِّ لَاحِ
وَلَيْلِ كَرَجَعَةَ طَرَفِ المُرَيْبِ	لَمْ أَدْرِ لَهُ شَفَقاً مِنْ صَبَاحِ ⁽¹⁾

فالقصيدية تحمل حلالاً من الرفاه والأناقة في معجم لغوي في سياقات دلالية تبلور روح العصر وما فيه من مجالس أنس ولقاء الأحبة مع جمال الطبيعة.

(1) الشاعر ابن عبدون، نفع الطيب 1: 674

ويقول الشاعر ابن طاهر:

قم سقني والرياضُ لابسةً
في مجلس كالسماء لآح به
والشمس قد عُصفت غلائلها
والنهرُ مثلُ المجر حف به
وشياً من الثور حاكه القَطْرُ
من وجه من قد هويثهُ بدره
والأرض تندى ثيابها الخضراً
من الندامى كواكب زهر⁽¹⁾

فالشاعر ابن طاهر يمازج بين الطبيعة والإنسان بل يكسو روح البشر تألفاً كما الطبيعة متألفة أنها الحياة السعيدة في الطبيعة المسعدة وفي الجلسات الممتعة.

ويصور ابن خفاجة المتنديبات الأخوانية، ويستحوذ عليه جمالها وينعم بنعيمها فهي جنته أو هي نموذج للجنة الآخرة:

يا أهلَ أندلسٍ لله دركمُ
ما جنة الخلد إلا في دياركمُ
لا تحسبوا في غدٍ إن تدخلوا سقراً
فالنعيم الذي عم أهل الأندلس يوحى بأنها جنة الله في أرضه.
ماء وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارٌ
ولو تخيرتُ هذا كُنتُ أختارُ
فليس تُدخلُ بعدَ الجنةِ النار⁽²⁾

ويقول ابن خفاجة:

سَقِينَا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسَرْحَةٍ
رَيَّا تَلَاعِبَهَا الرِّيحُ فَتَلَعَبُ

(1) الشاعر بن الطاهر، نفع الطيب 1: 658

(2) ابن خفاجة، نفع الطيب 1: 68

طَرَباً وَيَسْقِيهَا الْغَمَامُ فَتَشْرَبُ
 فِيهِ، وَيَطَّلِعُ لِلْبَهَارَةِ كَوَكْبُ
 عِ اسْوَدَّ، وَالْمَاءُ تُغَرُّ أَشْنَبُ
 فَشَدَا يَغْنِينَا الْحَمَامُ الْمُطْرِبُ
 وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَلَالِ الْمُعْرِبُ
 طَوَّقَ عَلَى بُرْدِ الْعَمَامَةِ مُذْهَبُ
 عَنْهَا، وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيدِ فَيُخْصَبُ
 يَوْمًا، وَلَا بَرَقُ اللَّطَافَةِ خُلْبُ⁽¹⁾

سَكْرَى يُعْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْبِي
 يَلْهُو فَتَرْفَعُ لِلشَّبِيَّةِ رَايَةً
 وَالرَّوَضُ وَجَهَ أَزْهَرَ، وَالظِّلُّ فَر
 فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَشِيَّةً
 وَاهْتَزَّ عِظْفُ الْغَصْنِ مِنْ طَرَبِ بِنَا
 فَكَانَهُ وَالْحُسْنُ مُقْتَرِنٌ بِهِ
 فِي فِتْنَةٍ تَسْرِي فَيَنْصَدِعُ الدُّجَى
 كَرُمُوا فَلَا غَيْثُ السَّمَاحَةِ مَخْلِفُ

ففي هذه القصيدة تتكشف الأسس الرومانسية؛ فأنت هنا أمام تشخيص الطبيعة فإلغصن يحيا حياة المرح والطرب، والهلل ضاحكا، ويداعب أولئك الللساء حتى السحب تتزيا بالجمال والأناقة إنها اللبس بالطبيعة والحياة بجمالها، وهم يلتقون مع شعراء الرومانسية في عدم المبالاة والأغراض عما حولهم خشية من النكد والتعب والمعاناة.

المرأة:

اتخذت المرأة وحبها طرقا كثيرة وواسعة في تجاربهم الإبداعية، فالطبيعة والإنسان والجمال والرجل والمرأة عالم كوني يولد تمازجه تجارب من الأنس، وتجارب من الحزن، وتجارب من تكوين الحياة، والمرأة في شعر الأندلسيين حاضرة في مجالسهم ومنتدياتهم حتى في ثقافتهم، فهي جمال الحياة والمنتديات والمنتجعات والمنتزهات وهي أخت الطبيعة الجميلة فيتجلى تعانق المرأة والطبيعة في شعر الأندلسيين فهما وجهان لا بد منهما، والمتلقي المبدع يدرك أن المرأة وحبها هو ملجأ ومهرب للفرد الأندلسي ليتناسى المنغصات المحدقة به فكأنه

(1) بن خفاجة، نفع اللب: 682

بذرة كبرى للحياة الرومانسية الغربية التي انطلقت جذورها الأولى من الشعر الأندلسي ونهج الرومانسية نهج شعراء الأندلس بداية من شعراء فرنسا وإيطاليا وفي بريطانيا.

بن زيدون:

من أشهر شعراء الأندلس الشاعر أحمد بن عبد الله المعروف بابن زيدون عام 397 هجريا 1003م وتوفاه الله عام 463 هجريا 1070م في قرطبة وعاش في بيئة علمية مثقفة وتكونت شخصيته في رياض السياسة وتقلباتها ونعيمها، ونهل من العلم، وجالس كبار العلماء، وطارح الشعراء وعشق الجمال بمكوناته المتعددة، وجال في فكر الفلسفة، فهو مجمع للثقافة الأندلسية وأمطرت عليه سحائب الحرمان والمعاناة، والنكبات وجال مشردا، ومحروما، وهجره العاشقون والأصحاب وولج إلى قاع السجون، ورسف تحت القيود إنها مصادر الحياة الشعرية لديوانه ينهل من الصور الشعورية والشعرية التي تزخر بألوان المكونات الجمالية، والقارئ لديوانه بعد إطلاع واسع على الأجناس الأدبية القديمة والحديثة يجد معالما جمة لها في شعر ابن زيدون ولما تأملت ديوانه من جانب الرومانسية عكفت على استخراج تلك المظاهر فوجدت كما هائلا كشفت عن بعضها وعاجلني الوقت عن الكثير المختبئ في ديوانه فابن زيدون أنموذجا لشعر الأندلس.

فنرى تلك المعالم الوجدانية والرومانسية في شعر ابن زيدون يقول:

في مرارة الوداع:

ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا أُسْتَوْدَعَكَ

زَادَ فِي تِلْكَ الْحَطَا إِذْ شَيْعَكَ⁽¹⁾

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُجِبًّا وَدَّعَكَ

يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ

(1) ديوان ابن زيدون 1:167

وقال في التواصل الشعوري الذي يكشف عن أحاسيس متدفقة ووجدان مهيمن على الجانب العقلاني:

أغائبة عني، وحاضرة معي،
 أفي الحق أن أشقي بجنبك، أو أرى
 الأ عطفةً تحياً بها نفس عاشق؟
 صليتي - بعض الوصل - حتى تبيني
 أناديك - لماعيل صبري - فاسمعي
 حريقاً بأنفاسي، غريقاً بأذمعي؟
 جعلت الردى منه بمرأاً ومسمع
 حقيقة حالي، ثم ما شئت فاصنعي⁽¹⁾

وابن زيدون يدرك فلسفة الألم وولوجه وتعاوره والابتهاج والأسى فيقول:

ولقد ينجيك إغفا
 والمحاذير سيها
 ولكم أجدى قعود
 وكذا ألدهر، إذا ما
 ويئو الأيام أخياً
 ل ويؤذيك احتراس
 والمقادير قيس
 ولكم أجدى التماس
 عز ناس ذل ناس
 ف: سراة وخساس⁽²⁾

فالناس مختلفون في طباعهم، وتختلف عليهم الأحوال فتارة في سرور وتارة في حزن وهذا ابن زيدون يتلوى من ألم الفراق، ويزداد قلقه وسهره وحبه ولا يشفي بغفلة حبيبه عنه، لا يب إلى بالإعراض والجفاء فحبه متعلق بالنفس لافكاك منه ويقول:

وأرحم من صبا شحياً
 ليله همم وغم،
 شفه الخب فأنسى
 قد أذابتة الشجون
 وسقام، وأنين
 - سقاماً - لا يستبين

(1) ديوان ابن زيدون

(2) ابن زيدون 264

صَارَ - لِلْأَشْوَاقِ - نَهْبًا فَنَبَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ⁽¹⁾

والشاعر يصور معاناته من القلق والأرق التي تعترى الإنسان وكذلك يستدعي الإنسان فقدان الوعي فلا وعى إلا بذكر الحبيب وذكره فلا هم له في الدنيا غير معاناته من الفرقه، وهذه من مظاهر الرومانسية الحديثة.

مَاضَرَ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمٌ وَعَلَيْتِي أَنْتَ يَهَاءَ عَالِمٌ
يَهْنِيكَ - يَاسُولِي وَيَبْعِيْتِي - أَنْكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمٌ
تَضْحَكُ فِي الْحُبِّ؛ وَأَبْكِي أَنَا اللَّهُ - فِيمَا بَيْنَنَا - حَاكِمٌ
أَقُولُ لِمَا طَارَ عَنِّي الْكُرَى قَوْلَ مُعْنَى قَلْبِهِ هَائِمٌ
يَانَأَمْمَا أَيْقَظُنِي حَبُّهُ هَبْ لِي رُقَادًا أَيُّهَا النَّائِمُ⁽²⁾

ويجسد ابن زيدون معاناته من اليأس والغربة بل الذكرى لموطنه قرطبة ويصور الاغتراب والآسى المصاحب له بل يتواصل مع معاناة الشاعر العربي القديم امرئ القيس، وبينهما تلاقي أسباب المعاناة فكلا منهما ربيب إماره وكل منهما تعرض للتشريد والملاحقة مما جعل ابن زيدون يستدعي. بعض شعر امرئ القيس فاقتبس من ألفاظه ومن صورته فكانت صورته هذا من أنواع التناس:

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصَّبَا فَتَشَوَّقًا وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا
يُهَيْبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدْفُقَا، وَهَلْ يَمْلِكُ أَلْدَمْعَ الشُّوقِ الْمَصْبَا

(1) ديوان ابن زيدون 172

(2) المرجع السابق 173

خَلِيلِيَّ - إِنَّ أَجْرَعُ فَقَدْ وَصَحَ الْعُدْرُ
فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ، وَفِي غَدِهِ أَمْرُ
وَلَأَعَجَبُ، إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ

رَمَتْنِي اللَّيِّ إِلَى عَن قِسِيَّ النَّوَائِبِ
فَمَا أَخْطَأْتَنِي مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَأَوِي إِلَى لَيْلِ بَطْئِ الْكَوَاكِبِ
وَأَبْطَأَ سَارِ كَوَكَبُ بَاتَ يُكْلَأُ⁽¹⁾

هذا التناص بين الشاعرين له دلالة الكثيفة التي تجمع مآسي الشاعرين وله قدرته الفنية على توظيف التناص توظيفا جميلا.

أ - مكونات مبدع النص؛

التأمل في الشعر يدرك أننا أمام تكوينات ذهنية ثقافية فالشاعر الأندلسي بل كل مبدع أندلسي يخضع لمكونات ذهنية ووجدانية ومؤثرات زمانية ومؤثرات مكانية وثقافية متنوعة؛ مما جعلها تؤثر وتتأثر بكل طارئ ونحن، لما نتلاقى مع ابن زيدون وإبداعه ونتخذة نموذجا لثقافة الشعراء نجد أبعاد الثقافة الفاعلة المتنوعة تلك الثقافة التي أعدته وأهلتها للوزارة، فهي تقوم على حراك متوارث داخل الحلبة السياسية وأعظم مكوناتها الثقافة الراقية، ومجالس العلماء وكثافة المعرفة والتقلبات السياسية والإدارة والمدارة، وكذلك لا بد للوزير أن يعلم الشرع والفقه، والفكر الفلسفي ومنطق الحياة، وهو أيضا عالم باللغة يحمل ثروة كبرى حتى أنه لا يكرر ألفاظ التهاني والتعازي وهو حافظ ومتأمل للشعر العربي الذي حفل شعره بالائمات والاستدعاء من هذا التراث بل قارئ متمكن لكتب الجاحظ، من كتاب العربية وهو أيضا ربيب مدرسة التربية الملوكية التي تعنى بجلب الأساتذة والمشايخ وهو المطلع الأكثر على ما يدور في مجالس السلاطين والعلماء الحافين بهم وهو العائش في

(1) ديوان ابن زيدون 132

وهج التغيرات السلطانية وتقلباتها وهو من يملك المال والسلطة تلك التي أثرت في حياته فالاستجابة دائمة والحرمان مفقود في شبابه.

وتلك الحالة صيرته ابن للحياة المخملية التي في أع إلى الجمال ومكوناته، والذوق ورهافته، والأناقة وبهائها، واللغة ورقتها وعذوبتها كل ذلك يزرع أحاسيس: ذات حساسية وانفعال يهتز لكل حدث، وشاعرنا في ظلال الطبيعة الأندلسية الجميلة الجبال الشاهقة الخضراء والأودية السحيقة ذات الخمائل الملتفة والأنهار المتدفقة، والزهور المتناثرة والألوان المتناسقة إلى جانب التجارب المتوارثة والتجارب المحيطة بذاته كل ذلك متجذر في:

قصيدة ابن زيدون النونية المشهورة:

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم	حزناً مع الدهر لا يبلى، وبيلىنا
أن الزمان الذي ما زال يضحكننا	أنساً بقربهم قد عاد يكيئنا؟
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا	وانبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا	فاليوم نحن، وما يرجى تلاقينا ⁽¹⁾

فالقصيدية نابعة من حدثين كالإعصار عصفت بقلب الشاعر واستحوذتا على فكره فهما يمثلان مقصيدية القصيدة الحديثة:

أولاً: الإبعاد والمطاردة من السلطة وما ينجم عنها من سلب للجاء والمال والأمن والاستقرار والغربة عن الأهل.

وثانيهما: هجران الحبيب، وانتصار الخصم المنافس

إن المدرك لمكونات إبداع القصيدة ومناسبتها يعلم أنها النبع للقصيدة وإنهما

متجاوران في نفسية ابن زيدون وإن أختفي العامل الأهم في ظلال ما يعتلج في النفس.

(1) الديوان ص142

فالنص بوح عن عوامل الاغتراب في مرحلة متأخرة من حياته وأبحر في الغربية من جوانب متعددة جوانب الابتعاد عن الوطن، والعزل عن السلطة، والحيلولة بينه وبين من أحبه بل هناك عامل من الغرب لم يتناوله الباحثون وهو البعد عن الإنسان الذي صنع المودة والرحمة معه من الأقارب والأصدقاء إنها غربة زمانية ومكانية تتجلى مكوناتها في القصيدة والقصيدة كنوز من الدلالات النفسية، وكنوز من الصور الفنية التي تشخص المعنويات وتحاور الشاعر، وتارة تهيمن عليه وتسيطر على حياته.

وابن زيدون عاش في أحضان الطبيعة في الأندلس بلد الطبيعة الجميلة فالأودية تكسوها الغابات والخمائل وتدفق الأنهار وانسيابها والجبال تكسوها الخضرة بأشجارها الباسقة وقد انتقلت الخضرة والجمال ومكونات الطبيعة إلى ذهنية الإنسان الأندلسي بل إلى أحاسيسه وتجسدت في إبداع المبدعين الأندلسيين: يقول:

وَعُصْنُ ثُرْشُفٍ مَاءِ الشَّبَابِ	تَرَاهُ الْهَوَى، وَجَنَاءَهُ الْأَمَلُ
تَهَادَى لَطِيفَةً طَى الْوَشَاحِ	وَكُرْتُ وَضَعِيفَةً كَرَّ الْمُقْلُ
مَشَيْنَ يُبَاهِينَ رَوْضَ الرُّبَا	يِيَانِعِ رَوْضِ الصَّبَا الْمُقْتَبَلُ
فَمِنْ قُضْبٍ تُتَنَّى بِرِيحِ	وَمِنْ قُضْبٍ تُتَنَّى بِدَلِّ
وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِمِسْكِ	وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِطَلِّ ⁽¹⁾

فأنت تذهل من التمازج بين الطبيعة وبين الإنسان فهذه الزهرات والورود وهذه الفتيات ذات الألوان وهذه الأغصان وتلك الفتيات المائلات كلها روضة سحر الطبيعة والإنسان معاً تلك من مظاهر الرومانسية المعاصرة.

(1) ديوان ابن زيدون: 12

الذكريات عند ابن زيدون:

إن ديوان الأندلس ينفث حرارة الذكريات، وإن هذه الديوان ملهم للحياة الرومانسية وملهم للإبداع في زمنه ومنغرس وزارع للإبداع المتجدد في شعر ابن زيدون. إذا كان النقاد صيروا الذكريات من سمات الرومانسية (الوجدان) في مدرسة أبولو فإن الذكريات له قرع الحزن العميق وسحائب الأسي عند الأندلسيين.

يقول ابن زيدون:

ظَعْنْتُ، وَكَانَ الْحَرُّ يُجْفِي فَيَطْعَنُ
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - عَلَى الْيَأْسِ - الْفَوْأُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلَادًا هُنْتُ فِيهَا لِأَهْوَنُ
وَمَنْ رَامَ مِثْلِي بِالذَّنْبِ أَدْنَى

وَلَا يُعْطِ الْأَعْدَاءَ كَوْنِي فِي السَّجْنِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْضِنُ بِالذُّجْنِ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِي جَفْنِ
أَوْ اللَّيْثِ فِي غَابٍ، أَوْ الصَّقْرِ فِي وَكْنِ
أَوْ الْعَلْقَ يُخْفِي فِي الصَّوَّانِ وَيُخْبَأُ⁽¹⁾

والذكريات تستدعيها الطبيعة أكثر من غيرها فالطبيعة هي مظاهر الأنس وهي التي تجعل المكان جميلاً يسحر النفوس:

مَعَاهِدُ أَبْكِيهَا لِعَهْدٍ تَصْرَمًا
أَغْضُ - مِنَ الْوَرْدِ الْجِنِيِّ - وَأَنْعَمًا

(1) ديوان ابن زيدون، 136، 137

لَيْسَنَا الصَّبَا فِيهَا خَيْرًا مُنْمَمًا

كَسَاهَا الرِّيحُ الطَّلُقُ وَشَى الخُمَائِلِ
وَرَاخَتْ لَهَا مَرَضَى الرِّيحِ البَلَائِلِ
وَعَادَى بَنُوهَا العَيْشَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ⁽¹⁾

ومن محاور الرومانسية الحديثة الذكريات. وابن زيدون يقف عندها طويلا حتى بلغ به الأمر إلى تشخيصها بل إلى جعل الذكريات تصارع الشاعر وتجفو عنه الراحة والنوم.

من مبلغ عني الأحيّة - إذ أبت ذكراهم أن يطمئن مهأذ -⁽²⁾

المظاهر الفنية:

والمظاهر الجمالية الفنية تتكالف في الشعر الأندلسي، فالسمات الرومانسية الفنية الجديدة، والتي استأثرت بها دون سائر الاتجاهات نجد ملاحظها في كثير من الشعر الأندلسي فنعثر على التراسل، والتشخيص الذي يستنطق الطبيعة وكثافة الدلالة، والصور الوجدانية، والركة اللفظية، وقصر التراكيب والألحان الراقصة، والتجديد الفني بأشكال متنوعة مما ينوع الموسيقى.

التشخيص للكرى:

وأما الكرى مذ لم أزر كم فهاجر زيارته اغب، وإمامه فرط⁽³⁾

(1) ديوان ابن زيدون 136

(2) المرجع السابق 45

(3) السابق 286

فمنح الشاعر الكرى وهو غير حسي منحه العقل الإنساني والإرادة معاً.

الحقول الدلالية:

إن الباحث الذي يقرأ النص يجد معالم الدلالة بكل مكونات، ويستطيع أن يبني حقولاً دلالية كثيرة من خلال الألفاظ كاللين، والفراق والبعد، وكالنفس والحزن والألم وغيرها من مكونات التقابل والمفارقة والتضاد، إن النص يحفل بل هو مشحون بالمكونات الدلالية ذات اللغة الموحية والسياقات التي تنبض بمدلولات كثيفة.

يَا جَنَّةَ الْخَلْدِ أَبَدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا
إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا اللَّقَاءَ فَفِي
كَأَنَّا لَمْ نَيْتْ، وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظُّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
لَا غَرْوُ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ
إِنَّا قَرَأْنَا لِأَسَى يَوْمِ التُّوَى سُورًا
وَالْكُوْثِرِ الْعُذْبِ زَقُومًا وَغَسَلِينَا
مَوَاقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ، وَيَكْفِينَا
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانَ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
عَنْهُ النَّهْيَ، وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
مَكْتُوبَةً، وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ نَلْقِينَا⁽¹⁾

ومن التشخيص في شعر الأندلسيين قول ابن زيدون:

عدت إلى الوصل - كما اشتهي - فالهجر بال والرضى باسم

فالهجر يتألم يحزن بل تتدفق حدقاته بالدموع الحرى فهو إنسان مكتمل الأحاسيس وهو يحول حبيبته الإنسانية إلى سمات معنوية عالقة بالنفس فهي معنى الهوى، وجوهره وهي ترسم كيانا للمعنى والأمانى العذاب:

(1) ابن زيدون 1: 146

معنى الهوى أنتِ، وتخص المعنى دعنى مما يزعم الزاعم⁽¹⁾

الصور الوجدانية :

والصور الوجدانية تشكل ظلالها الكثيفة في الشعر الأندلسي ومن عناصر الجمال الذي يتبلور من خلال الطبيعة والمرأة.

يقول ابن زيدون:

له خُلِقَ عذب وخلقُ مُحسّن وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر⁽²⁾

والخلقُ وهو السلوك استمد مكانته من العذوبة وكلاهما معنوي جسدهما بالتشبيه ليتوصلا فكأنهما ماثلان للعيان، والظرف بما يحمله من أشياء محسوسة يتحول إلى رائحة عبقرة أو سريان غير محسوس بالخمرة. إن الصورة تمثل تمازج المحسوس والأحاسيس في تكثيف استدعائي، وقد انحرف عن أسلوب التشبيه المباشر أو المجاز بأنواعه إلى أسلوب الإضافة في قول جال ماء النعيم يقول ابن زيدون:.

جال ماء النعيم منه يحد فيه للمستشف نور ونارا⁽³⁾

من معالم التجديد التناس واستدعاء الشخصيات والصور والجمال والتضمن والاقْتباس.

وابن زيدون يستدعي ملوك العرب أجداده وقد تجاوز الخلفاء إلى أولئك المغامرين من ملوك العرب. بل يوجد تحاور وتلاقي بين ملوك العرب وابن عباد وهو يمدح ابن عباد

(1) ابن زيدون:126

(2) المرجع السابق:123

(3) المرجع السابق:125

بأن كل الملوك عبید له ولكنه مدح مبطن فهو من الذكريات والذكریات فیها عبر واعتبار فكأنه یقول أين أولئك والمصیر یؤول إلیك .

إِنْ أُعْثِرِبَ فَمَوَاقِعَ الْكَرَمِ - الَّذِي
فِي الْعَرْبِ شَمِتُ بُرُوقَهُ - أَرْتَادُ
أَوْ أُنَا عَنْ صَيْدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي
يَاهِلْ أَيْ مَنْ ظَنَّ بِي - فَظَنُونَهُ
فَهُمُ الْغَيْيِدُ مَلِيكُهُمْ ((عَبَادُ))
شَتَّى رَجَّحُ بَيْنَهَا الْأَضْدَادُ-⁽¹⁾

والواقع أن النص يصور ارتباك الشاعر من الداخل فهو بين فكي المدح وبين الرمز للعبرة وهو يد ابن عباد على تذكر موقف النعمان حينما قتل صديقيه وندم وجعلها نصيبين على قبرهما فهو يخرج إليهما .

وَأَتَى بِي النُّعْمَانَ - يَوْمَ نَعِيمِهِ -
نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ الْمَيْلَادُ⁽²⁾

فهذه لمحة رائعة للاستدعاء وهو يؤمى إلى نسب ابن عباد إلى ملوك المناذرة وهو يركز على القيمة المعنوية التي يريد تشكيلها في ابن عباد وهي الصفح والعفو وتلك مبتغى الشاعر ابن زيدون لكي ينال صفح ابن عباد عنه .

الإغتراب:

حل الإغتراب في ديوان الأندلس بأشكاله المختلفة فتارة غربة النفس وتارة غربة الفكر والثقافة وتارة غربة تحت البعد والبين، وهذه الغربة الأخيرة تستلهم غربة الوطن وغربة المجتمع وغربة الطبيعة. ثم تلوى إلى غربة النفس وتجذر الألم والحسرة.

(1) ديوان ابن زيدون 453

(2) السابق: 455

يقول ابن زيدون:

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيباً عَادَهُ شَجْنُ
يُخْفِي لَوَاعِجَهُ وَالشُّوقُ يَفْضَحُهُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيُّقَى فِي جَوَانِحِهِ
وَأَرْقَ الْعَيْنِ- وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ
فَيْتُ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيِّكَيْهَا
- مَنْ ذِكْرِكُمْ- وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسْنُ؟
فَقَدْ تَسَاوَى- لَدَيْهِ- السَّرُّ وَالْعَلْنُ
فُوَادُهُ ، وَهُوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ؟
وَرَقَاءُ، قَدْ شَفَاهَا- إِذْ شَفَّنِي- حَزْنُ
وَبَاتَ يَهْفُو أَرْتِيحاً بَيْنَنَا الْعُصْنُ

يَاهِلْ أَجَالِسُ أَقْوَاماً أَحِبُّهُمْ؟
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُوداً لَا أَضِيْعُهَا
كُنَّا وَكَانُوا- عَلَى عَهْدٍ- فَقَدْ ضَعَفْنَا
إِنَّ الْكِرَامَ- بِحِفْظِ الْعَهْدِ- تُمْتَحَنُ⁽¹⁾

ومنها:

إِنْ كَانَ عَادَكُمْ عَيْدٌ، فَرُبُّ فَتَى
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيْلِ إِلَى مَنْ أَحَبَّتِهِ
بِمَ التُّعَلُّلِ؟ لَا أَهْلُ! وَلَا وَطَنُ!
بِالشُّوقِ قَدْ عَادَهُ- مِنْ ذِكْرِكُمْ- حَزْنُ
فَبَاتَ يُنْشِدُهَا- مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ:-
وَلَا نَدِيمُ! وَلَا كَأْسُ! وَلَا سَكَنُ!⁽²⁾

المفارقة:

وهانحن أمام توليد جديد نابع من البنية العميقة لكنه يحمل إشكالية أخرى وهي المفارقة بين الإضحاح والبكاء فكل منها له مكوناته التي يستدعيها النص مما يصيرونا في استحضار لمعاناة الشاعر:

إن الزمان الذي مازال يضحكننا
أنساً بقربهم قد عاد يكيئنا

(1) ديوان ابن زيدون: 162

(2) المرجع السابق: 163

والشاعر يوصل تكوين المفارقة بين أنحل ومعقود، وانبت أي، انقطع والوصل:

فأنحل ما كان معقودا بأنفسنا وانبت ما كان موصولا بأيدينا⁽¹⁾

حتى المفارقة اللطيفة تظهر بين أنفسنا وأيدينا فكل منهما يحمل دلالة تلتقيان ولا تتعارضان بدعم بعضهما بعضا.

ويدور الشاعر في حلقة التجربة الشعورية التي هيمنت عليه ويئس من مفارقة تلك المعاناة فكأنه يرسخ ديمومة تلبسها به:

وقد، نكون وما يُخشى تفرقنا فالיום نحن وما يرجى تلاقينا

وهو ينقل الحدث إلى مكونات الكون فكأن سواده صبغ النهار، بالظلام والسود بعد أن كان نورا وضياء وكان الظلام مع رفقة الحبيب نوراً.

حالت لفقدكم أيامنا فعدت سودا، وكانت بكم بيضا ليالينا

والواقع أن القصيدة الأندلسية شبكة متداخلة من المفارقة وتستحوذ على مفاهيم المفارقة بكل أبعادها وهي ثري النص، وتستوقف المتلقي الذي يستمطر النص ويبحث عن دلالاته ومكوناتها.

دخلت المفارقة النقد العربي قديما بمصطلحات متعددة وغير منظمة تحت منظومة متجانسة. ولكن مظاهرها واضحة فالمفارقة تحتل مساحة واسعة في القرآن الكريم مثل النص عن الجنة والنار والإيمان والكفر وقد تنبه لها أهل التأويل بالتعليل والتحليل بلا تمحيص للمصطلح، فهناك إشارات كثيرة مثل المنطوق والمفهوم، وهناك الطباق، والمقابلة والتضاد ونحن نجد لها توظيفا جميلا في شعر الأندلسيين يدعو إلى التأمل والتدبر والوقوف طويلا عند

(1) ديوان ابن زيدون: 141

النص وما تحمل تلك الدلالة من إشارات متعددة تملأ فراغا يتركه الشاعر للمتلقي ونجد مظاهر المفارقة جلية في نونية ابن زيدون:

أضحى التائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا⁽¹⁾

فهناك المفارقة التي تتجسد في لفظتي التنائي والتداني - وهما يحملان التضاد في واقع الحياة بين عاشقين إن كل دلالة التنائي: أثقال النفس البشرية التي جعل بينها وبين ما يلج في الأعماق في الإنس والطمأنينة والميل المفرط لمن يعشق. بينما التداني - يحقق كل ذلك وقد صور الشاعر التنائي وصحبة كلمة أضحى التي توحى بالكشف والظهور فالتنائي هو الهم والمعاناة ومصارعة النفس مع الحزن واليأس بل الأضرار. وهو يؤكد المعنى الأول في سطر البيت بما يحمله الشطر الثاني فالأمر عالق بالنفس وغارس بالأعماق فهو يستلذ على اللسان لمثل حالة المعاناة، والشكوى: ويتوالد عن هذه التجربة الشعورية المأسوية معان جديدة تقوم بتكاثره: اللغة التوليدية الألسنية فهذه الحالة هي البنية العميقة وتتوالد منها بنيات دلالية جديدة فيقول الشاعر:

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا⁽²⁾

فهو أتى بمعنى جديد فقد أضحى المصاحب له الحزن وهو الأثر لمفارقة صاحبه والقارئ ابن زيدون يمتح من المفارقة كثيراً من دلالاته⁽³⁾.

(1) ديوان ابن زيدون 141

(2) المرجع السابق 142

(3) المرجع السابق: 274

الغائمة

من خلال هذه الدراسة كشفت أن الأندلس بمكونات الطبيعة وكونه ملتقى مجتمعات متعددة، وثقافات متنوعة كان مصدرا لهيمنت الأحياسيس الوجدانية، وكان مصدر تجديد، وكان الحرمان من الطبيعة وغيرها مصدر إلهام شعري، وكان شعرهم وليد الوجدان أولا ووليد الرغبة والشهوة ثم هو وليد الحرمان وكلها مكونات الرومانسية فلعل هذا البحث دعوة إلى للولوج إلى دراسات الشعر الأندلسي دراسة جديدة بمنظار القيم الفنية التقدمية المتمازجة بين الغرب والشرق ولعلنا نكشف أثر لفتنا وأمتنا في العالم الحضاري الغربي ونقول: نحن أهل علم وفن وحضارة.

مفهوم الحداثة

الحداثة ثورة فكرية تتمثل في الاستحداث البنائي لأنماط المعارف وتحليل عناصرها والتنقيب في القيم القديمة لتطرح آراء جديدة فترتبط الحداثة بصورة عامة بالانزياح المتسارع في المعارف، وإنماء الإنتاج، والعلاقات على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات... ومع القيم التي تفرزها أنماط الإنتاج والعلاقات السائدة، وإذ ينشط الفكر التقويمي النقدي نتيجة لهذا الصراع، وتطرح المسائل الأساسية على بساط البحث، وإعادة النظر، وهذا مما يؤدي إلى اهتزاز القيم، ومنظومة المفهومات، فالحداثة ثورة فكرية.

وهذا النص النقدي للكاتبه خالدة سعيد والناظر إليه والمتبصر فيه يلمح معلمين متناقضين أحدهما يصحبه الصواب والتعليل السليم حينما ترى أن تقليب الفكر القديم بالنقد الحديث يتوالد عنه نتاج جديد وثانيهما أنها لم تدرك الصهر والتثقيف واستخراج الصالح من الطالح بل ولم تعترف بأهمية التكوين الفكري الحاضر الذي تتشابك مكوناته من صالح القديم الجديد.

وواضح أن الكاتبة لم تستطع أن تقف على شاطئ الموضوعية اعتماداً منها على تكوين مفاهيمها الذهنية أو إيماناً منها بمبادئ المنهجية التي سلكت في ركاها، فإنها أدركت أن الحادث والحداثة نتيجة للتلاقح والتمازج الفكري واستنتاج الثمر والمفيد وتكوين قاعدة للانطلاق المستقبلية، غير أنها لم تشأ أن تقول هذه الحقيقة وارتأت أن الجدل الجديد ينشأ من تقويض القديم والانفصام بينهما فالجديد يؤدي إلى اهتزاز القيم بينما أن الواقع الذي يؤزره العقل والمنطق يرى أن الفكر الصادر عن تعمق وتمحيص يؤدي إلى تنامي القيم لا إلى اهتزازها يؤدي إلى نتاج صالح لا إلى مخاض مريض عليل لينتج النتاج المشبوه كمثل نتاج هذه الفئة التي ترى أن الدين يعارض ويصارع المعرفة والوعي والإدراك بينما الدين الإسلامي يحث عليهما ويدعو إليهما. لذا فإن هذا المفهوم الذهني للكاتبه وأنصاره متواصل ومتعاقب مع الصراع النصراني الذي قوضه العلم عند الأوربيين.

والحداثة في نظر كمال أبو أديب هي ال "انقطاع معرفي" ويفسر ذلك بقوله:

"ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث في كتب ابن خلدون الأربعة أو في اللغة الموسساتية والفكر الديني وكون الله مركز للوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي".

إذن فإن أبا أديب لا يؤمن بأهمية المعتقد الروحي، ولا بالتراث الإنساني وينفي علاقة الإنسانية بربها وهذا انقطاع تام بين الإنسان وماضيه، وبين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان وغرائزه إنها تهدف إلى حياة فوضوية بهيمنة بعيدة عن الأبنية العقلية و الترسبات الفكرية فلا تؤمن بالبناء ولا بالتعاون العقلي، وإنما تؤمن بمعرفة سطحية جديدة أشبه ما تكون بمعرفة الأطفال لأنها لا أساس لها بل تعتمد على فكر علماني تجريبي فتهتم بجانب ضئيل من الإنسان وتعرض عن جوانب مهمة، وتؤمن بالمصادفة في خلق الإنسان والكون وتعرض عن الخالق وتديبره وتصويره وتوجيهه وإرشاده فهو يقول في أسس ومصادر المعرفة: هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية – إذا كان ثمة معرفة يقينية " وكون الفن خلقاً لواقع جديد " فصول ص: 1: 37.

الواقع أن هذا المفهوم للحداثة يراد منه تأييد للمذهب الماركسي أو بالأحرى أنه تقليد له وإنما يكون عندنا استحداثاً لجهل الشعوب بهدفه ومقصده لأن الماركسية حداثة محطمة، وانقطاع معرفي، عن الرأسمالية فهم يدعون أنهم يستحدثون منهجاً وهم مقلدون لماركس ولينين، وما زدك من قبلهما وهم يدعون إبداعاً معرفياً، وهم لمذاهب الإلحاد هادفون وكمال أديب يدعو إلى التحلل من السلطة السياسية والعقائدية والتراثية فيدعو إلى حرية غير عقلانية – فيقول: "من هذا المنظور، تصبح الحداثة لا احتجاجاً على السلطة، أو رفضاً لها، أو صراعاً معها فحسب بل انسلاخاً عنها وانتماء إلى ما يقع خارجها" 1: 38 فصول.

والحداثة عنده تهدف إلى الوصول ولكنهم يرون عدم الوصول لأن الوصول يؤدي إلى قواعد وأصول وضوابط وهذا ما يؤدي الجمود والكساد في نظرهم وهل نظرهم أحق وأولى من القول والإنصاف وصلاح الإنسانية؟ وهذا الفكر وبراهين ومنطقته واضح

التواصل والتلاقح من المذهب الشيوعي، وهؤلاء الذين يلجأون للتفريغ الثقافي هل يعقل أنهم لا يهدفون إلى إيجاد ما يملأ هذا الفراغ؟ الذي أراه أنهم لم يعجبوا بالمخزون الثقافي العربي ولا بالأصالة وأرادوا أن يأتوا بالبديل غير أنهم لم يعلنوا عن ماهية هذا ولم يكتبوا لنا ما يريدون نشره وإنما ملأوا الدنيا تشنيعاً وتقبيحاً وطعناً فيما لا يريدون حتى يزرعون في الجيل عدم الثقة فيلجأ إلى البديل الذين يمكن طرحه بعد هذه المرحلة وقد مهدوا لقبوله وتلقيه والاستجابة إليه.

مما سبق يتضح أن المفهوم هذا الحداثة :

يؤكد أنها مبنية على أسس من الحضارة المادية الحديثة، فقد ظهرت الحداثة في أوروبا لتحطيم الطقوس الدينية المحرفة لعقيدة النصرانية وذلك لصعوبة التعايش معه وتعارضه مع الحديث ولضعف ذلك القديم فإنه لم يبن على أسس دينية ولم يعالج الأمور معالجة واقعية وذلك بفعل التحريف الذي طرأ عليه ثم ظهرت الماركسية الحديثة ضد المادية الطاغية وكلاهما متضادان وكلاهما يحطم الآخر، إذن هي ليست مستحدثة وإنما هي تقليدية أريد انتشارها في بيئتنا الإسلامية والعربية مع وجود جو يعارض نموها وازدهارها وتولدها.

وهذا لا يمنع مناصرتنا للحداثة ومعارضتنا هذه ليس لذات الحداثة وإنما للمناهج الدخيلة فيها فكما رأوا أنهم استحدثوا الحداثة من الحضارة المادية فلماذا لا نستمد حداثتنا من واقعنا لذا فنحن مع الحداثة إذا ما انصهرت في بوتقة النصوص الالهية التوقيفية غير المنسوخة وإذا كانت خاضعة للعلم التجريبي وإذا لم تهدف إلى التحطيم والانفصال وإذا أرادت أن تبنى قواعدها على أسس وإذا رغبت أن تبنى قواعد وتريد الوصول إلى تلك الأمور المساعدة للحداثة الفاعلة البانية الهادفة التي تواكب العقل والإسلام والعقل الإنساني بأكمله وهذه المبادئ ترحب بالحداثة وتستقبلها وتسير في ركابها أما الحداثة التي ابتدعوها فإنها تحطم ولا تبنى ولا قيمة لها ولا فاعلية فالهدف من وجود الإنسان هو عبادة الله وعمارة الأرض، والحداثة التي تقوم على الهدم والدمار تعارض الأصل في وجود الكون بل ما الفارق بين تحطيمهم الذي يزعمونه وبين تحطيم العالم بالقنابل الذرية والهيدروجينية؟ فهل

يعقل أن تقول دمروا العالم ليظهر بناء جديداً و هل يرضون أن يدمروا أنفسهم وذواتهم وإنتاجهم.

أما إذا ما صدقنا جدلاً بأنهم لا يريدون الوصول إلى قاعدة فإنها تقع في المحاذير الآتية:

1. تؤدي إلى السطحية لأنها بناء وليست مبنية على بناء وسرعان ما يزال هذا البناء حسب تنظيراتهم ونظرياتهم.
2. أنها محاكاة العصر الحاضر وخاصة في العالم الثالث حيث انتشار الجهل في كثير من الأمور المرئية والمستخدمه لكل إنسان فالإنسان العادي يجهل كثير من أسرار التلفاز والإذاعة والثلاجة والسيارة والكمبيوتر ويتعامل معها تعامللاً سطحياً وكذلك يريدونا أن نتعامل من النص بلا شعور ومعرفة.
3. تؤدي إلى الجدلية والسفسطانية القديمة حيث أن النص تكثر احتمالاته ولا قاعدة يُعتمد عليها لمعرفة الصحيح وهنا تظل الأمة في القشور ولا تصل إلى العمق ووضع الأسس.

الاعتدال في مفهوم الحداثة :

ومن الذين نظروا نظرة متعلقة للحداثة ووضعوا لها معايير من خلال الصدق النفسي للتجربة والبناء للأصالة والوقفة الفعلية الفاحصة قبل الاقدام محمد مصطفى بدوي حيث يقول:

"حسب مفهومنا للحداثة إذن لكي يكون الأديب العربي حديثاً يكفي أن يكون صادقاً مخلصاً لنفسه، متعمقاً في تأمله لذاته بوصفه فرداً يعيش في مجتمع بعينه، في نقطة معينة من الزمن أما أن يفقد الأديب العربي ثقته بنفسه وبثقافته وأصالته ويدع لاهتاً في مختلف الاتجاهات ليقنفي أثر آخر البدع أو المواضات في الغرب فيقلدها سواء عن معرفة أو جهل فلا يجعله ذلك أديباً حديثاً في شيء...1:104 فصول.

موقف قدامى الأدباء المحدثين من الحداثة :

إن الذين عاصروا اتصال الشرق بالغرب كانوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى بل إن بعضهم أعلن معارضته للجديد مدعياً أنه بدعة تخالف الدين غير أن بعض الأدباء الذين عاصروا الاتصال ذلك وقد أتيح لهم الانتقال إلى المكان أو تعلم اللغة أو الاطلاع عليها من خلال الترجمة يلاحظ أن أغلبهم ألهم النظرة الفاحصة المتعلقة التي يبرز من خلالها ثقته بالتراث الحضاري وحفاظه على لغة دينه ونجد منهم رفاة الطهطاوي وأستاذه العطار حتى جاءت فئة أخرى أكثر تعلقاً وإدراكاً وثقافة وإحساساً بالواقع الاجتماعي المعاصر واستطاعوا أن يزنوا الوافد بميزان الدين والعقل والعلم التجريبي ورائدهم الشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده فكانوا يتقبلون المفيد ويفسحون المجال له ويدعون إلى الأخذ به وتعلمه ويقفون في وجه التيارات المدمرة والعادات السيئة الوافدة التي تقصف بالأخلاق والمعتقدات وقد اشترك في ذلك العلماء والمفكرون والأدباء والشعراء ولناخذ مثلاً قول المويحي " دخول المدنية الغربية بغتة في البلاد الشرقية، وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معاشهم، كالعميان لا يستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس، ولا يتبصرون بحسن نظر، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع، وتباين الأذواق، واختلاف الأقاليم والعادات ولم ينتقوا الصحيح من الزائف، والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة، وظنوا فيها السعادة والهناء، وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القديمة، والعادات السليمة، والآداب الطاهرة" ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهيراً فانهدم الأساس، ووهت الأركان، وانقض البنيان، وتقطعت بهم الأسباب، فأصبحوا في الضلال يعمهون، وفي البهتان يتسكعون واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدينة الغربية، واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمراً مقضياً، وقضاء مرضياً وخربتنا بيوتنا بأيدينا، وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب، وإن بيننا وبينهم في المعاش لبعده المشرق من المغرب" 102:1 فصول.

هذا القول في مطلع الاتصال بالغرب فيدل على فكر تراثي أصيل يعطي عقلية ثابتة ألمعية فهذا نحن بعد بمائة عام أو يزيد رأينا أن الذين جاروا الغرب في زائفهم مدوا أيديهم له

وساعده في مهمته العاجلة حتى إذا ما قضوا وطهرهم منه تركوه في ضعفه يتخبط ولم يفتحوا له باب العلم التجريبي ويمدوه وهذا شأن العالم الثالث الذي نراه يلاحق الغرب في موضاته الزائفة وينتقل معه في أخطائه بينما اعرضوا عن العلم التجريبي أو منعوا من الحصول عليه مما أثقل كاهل الأمة وجعلها بعد مائة عام أضعف بكثير من تلك المرحلة فهل نلبي نداء العقل والفكر والعلم فنستجيب لهم؟

ولم يكن العلماء والأدباء يرون ذلك بل كبار الشعراء فهذا حافظ إبراهيم يقول:

كحلتها الأطماع فيكم بسُهد	إن في الغرب أعينا راصدات
كم ويطوي شعاعه كلُّ بُعد	فوقها مجهر يريها خفايا
غير رثُّ العُرا وسعي وكدُّ	فانقوها بجنة من وئام
ويقول القوي قد جد جدي	ويظن الغوي أن لا نظام
جانبيه بعزيمة المستعد	فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا
قد قطعناه بين سهد ووجد	إننا عند فجر ليل طويل
والأمانى بين جزر ومد	غمرتنا سود الأهاويل فيه
وهو رمز لعهدى المسترد	وتجلى ضياؤه بعد لأي
فالمرح إلى مخطوبة للمجد	فاستبينوا قصد السبيل وجدوا

الحدائفة الشعرفة

الحدائفة أمر لا بد منه مجارة للتطور، والبناء الفكري، والتفاعل الإنساني الكونف، والإنسان خلقه الله وخلق معه خاصفة التغيير، فهو سرفع التأثير بالتوعية الفكرفة المتنامفة على مستوى الفرد والمجتمع بل والعالم كله، وهو فتمائل حسب اتجاه التيارات التي تهب عليه من هذه الأمواج المتلاطمة، فتكفف معها، وفستفد منها، وفسخرها لمصالحه، من هذا ندرك أن الحدائفة والتففر والتففر فمطلب من فتمففات البناء الإنساني.

لكن هل التففر والتففر فقبلان على هفكلهما الوافد؟! أو بالأحرى نشق بكل طارق من الفكر. فف ذلك مما أوصى به ففنا، ولا من منطق العقل والبرهان ففضا، وإنما الأمر ففدعونا إلى أن ففعل هناك فواجز وموانع وضوابط مساعفة على الاتجاه السلفم لكي فعبف منها كل وافد فف ففمفنا من الانزلاقات الخطفرفة التي فرفف بالمجتمعات والففم ولا زالت، وفتمثل هذه الفواجز فف الففن الإسلامي، وففعل كل فكرة تمر عبر ففهره، فإذا لم فخالف الأمور الفوقفففة منه فففس هناك من مانع من احتوائها واستقبالها، الأمر الثاني العقل المتدبر لأسبابها ومسبباتها ونفائجها، الأمر الثالث ألا فكون معول هدم للسلفم والصافي والنقف من التراث، وإنما فحاول أن ففذبف وففقفه وفأخذ الصالح منه.

فلك موازفن الحدائفة فف ففمف ففنا فف أن الذي فعفنا منها فف هذه العفالة هف الحدائفة الأفففة فعامة والشعرفة بفخاصفة.

فما الحدائفة الشعرفة؟

فرى بعض المنظرفن أن الحدائفة الأفففة والشعرفة بفصفة فخاصفة بدأت مواكبة لنمو الشعر، وفففسدت فف العصر الفجاهلف، ففهم فرون أن الضرورفات الشعرفة، والففوازات اللغوفة والنحوفة والعروضفة من الحدائفة بل إن الأخطاء التي ففقع ففها الشعراء من بشائر الحدائفة بل فرى بعضهم أنها من الانفراف الأسلوبف المبعف والأسلوبفة ففمف إلى هذا الففرف.

وأكثر المنظرين والمبدعين يعتقد أن الأمر خاضع للتطور، فقد بدأت بمدرسة الديوان التي أبحاث الشعر المرسل ثم تجسدت في مدرسة أبولو التي نهلت من روافد المدارس الأدبية الأوربية واتسعت أكثر عند المدرسة المهجرية من حيث اللغة والنحو. بل إن بعض المنظرين في أيامنا هذه يدعى أن النثر الأدبي المهجري الذي ألفه جبران خليل جبران هو الركيزة الأولى لشعر الحدائث.

وفي أوائل القرن العشرين برزت مدرسة الشعر الحر التي انطلقت من العراق بزيادة نازك الملائكة وكذا الشاعر السعودي محمد حسن عواد الذي نشرت له قصائد في صحيفة القبلة عام 1342هـ وجاء بدر شاكر السياب والبياتي وغيرهم الكثير، وهؤلاء اعتمدوا في شعرهم على التفعيلة وأعلنوا الاعتماد على السطر الشعري، وليس البيت ويتكون السطر من تفعيلة واحدة، وربما تتعدد حتى تبلغ الثمانية تفعيلات.

ثم جاءت مدرسة الحدائث التي تجلت في مجلة (شعر) في بيروت التي يرودها يوسف الخال ومن أشهر كتابها: أنسي الحاج وأدونيس هذه الفئة لها اتجاهاتها التي تخالف الدين والمنطق والعقل، وتجعل من الشعر وسيلة لتكوين مفاهيم وافدة على المجتمع، وتبنى التدمير والهدم بصراحة مطلقة، وقد قوضت جميع ألوان الموسيقى الشعرية وعرجت على اللغة أحيانا كثيرة، وحاولت التنصل من معياريتها، كما أعلنت عدم رضاها عن الأسس الدينية وعدم رضاها أيضا عن الأسس الاجتماعية والصروح الشاخنة من التراث، وأعلنت أن الإبداع يرفض أن يكون بناءً أو إكمالاً له، وإنما هو معارضة ومخالفة وليس له من أساس يقوم عليه ويدعون أن الهدف هو العودة إلى الفطرة البشرية.

والنتيجة الآن أن انتشر الشعر الحر وتطور الأمر إلى قصيدة النثر ولاقت رواجاً في العالم العربي نظراً لسهولتها وعدم الضوابط وللحرية التعبيرية التي تحملها؛ فقد أتاحت لكثير من الأدعياء الانتساب للشعر ونشروا نتاجهم وملؤوا به الأسواق والمكتبة، واختلط الإبداع الجيد بالغث وانقلبت الموازين.

هذا الزخم الهائل من الشعر كما يدعى أصحابه أغضب الرواد الأوائل لشعر الحدائث وأعلنوا عدم الرضا والشعور بالإحباط ومعاينة النفس والضمير لأنهم يعتقدون أنهم

فتحوا الباب لهذا اللون الذي أوجد سحباً من الضباب على الشعر وأخذ ينحرف به عن مساره السليم فهذا جبران خليل جبران يقول: "فقد الشعر العربي قدسية كانت له، وإن الشعر يتزعزع، اليوم ألف واحد يكتب ألف قصيدة، لا أحد يهتز، إنني متخوف من أنني وجيلي مهدنا لهذا النوع من الشعر" إبداع ص 140 ابريل 1985م.

وتقول نازك الملائكة: "الأجيال الأخيرة يمكن أن نسميها بأجيال الإحباطات وفي عصور الإحباط تعترى الأدباء المبدعين أنفسهم الحيرة والتمزق والضياع بحيث يفقدون نقطة ارتكازهم، فتصبح كتاباتهم أشبه بالكتابات التي لا هدف لها أو غاية تسعى إلى تحقيقها، وينعدم التواصل بينهم وبين جمهورهم".

"وأعلن محمود درويش في العدد السادس من مجلة الكرمل أن هذا الذي يسمونه شعراً حديثاً ليس شعراً، إلى حد يجعل واحداً مثلي متورطاً في الشعر منذ ربع قرن مضطراً لإعلان ضيقه بالشعر، وأكثر من ذلك يمقته ويزدرية ولا يفهمه". إبداع ص 140 ابريل 1985م.

والتهم التي وجهت للحدثة وعلقت في الأذهان تتمثل في المعارضات لكل ما هو متعارف عليه، والجنوح كثيراً عن المسارات المستقيمة وإنني أرى أن ذلك يعود إلى أولئك الذين استلموا زمام المبادرة، وقبضوا حبل القيادة، مما أتاح لهم أن يسموها بمسميهم وطابعهم الفكري الخاص الذي يجانب الواقع والحق والجمال والعدل في أحيان كثيرة، وظل أرباب الأدب من مبدعين ومنظرين يرقبون، ولا يدلون بدلوهم، يخشون، يحجمون، يتواكلون ولا يتوكلون، يحاربون بدون إستراتيجية ولا يدركون محاسنها من مساوئها، مما جعل نظرياتهم تصاب بالسلبية وعدم المبادرة، وحينما لم يستطيعوا توجيه السفينة، فإنهم أخذوا يبحثون عنها في قاع البحر لعلهم يجدونها أولاً ويصلحونها ثانياً، ويستفيدون منها ثالثاً.

وإذا نظرنا نظرة موضوعية فإننا نرى كثيراً من القيم الجمالية التي تتمثل في العمق الفكري، واللغة الشاعرة، والإيجاء الشعوري، الزاخر بالإشارات التي تشرق من تلاحم النصوص التي تألقت من بين النتاج الشعري، ونبغى لهذا اللون الجيد النماء والرقى والازدهار لذا لا بد له من منظرين يعملون على الكشف والإضاءة عن المعالم الجمالية

الناضجة أو التوجيه والإرشاد إذا تطلب الأمر ذلك، وربما يضطر الناقد إلى التعرية والنضج إذا كان العمل ضعيفاً لكي يقوموا اعوجاجه ويخرجوه لشاطئ السلامة، بحيث لا يجمدون في قوالب ثابتة، ولا يتحللون من كل بناء سليم إشاده الأسلاف، فلا ننزل معاولنا هدماً وتحطيماً وإنما نجعل له كياناً ولو أدى الأمر إلى قيام كيان بجانبه يسيراً جنباً إلى جنب.

ونجد في حاضرنا الأدبي كثيراً من الانطلاقات الحداثية التي لا يشوب جمالها الفني أية شائبة، غير أن إخراجها مما انطبع في الفكر، وتكوين سياقاً ذهنياً لها، وتسميتها بأسماء قديمة كل هذه الأمور شكلت عبأ كبيراً على رواد الإبداع، ويقع في نفس المشكلة المنظرون الذين صارت مهمتهم أصعب وأشق، وأكثر مخاطراً، وأقرب إلى الانزلاق.

ولست أرى أن التسمية أو النوع مهماً في الإبداع الفني أو يقف حجر عثرة وإنما الأهم أن يفرض النص وجوده من حيث العمق الفكري، والاتجاه الإنساني، والقدرة الاستيعابية والايحائية فيهيمن على القارئ ويجذبه ويؤثر فيه وينغرس في كيانه ولا يكون ذلك إلا بتضافر الجهود بين المنظرين والمبدعين، حاملين راية الأسلحة الثقافية، والاستعدادات الأدبية، والقدرات المتنامية، مصهورة بالإدراك الواعي. لعلنا بهذا نستلم الزمام ونهيمن عن السفينة، ونستلم قيادتها، قبل أن تغرق وتغرق أهلها معها.

وليس معنى ذلك رفضنا للحداثة فالحداثة أكسير الحداثة الأدبية لكننا نبتغيها حداثة بناءة لا هدامة، حداثة إبداع لا تضليل، حداثة تجديد لا تقليد، حداثة منطلقة من الأصالة لا حداثة بتر وانفصام حداثة تؤمن بالإنسانية والروحانية، والفطرة والبناء الفكري لا حداثة ضباب وأمواج وتخبط في البحث عن طريق صدفة المبدع ونحن نرفض تكييل الفن وتقييده غير أننا نصر على وجود الاضاءات والإشارات والأنوار التي تشير وتساعد على المسير وتكشف الحسن من السيء.

إذن فنحن من هذا المنبر لا نعارض التجديد ولا نرفضه لكن نعارض الإفراط والتهور والانتقال من تقليد تراثنا إلى تقليد آخرين ولا نقول أن الأوزان الشعرية ضربة لازب بل إن أبواب التجديد مفتوحة والتراث لم يمنع الحداثة من قبل فهو لم يرفض شعر

الموشحات ولا الشعر الحر المعتمد على تفعيلة واحدة وهذا شأننا اليوم وشأن من يأتي بعدنا
فالأهم في الفن أن يرتدي حلل الجمال والحق والخير.

الحدائفة

امتدت جسور وقنوات الاتصال وجداول ينابيع الفكر بين البلاد العربية والأوربية من أوائل القرن التاسع عشر واكتمل نموها في آخره وفي النصف الأول من القرن العشرين كثرت الأقاويل حول الحدائفة في أوربا وكان انشغال البلاد العربية بالنهضة العلمية وملاحقة العلوم الحدائفة هدفهم الأول لذا عرفت الحدائفة بمفاهيم جديدة مغايرة للغرب فعرفت الحدائفة العلمية التي تهدف إلى تحطيم الجهل، وعرفت الحدائفة الاجتماعية التي تسعى إلى إمارة التقاليد البالية والعادات السيئة، وتطلع السياسة إلى الحدائفة العسكرية، وكان الأمر على موعد مع الانطلاقة المصرية التي تمثلت في بعث البعوث العلمية عام 1810 م لمعرفة العلوم العسكرية والحربية ثم الطبية والقانون والجغرافية، أضف إلى ذلك ما احتاج إليه الغرب أنفسهم لتكوين عوامل مساعدة لهم في حكم الدول العربية، وتسخير ثرواتها وامتصاصها، وهذه العلوم التي حملوها تحت سيطرة الدول المستعمرة لا تُعطي المجتمعات منها إلا بمقدار، ولم يُبلغ منه للشعوب إلا النزر القليل، وأغلبها نظري ولا يصل مرحلة الإبداع والابتكار وإنما تسليح عمالة فحسب، ولذلك كان الحديث فيها بمعزل عن المنهجية والواقعية والتطبيقية، والدراسة التحليلية وقد لاحظ ذلك بودريار يقول: "إن الحدائفة تنتشر وسط التباس تام داخل مجتمعات العالم الثالث، لتعوض عن التأخير الحقيقي وعن غياب التنمية" فصول 16:1 الحدائفة.

و لكنها مع ذلك احدثت تغييراً وثورة لدى الشعوب وتطلعاً لحضارة جديدة ولكن ليس رضا عن كل ما هو مائل أم البشر وإنما المقارنة العلمية والمادية والمنهجية وقد داعب الشك العالم العربي والإسلامي في مصداقية الحضارة الأوربية من أول لقاء بها ولذا حاولوا الانتقاء والاختيار وقد وصفت المرحلة تلك بأنها "بناء نظري مأخوذ من مجتمع آخر، وليس مندرجاً برمته في الواقع إلا أنه في الطريق إلى أن يصبح كذلك أو أنه بتعبير أدق مستعمل بصفته نموذجاً بالذات لأجل أن يحققه الفصل".

وهذا الوصف أقرب إلى واقع الحداثة في العالم العربي حيث حاولت أن تسير بالشعوب إلى طريق مستحدث ومغاير للغفلة والتقليد الذي عكر صفو العقول العربية. والحداثة التي خرجت في العالم الثالث وقفت في وجهها الحداثة الإبداعية التي برزت في أوروبا، والحداثة الأوروبية لا تعتمد على المصلحة الإنسانية أو الحق والعدل وإنما الحداثة عندهم هي الوسيلة الناجحة لتكوين مجتمعهم فحسب وحاجة اقتصادهم وحضارته حتماً في إضعاف العالم الثالث لكي يمتصوا ثرواته ويكونوا أسواقاً لمنتجاتهم الأمر الذي جعلهم يخططون لفشل التنمية فغزوا الأسواق العربية، وتساهلوا في القروض المبسطة، والهدايا المخدرة التي تشبه هدايا المصانع الأولى لتكون نمذجة تجارية، ثم تطور تلك إلى أحمال ثقيلة، وهكذا هيمنت الحداثة العلمية والفكرية والسياسية في الغرب، في غمرة الانخراط في الحداثة لدى العالم الثالث تقليداً قابلاً لتخطيط الغرب، وتكون حداثة الغرب محطمة له، لأن فترة انتقال الفكر والقناعة به بين الشعوب والأمم تحتاج إلى حقب من الزمن وطبعاً يكون أخذها بعد أن يكتمل نموها، ومن هنا يبدأون في أفكار جديدة بينما العالم العربي يتمركز على الأفكار التي اكتملت نموها، وهكذا تكون الحلقة التبعية القاتلة للشعوب، ونضرب مثلاً في عملية الإقراض التي أشرنا إليها فنرى الحداثة الفكرية فيها حيث أن الواجب والمنطق القريب أن تمتنع الدول المقرضة عن مواصلة إقراض الشعوب لكن مصطلحتها تبلورت في جدولة الديون واستمرت في تخدير الشعوب، وتسويق منتجاتها، ولا ندري بماذا تأتي الحداثة بعد الجدولة تلك؟.

"إن هذا الواقع الموصوف في خطوطه العامة، والمتصل بسيرة تاريخية معينة، يحكم على العالم الثالث ومنه العالم العربي، بأن يكون في موقع المتلقى "المتحمل" لعواقب العصرية والحداثة، لا المشارك في صنعها بل إن كثيراً من الدراسات وبخاصة الاقتصادية منها، تذهب إلى أن التطور اللا متكافئ بين العالم "الأول" والعالم الثالث يؤكد أكثر فأكثر، انسداد الأفق، واستمرار الدوران في الحلقة المفرغة" فصول يونيه 1984 ص 14.

ومع ذلك فإن تعدد جسور المواصلات وسرعتها وسهولتها ويسرها وإحياء جذور الحضارة، وتفتت الأصالة وإثارة الجدل، تكون عوناً على أن تسير الحداثة العربية جنباً إلى

جنب مع الحداثة الغربية إذا ما استلمت زمامها عقول مثقفة إبداعية فتصل إلى درجة المشاركة في تلون الحداثة وتبلورها ومدى فاعليتها في المجتمع، ومدى تجانسها مع البنيات السالف لها والوقفة المتأنية من بعض فئات المجتمع والمتابعة المتهورة من البعض الآخر جعلت كثيراً من النقاد يعتقد أن تلك الازدواجية بين الأصالة والمعاصرة هي السبب في تأخير الشعوب معللاً بذلك أسباب فشل الماركسية في البلاد العربية "منذ النهضة ونحن نعيش بأجسامنا في قرن، وبأفكارنا وشعورنا في قرن سابق، بدعوى المحافظة على الروح الأصلي، وتلك كانت خدعة من القسم المتأخر في نفسياتنا وفي مجتمعاتنا لاستمرار التأخر واستغلاله، وستبقى مسألة الخصوصية والمميزات مطروحة ولكن في نطاق الاعتراف بوحدة التاريخ، ونفي إمكانية الوفاء الدائم لنمط أصيل، الغرض من التحليل التاريخي هو أن نفصل آخر الأمر الخصوصية عن الأصالة فالأولى حركية متطورة، والثانية سكونية متحجرة، ملتفتة إلى الماضي" فصول ابريل 1984م ص 19.

والواقع أن ذلك مخالف لما تجسد عليه الأمر الآن فإن الدول التي لبست الحلة الماركسية ما تزال في بحور التخلف حتى الآن وإن الدول التي فشلت فيها الماركسية أكثر تقدماً وتحوراً، والحداثة التي ابتغاها العروبي في نصه السالف من ضمن الثقافات الملقفة التي يدعى مروجها الحداثة التي تحطم البناء السالف، ولم تشأ أن تكون بناء بجانب البناء أو بناءً معتمداً على البناء وتمثل التابع والتهافت وراء الآخرين وعدم الثقة بالنفس والانسلاخ من الأصالة والوعي بها إذن فهذا الرأي وأمثاله يسلمنا للتبعية الخالصة، بل إنهم لم يشعروا بالتبعية، ولم يتدبروا في هذا الوافد. هل له مكانة في المجتمعات؟ وما مدى فاعليته؟ وما مدى تلائمه وتلاحمه مع الأسس الثابتة؟ وما قدرته على تكوين النظرة المستقبلية؟ ولن نفاجأ بنتيجة حسنة ما دام العرب أنفسهم لم يشتركوا في صناعة المستحدث ويدركوه إدراكاً تاماً، ولم تتح لهم إجراء التجارب عليه إنما هي نزعات فردية كان لها دويماً في زعزعة الأسس الحضارية الراسخة غير أن من محاسنها التي لا ريب فيها أنها أوجدت جدلاً، فانفجرت من صخورها أراء كان لها قليل من الايجابيات وكثير من السلبيات ولولا أن قيض الله من يحص ويفكر ويحي التراث ويجري المستورد والقديم في ميزان الدين والعقل الواعي

والواقعية لكان في ذلك تدمير وتحطيم لثوابت الأمة وهذه الفئة المعتدلة هي التي تعالج السلبيات وتضئ الطريق للإيجابيات وتنظر نظرة واقعية للحادثة متدبرة لمساراتها وفعاليتها الحادثة والمستقبلية فهي ذات قابلية جدلية يفلح بها من تصدر لتكوينها وقيادتها "لأن الحادثة المرتبطة بالعصرية لا تحيلنا على مفهوم نظري مميز في عناصره المكونة، ويتيح استعمالاً تعميمياً، إن مفهوم الحادثة هو تاريخ أكثر منه أداة ومن ثم لا مناص من استحضار تحولاته، وتناقضاته أي من الضروري اعتبار الجانبين السلبي والإيجابي بالنسبة للمنظور الذي يتم منه التعامل مع العصرية والحادثة" فصول ع3 ابريل 1984م ص 17.

والنص هذا ضوابط منهجية للحادثة أقرب منه وصفاً للحادثة العربية وكثير من النقاد والمنظرين للحادثة يدركون الفرق بين الأسس التي تقوم عليها أحداث الأمم والحداثة الغربية بالذات فالحادثة الغربية تقدم على التحطيم والتدمير للسالف لأن مذهبهم الفكرية تقوم على المادية والفكر البشري الذي يخضع للزمان والمكان والظروف القاصرة وهم يستحدثون ليجدون مخرجا مما هم فيه فيقعون في محاذير أخرى بينما في الدول الإسلامية نجد هناك أسس ثابتة لا تقبل التحطيم لأنها قائمة على أسس إنسانية صالحة لكل زمان ومكان وواقع.

والحادثة في العالم العربي اختلفت من أوجه عديدة، لتلاقحها من جينات متعددة ومختلفة ومن عروق متباعدة، فهي صادرة من مفاهيم متشعبة، فهناك البيئة اليسارية، والغربية البحتة، وقد فعلت فعلها في تكوين المفاهيم لدى المنظرين العرب، وتبلورت سماتها في نظرياتهم، فمنهم من أخذ الشكل وآخرون غاصوا وراء المضمون، ومنهم من أخلص لنقل الأسس الفلسفية ولا نعدم من تبنى المدارس الأدبية والنقدية، وفئة أخرى انعتقت من التراث وأسس مجتمعاتها بل أخذت تضرب بمعولها في التراث الماضي وتشكك في جذوره وامتدادها، والأخيرة هذه تعلقت بين حضارتين فلم تفلح في مواكبة الغربيين لما لهم من القواعد الثابتة التي يقوم عليها مجتمعهم وفكره الشمولي، وفلسفة الارتباط بالحياة، إن كان الهدف أن يتماثل معهم فحسب ولا يب إلى عن مصداقية مسيرتهم ومدى صحة الاتجاه.

نحن إزاء الواقع العربي نستبين الاتجاهات التي تتبلور في:-

1. الاتجاه المعتدل الذي يمثل الانطلاقة الأولى، حيث التزم الأوائل بإيفاد ذوي العقول الناضجة الواعية المدركة، فإنهم بعثوا البعث من النابغين النابهين في الدراسات من الأزهر الشريف بل لم يكتفوا بذلك فرعوه في الغرب وواصلوا لهم الامتداد التربوي الديني والوطني، وفي نظري أن أولئك يمثلون قمة العطاء، وحسن الاخلاص، وقدرة الوعي، فهذا رفاة الطهطاوي ينهل من معين المعرفة التجريبية والقانونية والطبية، ولما عاد لموطنه أسس مدرسة الألسن التي تبنت الترجمة بلغة عربية فصيحة، فكانت مرحلة حافظت على التوازن بين المستحدث الضروري، وبين البناء الحضاري الأصيل، وكانت التجربة هذه تمثل النافذة الأولى على العالم الغربي الذي أبدع في العلم التجريبي وأفاد البشرية بمنهجية الاستفادة من الطبيعة وعمرانها، ويجدر بنا أن الأزهر ومشيخته هو المسئول الأول عن اختيار وتوجيه البعثات وكان العطار شيخ الأزهر رائداً في هذا المضمار.

غير أن استعجال النهضة ومحاولة البلوغ إليها بأقصر السبل، جعل الميزان يختل وتفد كثير من الإرساليات الأجنبية التي ظللت البلاد وامتصت ثرواته.

2. اليقظة الفكرية الإسلامية التي تمخضت عن التكوين الثقافي والاتصال بالمعرفة والتجربة وإجالة النظر بالمقارنة بين وضع المسلمين والتقدم و الرقي الأوروبي، وتمثل اليقظة في فكر جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وأنصارهم وهؤلاء حاولوا أن تكون النهضة شعبية شاملة، فوقفوا في وجه المستبد والفكر السياسي والمادي الطاغوي على البلاد العربية ولم يهدفوا إلى معارضة فلسفة العلم التجريبي ومناهجه بل كانت مطلباً رئيساً لهم، فكانوا يتحلون بالإدراك التام والوعي الكامل بوظيفة المسلم وإحياء أصالته، وإشعال جذوة الإيمان، مع الإصلاح الشامل وتعديل مسار الحضارة نحو الأفضل والأسلم.

3. مرحلة استغراب المشرقيين أو العرب، نتيجة للتلاقح الفكري التي تشعبت جداوله وقنواته، فتولد في الوسط العربي أبناء غربيون بفعل تكوين المفاهيم الفكرية والآليات الذهنية، فأعلنوا أنه لا حضارة للعرب إلا باتباع الغرب والانعتاق من هيمنة الدين

وكل ما هو شرقي، وحثهم أن الحضارة لا تتجزأ، ورائدهم طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) وأشهرهم وأجسرهم سلامة موسى الذي دعا إلى العامية واعتبر مصر جزء من الغرب وهنا لا أسلوب أولئك معتقدتهم فهم فصلوا بين الدين والحياة.

4. وقد واكب هذه النزعة اتجاهات، إحداها يمثل التراث ويعارض كل غربي فهو شديد الحساسية تماماً، كما أن أولئك شديداً المعارض لـكل جديد، وثانيهما اتجاه معتدل يميل إلى الاعتدال والتوازن وقد أخذ به في أحضان الجامعات فكان يعمل على بعد عن الصحافة والأعلام الأمر الذي أضعف أثره في أحيان كثيرة.

وكان الجدل بين الفئات أطفأ من حدة الإفراط في جميع المسارات غير أن الأمر يختلف بين البلدان العربية، ففي الجزيرة قامت النهضة على أسس من البناء الفكري الإسلامي، وكونت حولها أسوار ضد التيارات الاجتماعية والفكرية التي تعارض الدين، بينما أوجدت قنوات الاتصال عن طريق المعرفة التجريبية فحسب، وكانت النزعات الحداثية تمر عبر الحواجز العربية أولاً وتسترفد منه الجزيرة.

أما في لبنان فإن الأمر يختلف تماماً، فقد تمثلت فيها الثقافات العالمية الكبرى ودأبت تبذر بذورها، وتتجذر عبر تربتها فأفسحت المجال للحداثة المفرطة، أما العراق فانطلقت منه زيادة الشعر الحر حيث نازك الملائكة والسياب، والبياتي مما يدل على اتصال بالتمذجة الغربية، والتواصل العميق مع الفكر الأوربي، أما المغرب العربي فإن للاستيطان الفرنسي والمجاورة الأوربية دورهما حيث نشأ عدد من الأدباء الفرنسيين في الجزائر وكذلك الهجرة المغربية لها دورها وما يزال كثير من المغاربة يمارسون الإبداع في فرنسا، ويسجلون في نتاجهم كثيراً من الانطباعات العربية أما الآن فقد امتدت جسور الاتصال أكثر من ذي قبل مما جعل الشعر المنشور يطغى على سائر الإبداع الشعري.

ونحن لو قصرنا تدبرنا في الشعر لرأينا أن مفهوم الحديث والتجديد مَرَّ بمراحل مختلفة، فقد كان الأوائل يعتبرون الحداثة كل ما يطراً على الشعر من تغيير يمثل القيم الفنية

الشائعة والبارزة والأكثر شمولية في العصر فمثلاً طرأت الحداثة في الشعر الإسلامي من جانب سهولة الألفاظ وشعبيتها، متأثرة بالأساليب القرآنية، وتتمثل الحداثة في العصر الأموي في تولد المعارضات والغزل العذري، وإضافة على الخصائص البلاغية المتأثرة بالقرآن، أما العصر العباسي فإنه يمثل العمق الفكري وتدفق يناييعه، والسهولة والرقّة اللفظية التي تنبئ عن الحضارة القائمة والتغريب وراء المحسنات اللفظية، والخروج على العمود الشعري المتعارف عليه وتلوين الشعر لإشكالية المعاصرة تماماً.

وهكذا يكون مفهوم التجديد يبرز عند كل خصائص عصرية ومعروف أن الشعر تظهر فيه الموجات الفنية التي تمثل كل موجة مرحلة بذاتها.

وهناك من يخالف ذلك ويرى أن الحداثة عنصر لازم الشعر من ولادته وإن الاشعاعات المخالفة والتي لم يسبق لها مثيل تمثل الامتداد لمسار الحداثة، فالمخالفات العروضية التي طرأت على الأوزان الشعرية لدى الأقدمين من الشعراء مثال امرئ القيس، وعبيد بن الأبرص، يرى الأقدمون و جل المعاصرين إنها طفيليات من بقايا النشأة والتكوين، ويرى آخرون أنها عنصر الحداثة الضروري الذي يجنح إلى المخالفة وإنها اشعاعات اطفئ بريقها بفعل النقد وهجومهم ويلحق بالمنحى هذا ما طرأ على الأدب من اشراقات فنية وقف ضدها جمهرة النقاد الأوائل كالنوايسات والتماميات، وقد لمعت دراسات حديثة تناولت الأدب القديم من جاهلي وغيره ونظرت إليه بمنظار النقد الحديث والمنطلق الحدائي بصفة خاصة ومنهم ادونيس، والدكتور عبدالله الغدامي الذي أخذ يستعرض معالم الحداثة في الشعر الجاهلي وغيرهما الكثير.

وواقع الشعر العربي الذي اضءت مشاعل النهضة عليه، وكشفت عن سوائه، وتبين للمبدعين والمنظرين أنه يتردى في قاع الجمود الفكري والفني، فانطلقت الشعلة الأولى ممثلة في شعر البارودي الذي يمثل الأصالة الفنية، ولم تتح له التواصل الثقافي مع الغرب، حتى يتمكن من الممازجة بين القديم والحديث وليس لنا أن ندخل هذه الشعلة الفنية في الحداثة أو التحديث إلا من قبيل الانتقال من حالة واقعية إلى حالة أخرى لم يعهد المعاصرون فيروها أمراً حديثاً، وقد تواصل المغرب العربي مع الأدب الأوربي بل الفكر

النقدي له دوره في تطور الحراك الأدبي بل الثقافي والفكري مما أوجد نهضة أدبية ونقدية حديثة.

ثم إن الانتقاء والتواصل والتلاقح بين رجال الفكر المصريين والفكر الغربي أوجد تفاعلاً فكرياً، وجدلاً داخلياً تجسدت مظاهره في الاتجاه الأدبي الذي أعقب البارودي، وتمثل في خطين متوازيين أحدهما تنظيري وثانيهما إبداعي.

أما التنظيري فقد مساره الدكتور طه حسين، وسلامة موسى، ولطفي السيد مع تفاوتهم بين الإفراط والتفريط.

أما التحديث الإبداعي فإننا رأينا ملامحه تستهل في شعر أحمد شوقي لأنه أحيط علماً بالثقافة الأوروبية بعامة والفرنسية بخاصة، حيث درس الحقوق في فرنسا واطلع عن كثب على التيارات الثقافية المعاصرة وأحس بها وحمل نفسه مسئولية الأخذ من هذه الحياض المشرعة أمامه " ثم طلبت العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم، وعلمت أنني مسئول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله، ولا يؤتيها سواه، وإني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تحمد ولا تنفذ " الكرمل ع12 ص 49 / 1984م.

ولا أعتقد أن شرقياً أدرك التيارات السورالية وغيرها في ذلك الحين إنما أدرك الاتجاه المعتدل لذا فإن العالم المستحدثة التي ظهرت في فن شوقي تبلور في الاستلهام الحضاري الواقعي، والصور المستمدة من المشاهد إلى جانب الاشراقات الجمالية في فئة، وخير ما تبرز في المسرحيات الشعرية التي تمثل الإبداع الحقيقي لأحمد شوقي وقد جذب هذا المسار بعض الشباب المغربي فهذا الشابي يتدفق شعره بالفكر المعاصر بل يقطف من الموجات الفنية.

وقد عاصرت هذه النقلة الأدبية اشراقات جديدة تنظيرية وإبداعية، فأخذ العقاد والمازني وعبدالرحمن شكري قسطاً وافراً من الثقافة الأدبية والشعرية بصفة خاصة، واطلعوا على المقاييس النقدية، مع الإدراك الواعي بالأصالة العربية الفنية، وأخذوا ينظرون لأدب الأدباء، وشعر الشعراء، من خلال الأضواء الكاشفة المستمدة أنوارها من التنظيرات الأدبية الغربية، من حيث الوزن و بناء القصيدة، فنادوا بتكوين هيكل هندسي منطقي وتركيب

عضوي للقصيدة، مع التخفف من الضوابط الشعرية العروضية، فأباحوا الشعر المرسل، ونسجوا إبداعهم من خلاله، وطالبوا الشعراء بالعمق الفكري، والنظر إلى النفس وخلجاتها وتفاعلها، واضطرابها، ونادوا بالابتعاد عن المدح وشعر المناسبات، وتبلورت الاتجاهات هذه في مدرسة الديوان التي أصدرت مجلة بهذا الاسم.

إن الاحتكاك الحضاري في بلاد المغرب له مكونات منذ القدم وقد تكاثف في مستهل النهضة بالتواصل التجاري والاستعماري والثقافي. فانتشر التعليم، وظهرت الصحافة وتواصل العرب المغاربة مع فرنسا وأوربا، وتبلور الوعي الوطني، وبفعل هذه العوامل تكونت المقالة والقصة والتطور الشعري فكانت المعالم القديمة والحديثة تتعانق في سائر الفنون. واطلعوا على بعض الشعراء شعراء التجديد، وصار متوازياً لهم أهل التقليد والواقع أن الفكر الذي يولد الفن متقارب.

أما الإبداع الفني الأكثر تحرراً فإن اشراقاته وإضاءته أخذت تلمع من خلال شعر جبران خليل جبران و خليل مطران، أما الأول فإنه خاض عباب المعركة الثقافية دون حواجز أو سدود، فقد ولد في أحضانها في البيئة اليسوعية اللبنانية وغاص في أعماقها أثناء هجرته إلى أمريكا. الأمر الذي جعل شعره ونثره قدوة يقتدى بها أهل الحدائث المعاصرون في لبنان وقد قال معلناً المسببات التي جنحت به إلى التفلت من الضوابط والسياقات الفنية "لم تكن الطرق القديمة تعبر عن أشيائي الجديدة، وهكذا كنت أعمل دائماً على ما ينبغي أن يعبر عنها، ولم أقتصر على صياغة ألفاظ جديدة، بل إن إيقاعاتي وموسيقاي كانت جديدة، وأشكال التأليف كلها كانت جديدة، كان علي أن أجد أشكالاً جديدة لآراء جديدة" الكرمل 12 عام 1984م ص 49.

والذي لا مندوحة عنه فإننا لا بد وأن نقرّ أن جبران تصدر للعمل الفني النثري بمضمون تأملي جديد بحيث لم يعهد في النثر الفني وذلك نابع من تكوين المفاهيم الذهنية والسياقات التي تأثر بها جبران أثناء صقل مواهبه العربية والروافد الغربية، وتكوين المعاصرة والمشاهدة في رحلة الهجرة التي نبغ فيها.

أما خليل مطران فإنه نشأ في المدارس التبشيرية في لبنان غير أنه انتقل إلى مصر وهناك امتزج بالمكونات الثقافية ورجال الفكر والصحافة، وشاركهم الإبداع والإنتاج مع الإعجاب الشديد بالفكر الغربي الأمر الذي أعطى الفن عند خليل مذاقاً خاصاً وقد أحس بالتغيير الفني في شعره "قال بعض المتفنين الجامدين، إن هذا شعر عصري، وهموا بالابتسام، فيا هؤلاء نعم هذا شعر عصري، وفخره أنه عصري وله على سابق الشعر مزية زمانه وعلى سالف الدهر" الكرمل 12 عام 1984 ص 49.

ولا يساورني الشك بأن التجديد الذي لمح على شعر خليل لا يتجاوز التطور الطبيعي للفن الذي يبرز عند كل تغيير اجتماعي أو فكري تماماً كما أحدثه أبو نواس في العصر العباسي.

وامتداد للتغيير الفني الذي تكوّن من خلال استلاهم الآداب العالمية، والإفراط أحياناً بمتابعة المغ إلى منها والانعناق من الأصالة مع مواكبة الثورة التراثية ضد ما هو وافد فإنه يقف بين هذا وذاك مبدأ الاعتدال الذي جنح إليه الأكاديميون في الجامعة، ويتمثل بإستلهم الأصالة، وتمحيص الآداب العالمية ودراستها والاستفادة من كل جيد مفيد. يطل علينا نتيجة لهذا الجدل المتواصل في العالم العربي اتجاهات وتيارات أدبية تفيض أحياناً و تنحسر أحياناً أخرى.

فقد نما الاتجاه إلى الشعر الحر في الربع الثاني من القرن العشرين ؛ فنشرت جريدة القبلة في الحجاز قصيدة من الشعر الحر للشاعر السعودي محمد حسن عواد عام 1342هـ أشارت إلى تقليده لشاعر عراقي في نفس الفترة الزمنية وأخذ ينمو حتى ابدعت فيه رائدته الشاعرة نازك الملائكة، ونشر جلّ نتاجها تحت هذا اللون الفني.

وجاء من بعدها بدر شاكر السياب والبياتي وغيرهما، وصحب الإبداع الفني الحماسُ التنظيري من المبدعين أنفسهم حيث صدرت لنازك مقالات صحفية وكتب تنظيرية تؤيد هذا الاتجاه، وتبين ضوابطه، وتعمق فكره، وتبين أنها ذات وشائج متينة بالأصالة العربية. غير أن هذه الضوابط لم تنال رضا المتأخرين من أصحاب الحداثة إذ يرون فيها ردة

إلى التراث، وأنها لم تحدث جديداً إلا في الشكل وحسب وأنها بضوابطها ومقاييسها كشفت أن الشعر المنشور أو قصيدة النثر وثيقة الارتباط بالأصالة العربية.

وتشعبت اتجاهات هذه المدرسة في الأقطار العربية، ففي مصر تصدر لها كل من أمل دنقل وصلاح عبدالصبور، فابدعوا فيها و لكنهم يخرجوا عن طور الإبداع و تصدر كثير من الصحف التي مالت للاعتدال والتوازن تمثل مجلة (ابداع) التي رصدت الحركة الإبداعية في العالم العربي ولا زالت حتى الآن.

وفي المملكة العربية السعودية روادها الدكتور غازي القصيبي وسعد البواردي وغيرهما. وقد اعتمدت في منهجها على التفعيلة وتكرارها، إلى جانب العمق الفكري والاستمداد من الواقع، والاقتراس من اللقطة الدارجة، والابتعاد عن التقريرية وهؤلاء يمثلون الاعتدال والتوازن بين المعطيات الثقافية العالمية.

وشهدت الستينات انطلاق أكبر ثورة شعرية، وأكثر جرأة، وتشعباً حاملة راية الحرية اللامتناهية. عاملة معول التحطيم ضد كل تراثه وأصالة، زعمه أنه لا بناء بلا تحطيم، وهم الذين أعلنوا بصراحة ووضوح مسمى الحداثة وقد صحب الإبداع فيها موجات من الارتجاج النظيري، معيد قراءة الشعر العربي، متواصلاً مع الشعر الغربي ومفاهيمه وتطوره، وتنامي، مواكباً لتنظيرات نقاده و حاملي رايته ومساراته ومنحنياته ومنعطفاته.

وتعتمد الحداثة هذه على أصول فنية تدور حول اللغة الشاعرة، والتكثيف، والضبابية المتنامية حتى الغموض، وترتكز على الرؤيا والحلم، معرضة عن المعيارية اللغوية في كثير من اتجاهاتها، متفقة في جميع مناحيها على تقويض الموسيقى العربية القديمة؛ فلا اعتماد على الأوزان، ولا القافية، ولا التفعيلة، إنما كل شاعر له الحق في تكوين موسيقى ذاتية لقصيدته، مع التعرض للقديم بالتجريح والسخرية لأن نظريتهم تقدم على الهدم ثم البناء، وقد نأت عن العقل والواقع معاً، فلم يعد الشعر حديثاً عن الأوضاع الذاتية أو النفسية ولا ذات الطابع الاجتماعي، إنما هي إضاءات يلتمسها القارئ من خلال إجمالية النظرة تلو النظرة في الشعر عن طريق توارد الخواطر، وكانت مجلة (شعر) اللبنانية لها دورها النظيري ونشر الإبداع، فاحتضنت ذلك التيار وتبنت آراءه واتجاهاته حتى اكتمل نموها

وظل الحال حتى وقفت عاجزة أمام الضعف الشعري، والتردي الفاحش وكثرة المدعين للإبداع وقد اعلن ادونيس خروجه منها مبيناً أسباب ذلك بقوله "أدى عملنا سوية في مجلة (شعر) يوسف الخال وأنا، بالتعاون مع الأصدقاء الآخرين الذين كونوا هيئة تحريرها، القريبة العاملة، والبعيدة المتعاطفة، أدى عملنا إلى ترسيخ مناخ التجديد، نظرياً وفنياً، بحيث أصبحت خراج الشعر كل محاولة لتحديد الشعر كما كان يحدده النظريون القدامى، وفي أواخر عملنا المشترك أخذ يتضح لي أن هذا الذي حققناه، وهو مهم جداً، لا يكفي، خصوصاً أن معظم هؤلاء العاملين وقفوا عند حدود تغيير الطريقة الموروثة و أكتفوا بهذا التغيير. وقد أكدت التجربة أن البقاء في حدود تغيير الطريقة يندرج في النهاية ضمن إطار الثقافة الموروثة، ويصبح نوعاً من التلاؤم والتكيف، وهذا ما حدث لمجلة (شعر) لذلك لم استغرب من الذين استمروا قائمين عليها، بعد أن تخلت عنها، أن يجهلوا أعمق التجارب الشعرية وأقصاها، وأن يسيئوا فهمها، حتى أن المجلة أخذت تنكر ما بدأته وأخذ التغيير الذي أحدثته حركتها في البداية يظهر كأنه تغير في الدرجة لا في النوع، ومن هنا كان موتها، كما قلت مرة، ضرورة ذاتية في المقام الأول، وذلك من أجل الاحتفاظ بما بدأته، والابقاء عليه ناصعاً، نقياً حياً" الكرمل ص 57 ع 12 عام 1984م.

هذا ينبى عن خلاف جوهرى من أخوة رضعوا من ثدي واحد فمنهم من أدرك الفشل، وحاول اصلاح ما أفسده، ومنهم من رأى غير ذلك وأن اللوم يقع على المنظرين أنفسهم وأن التنظير الفاعل أصبح غائباً، ويكمن سر النجاح في مواصلة التوجيه، وكان رائدهم ادونيس الذي انشأ مجلة (مواقف) ليجعل منها مدرسة جديدة و حدد أهدافها بقوله " ما نحاوله اليوم في (مواقف) يتجاوز ما بدأته (شعر) ويكمله في آن، فلم تعد المسألة أن نغير في الدرجة، أي في الطريقة، بل أصبحت المسألة هي أن نغير في النوع، أي في المعنى، لم تعد المسألة اليوم، مسألة القصيدة، بل مسألة الكتابة، كنت في (شعر) أطمح إلى تأسيس قصيدة جديدة، ولكنني في (مواقف) أطمح إلى تأسيس كتابة جديدة" الكرمل 124 ص 57 1984م.

وهذا الاعلان عن التخلي عن القصيدة والشعر كله هو اعلان الفشل وإن هذا الامتداد الذي يعلنه أنه مكابرة ومن الخير أن يعلن طريقة نثرية حديثة ولا يتعرض للشعر. لذا كان دور مجلة مواقف ضئيلاً ولم تجد رواجاً كما لاقت غيرها من الصحف. وقد شايحت مجلة شعر مجلة مصرية هي (فصول) بل إن أغلب فكرة الحدائث وكتابتها من أولئك الذين تتلمذوا على مجلة شعر، وهي تبنت طرح فكرها حدائث وزراعته في حرية وأن افسحت المجال للأقلام العربية الأخرى غير أنها سارت على نهج المدرسة الحدائثية في مجلة (شعر). وكانت النتيجة أن ظهرت قصيدة النثر، وانتشرت في ربوع الوطن العربي، وأخذت تنمو وتزداد وتكثر، وتتوج الصحف العربية قاصيها ودانيها، ولما أنها تحمل بين طياتها حرية غير متناهية لكي يتمكن المبدع من وصف أحاسيسه ومشاعره وانطباعته ويعبر عن أفكاره العميقة بقدر كاف إلا أن الأمر تجاوز الحدود، وظهرت محاذير لم تكن في الحسبان حيث دخل إلى الميدان من لم يكن أهلاً لاستخراج الدر فكثرت الغناء، وأخذت تعتمزل قصيدة النثر وطراً التذمر منها ثم استفحل وفي مقدمتهم المبدعين والمنظرين الأوائل. ولذا فإن واقع الحدائث اليوم يتبلور في:-

- المحاربة الفعلية من بعض الأدباء، وكأنهم مالوا إلى أن تلك التجربة أثبتت جدارة الأوزان والقافية العربية على البقاء والخلود.
- ومنهم أرباب الشعر الحر وهؤلاء يرون أن التجاوز فيما وراء الشعر الحر يؤدي إلى النثر والسقوط الفني، الأمر الذي دعا كثيراً منهم إلى التنصل من الحدائث.
- ومنهم من أيد قصيدة النثر ولكنه يجنبها كثيراً من المحاذير التي احدثت بها في هذه الأيام، ومعنى ذلك أنه ما زال يسعى إلى تنظير ويصر على نجاحها وسيستقيم عودها عبر مقاييس تتجسد فيما بعد.
- وآخرون يرون أن قصيدة النثر بخير وإنها ما زالت تحمل راية الحدائث والتطوير وإنها سوف تتضمن الإبداع الشعري، وستحمل سر الخلود وأن المبدعين سوف يسقطون لقاء البحر.

الإيحاء بالمكان والزمان

المكان أحد العوامل الملهممة في الحداثة فكم من مكان جميل أوحى بتجربة حديثة ظلت شاخحة أبد الدهر والمكانية تظهر روعتها وأثرها في التجارب الإنسانية في كتابات الرحلات التي تصدر عن فكر راق فاحص وإدراك بالمكان السابق والمكان الحاضر وعناصر القوة بينهما.

وأثر المكانية ظهر بارزاً في تجليات الحداثة المعاصرة انطلاقاً من الاتصال الأول بالغرب ومدينته فهذا رفاة الطهطاوي يوحى له أول مكان ارتاده في مرسيليا يصف روعة القهوة وما زين به من المرايا والزجاج الذي يستدعى معالم صرح بلقيس الممرد وأن دعا رفاة إلى تذكر النصوص العربية في المرأة وبذلك يذكر له مكانه الأول في مصر فيقارنه بمكانه الجديد ويلتقي بعالم اللغات الفرنسي سلفستر دساس ويعجب بلغته وتأليفه كتاب في اللغة العربية بعنوان "التحفة الفنية في علوم العربية" ويعلق الطهطاوي على منواله "التحفة المكتبية في تقريب العربية" الواقع أن رفاة له فضائل كثير نقلها إلى مصر قبل استحداث المدارس، والترجمة لكتب كثيرة، والمحافظة على الآثار المصرية وهو أول من اعتبر إخراجها من بلاده سرقة عظيمة. ثم تابعت التأثير بالمكان الغربي فأخذ العرب ونقلوا إلى بلادهم أفكاراً وترجموا وشاركوا في صنع محادثات كثيرة من العرب المهاجرين وكان للسياسيين دور أيضاً كمثل قول الملك فيصل المشهورة في إحدى جامعات ألمانيا "أتمنى أن يوجد في بلادي مثل هذه الجامعة"، ولكن المؤسف له أن بجوئاً جامعية كثيرة، وإبداعات فكرية وكتب علماء ما زالت روافد فكرية للغرب ولم تنقل إلى العرب وظلت في المكان الذي ابدعت فيه. والمكان شأنه شأن الزمان ليس هو الفاعل للحداثة ولكن عناصره المكثفة هي الموحية بالتجارب ومع تأثير المكان الجديد فإنها تستدعي القديمة وتظهره وربما أظهر دوراً غير مكشوف من قبل والأمكنة الحديثة تدعو للحديث المستجد عن الأمكنة الأصلية لصاحب التجربة فرمما تحدث عنها في بعده بجديت لم يذكره في قربه والنص في الحداثة لا يعطي تكثفاً للحديث الداعي للتجربة ولا يستدعي الصور القريبة التي تدفع للإشارة حوله من طريق

مباشر ولا تأخذ السبيل الأقرب إلى مفهوم الحدث واتجاهات الكاتب في لمحات يدرکہا القارئ بنوع من الذكاء والتدبر في ضوء من التأثير والتأثير ولكن صاحب النص يفسح حول الحدث شبكة الدلالة والعلاقات والإيجاءات والألفاظ المتشابهة والحواس المتداخلة لتفويض على النص ألواناً من الغموض والتأويلات التي يصعب الالتجاء لأحدها لذا فإنهم يعمدون إلى غياب الحدث "فإن اللغة لا تستحضر الحدث، لا ترصده في وجوده الفعلي، بل تمارس عملية معقدة تتراوح بين أن تزيح الحدث (أو الشيء) عن الناظر، ثم تنسج حوله ومن خلاله شبكة معقدة من العلاقات التي يدخل فيها، وبين أن تحول الحدث (أو الشيء) إلى وجود رمزي صرف يختفي فيه الحدث اختفاءً مطلقاً. هكذا يصبح الحديث نصاً حول الشيء يصبح نصاً للغيب أو تغيماً للحدث، وتخفيفاً للضوء المتجه.

الزمن عامل مهم في تجليات الحداثة وتكوينها وبروزها فالزمن ماض وحاضر ومستقبل، وكل ماض حاضر عاش فيه وكل حاضر سيكون ماض وكل مستقبل سيكون حاضر وماض وهكذا. والحداثة باختلاف سماتها وماهيتها مرتبطة مع الحاضر وموجودة في كل زمن وإن اختلفت نوعها ولونها واتجاهاتها، وعناصرها تبعاً للمؤثرات الفكرية والفنية والمكانية ومقدارها من حيث الكم والكيف، وليس كل حادثة الأشياء الطارئة على الأدب في العصور المتأخرة حادثة مفيدة بل تكون لها مكانتها في حينها ثم لم تلبث تكون ثقيلة مثل الحداثة في التآني بالشعر، والحداثة في تعدد المحسنات البديعية والحداثة تجليات بعض المذاهب الفكرية الهدامة. والزمن لا يعمل بمعزل عن العوامل الأخرى المؤثرة فلا بد من تفاعله معها ومع الزمن يتجلى الأفضل ويثبت وينكشف الزائف ويسقط.

والحداثة تعطي الشكل أهمية قصوى فيرى كمال أبو أديب بأنه أهم من المضمون "إن نفي المضمون أقل خطورة كثيراً من نفي الشكل" 47:1 فصول.

لأن الشكل مرتبط بالعمل والتطبيق وتجسيد الأمر وهم يخلطون في هذا الشكل بين التنفيذي العقائدي التوقيفي وبين الأعمال التي لم تثبت وبين المذاهب الصوفية وبين الأشكال الأدبية سواء منها ما هو ذات قواعد وأصول أم أنه مستنبط ومستنتج أو لون من ألوان الأدب العارضة من قبل الشعر والمقامة، والموشحات، والأزجال.

"ومن الأسهل كثيراً ألا يذهب الناس إلى الصلاة من أن يحرقوا مسجداً" لكن إحراق المسجد أكثر إثارة اجتماعية. لأن الأرض جعلت كلها مسجد وظهور والهدف من المسجد هو العمل لا المكان والشكل عنده يتمثل فيما يسمونه (طقوس) ويدخلون ضمنه أنواع الأعمال من العبادات، وتقول إن الأعمال الشرعية الثابتة التوقيفية هي فوق العقل أولاً لأنها من خالق العقل وكذلك الأسس اللغوية والنحوية التي تكون مجالاً لتغير معاني اللغة وشكلها الثابت في القرآن الكريم والقواعد المتواترة في أصل اللغة أمر لا يخضع لحدائثهم أما أن يأتي بأنواع من الأدب الجديد أو الكلمات المدحية، أو أن يتحللوا من الوزن والقافية فلا تعارض أن تكون أبنية جديدة خاضعة للتقدم والتحليل ولكن ما قبلها ليست خاضع للهدم والتحطيم كما يقولون وقد رأى أيضاً أن السلطة تعتبر قيداً تقبلاً على الشكل فإن القواعد والضوابط تظلاً أمامهم سلطة يسعون للتحرر منها وكذلك فإن السلطة هذه منها ما هو أسس ثابت لا انفكاك عنها ومنها ما يفسح المجال لتغيرات كثيرة بل إن الشكل الذي يريدونه يرفض أن يتشكل نظام محسوس حتى وإن نتج عن منهجهم لأن ذلك يكون السلطة النموذجية ويرون أن يكون نظاماً فردياً لكل نص من النصوص وأن تكون روابطه وأنظمتها غير محسوسة ولا مرئية وليس قابلاً للتحديد إلا بمصطلحات خاصة.

والواقع عندهم أن النموذج يمثل البذرة الأولى ثم متابعتها تلزم بالشكل حتى تصبح قاعدة ملزمة ومن ثم تكون سلطة وبأنواع ومنها الشكل طقوس أي ذات معتقد ديني أو تقليد اجتماعي أو فني يوضح ذلك نظرة كمال إلى القصيدة العربية وتطورها حيث يقول: "خلال تطورها التاريخي تتحول القصيدة العربية إلى أداء طقس على مستوى آخر هو مستوى الوظيفة التي تحققها في سياق معين (المديح، الرثاء، الهجاء) والوظيفة التي تحققها حركاتها أو شرائحها ضمن بنيتها الكلية هكذا تصبح كل قصيدة مديح تعاملاً مع طقس قائم، وصدروا عنه وممارسته له" 48:1 فصول.

ولذا فإنهم يبدأون بتفتيت الطقوس ثم تبدأ عملية التحطيم والانفصال والاستحداث الذي يقوم على إنقراض المندثر "وخلال هذا الاستمرار الطقوسي للقصيدة يظل الإيقاع مكوناً أساسياً فيها ويظل كذلك بخصائصه التقليدية الطقسية طبعاً وحين تأتي

لحظة الانفجار فإن الانفجار يتجسد أول ما يتجسد في البدء بتدمير المكون الإيقاعي للقصيدة
- الطقس - أي بتدمير الطقس في آخر مكوناته جذرية الإيقاع والتكرار.

الشاعر محمد العيد يوظف الرمز مع التزامه بالشكل العروضي، فكثير من الشعراء
الفرنسيين والعرب نظروا إلى الليل نظرة فلسفية أجالوا التأمل وأطالوا الفكر في الليل
ووضعوه رمزاً للبلاء تارة وللظلم والطغيان تارة أخرى، والشاعر محمد العيد وظف الليل
لمضامين متعددة ومنها الاستعمار:

يا ليل أسرفت بردا	وظلمة ورياحا
أطفئ حروبك عنا	ولا تزدها لقاحا
وقف لنعقد حلفا	ما بيننا واصطلاحا
إننا عليك اقترحنا	فما أجتنا اقتراحا
يا ليل ما فيك نجم	جلا الدجى وأزاحا
إلا كواكب حيرى	لم تضح لي اتضاحا
بطيئة لست أدري	بها ونى أم كساحا
تحكي أدلاء قومي	مرضى تسوس صحاحا
من غلمة تمارى	وشيخة تتلاحى
ودوا النزاع فكانوا	مثل الكباش نطاحا
أخشى على الشعب هلكا	بييده واجتياحا
من السن قاذفات	تروى القبيح فصاحا
وأنفوس خائفات	تهوى الخنى والسفاحا
ومن قوانين جور	سلت عليها صفاحا
ومن شقاء ملح	غدا عليه وراحا
من أين يفلح شعب	أبى الهدى والصلاحا

فأعقبته افتضاحا
غير الكلام سلاحا
من المغير اكتساحا
ولا تخرج منه فلاحا⁽¹⁾

خاض الميادين دعوى
لأنه لم يهوى
إن كنت اعزل فارقب
لا تنتظر منه خيرا

ويتلبس المكان بالزمن الشعري فتارة تعلق مكانة المكان وتكون الفاعلة في الزمن وتارة يؤطر الزمان المكان ويتحكم في تكوينه مثل زمن الرفاه وزمن التقشف والانكماش وفي مكان الفقر ومكان الغنى في الزمن الذي يعتر الإنسان في تقلبات الأحوال عليه يتجلى ذلك في مكانة المكان صورة الإنسان في فقره وصورته في غناه وتترى صور المكان وحلقات الزمان في الصور الشعرية أو الإيحاء الشعري أو الإسقاط أو الاستدكار والمكان يتفاعل مع الحدث فالسجن غير حدائق الرفاه، والمدن غير القرى، والريف غير نزل البادية وخيام الشعر قديماً والخيام البيضاء حديثاً بل الأعمدة الحديدية الجاهزة. والحدث يلزم بالمكان مثل الحوادث المرورية، وحوادث الغرام والعشق. الأسفار في أصقاع المعمورة كلها أماكن تمحورت في الحدث السردى كما يظهر في قصص الحوادث التاريخية، وبعض القصص الذاتى الشعري.

يقول الشاعر المغربي عز الدين الإدريسي المولود عام 1942 من قصيدة (غروب):

غربت شمس الأصيل فوق لجين البحر
وكست بألوانها الزاهية أمواجه الدافقات
وتجلت السماء قشبية بدیعة القسما
كانها لوحة رُسمت بمداد الإعجاز والملكوت
تسلب لب المحدث في تناسق محاسنها الرائعات
وتبدو آية من آيات الجمال الخارق الصفات
تعالت عن كل تشبيه وفاقت منتهي التصورات

(1) الديوان 47

تعانقت الرؤى في أفقها عناق التوسلات
و أحطن بقرص الشمس الآخذ في الأفول و المواراة
تحجبه عن المغيب و تذوب في إثره متلاشيات⁽¹⁾

مميزات النص:

- 1- يتعامل مع اللفظة المفردة أو العبارة المفردة، فالمعنى له احتمالات و بلوغ كامل التأمل إليه غير مباشر.
- 2- التشكيل الإيقاعي فإنهم يداخلون بين التفاعيل والبحور والقوافي.
- 3- التداخل واللبس الذي يشبه حد ما اللوحات الفنية المتداخلة، فالشاعر يداخل المعاني و يداخل الصورة و يداخل الشكل و بذلك يصبح النص جسد من الاحتمالات و بؤرة من التعدد و يفسر كمال أديب ذلك بقوله: " كل لبس هو تشابك بين أكثر من واحد لأن الواحد لا يمكن أن يكون ملتبساً (إلا إذا خرج عن كونه واحداً) ولأنه تشابك بين أكثر من واحد، فإن اللبس هو تجسد للتعددية، وآلية خلق لها في آن واحد، و من التعددية تنشأ الطبيعة الاحتمالية وهكذا تبدو الحداثة مرتبطة جذرياً بالتعددية والاحتمالات وهكذا يتحول النص من كتلة لغوية ذات بُعد واحد إلى جسد من الاحتمالات و بؤرة للتعدد."

غير أن هناك فئة من المنظرين المحدثين يتأولون النصوص التي صدرت عن كبار الأدباء في القرن التاسع عشر و يستمدون منها دعائم يرتكزون عليها، فالكاتبة خالدة سعيد ترى أن طه حسين وعلي عبدالرزاق هما أول من خاض غمار معركة زعزعة القديم حيث يريان " أن الإنسان يملك موروثه ولا يملكه هذا الموروث " ولا أتصور أن الكاتبين يتجاوزا حدود الدين في قولهما هذا وإنما يقصدان الفكر والأدب لا الأمور التوقيفية الدينية ولكن المتأخرين حملوا أقوالها على ما يبتغونه. و معروف أن الأمور غير التوقيفية والقواعد اللغوية

(1) عز الدين الإدريسي اشراقات 106

الثابتة لا يمانع من تطويرها والاستحداث فيها إذا لم تعارض الدين وتكون معول هدم للغة القرآن. الواقع أن الكاتبة تحاول أن تتلمس بعض الأقوال المبتورة حتى تضم وتدعم مدرستها بأقوال الرواد من الأدباء كمثّل طه حسين، والعقاد ومحمد هيكل ومعروف أن النصوص تحمل أوجها كثيرة.

وهذا أمر واضح المغالطة لأن مثقفي العرب يستقون من النص ويدركون ما وراءه ولا يكتفون بما ينقل إليهم لأن ذلك أشبه بصبغ الأخبار الدولية اليوم فكل دولة تصبغ الأخبار كما تريد وكذلك النقاد وحملة الفكر الجديد و مثلهم أنصار القديم.

وترى الكاتبة خالدة أن جيل الأدباء قد ألقوا بالدين ظهرياً وأعرضوا عن التراث واستبدلوها بالعقل والواقع التاريخي [هذا أمر ظاهر الافتراء عليهم يدركه كل من أطلع على كتبهم]، " فقد مثل فكر الرواد الأوائل قطيعة مع المرجعية الدينية والتراثية كمعيار ومصدر وحيد للحقيقة وأقام مرجعين بديلين ؛ الفعل والواقع التاريخي، وكلاهما إنساني ومن ثم تطوري ". وهذا أمر مخالف للواقع ألم تقم الحضارة الأوربية على جسور من عقول الأسلاف الأوائل والحضارات المتعاقبة، وباعترافهم أن الجديد مشع من الماضي الواقع الحاضر، مهما قيل عن جدته وحدثه، أما الأدباء العرب وخاصة في القرن التاسع عشر فإنهم قاموا بدور الأمانة على الفكر فأحيوا التراث واستمدوا من المفيد الجديد من الغرب ولم يشأوا أو يفرضوا القطيعة بين الدين والواقع والمجتمع حتى الذي يضمّر ذلك لم يجرأ على إظهاره غير أن الكلمات قابلة للتأويل والتحريف لذا فإن تأويل الكاتب لكلمة طه حسين يندرج في هذا التصنيف لأن هذا الكلمة يؤيدها الجميع والواقع أن الإنسان متغير في كل لحظة يمر عليها ولم يضع له قوالب يتقمصها بل إن الفعل وسيلة للحوار والنقاش والجدل والتدبر.

وهناك أدباء عرب لم يسبروا الفكر العربي واستعمالهم البحث في الفكر الغربي مبكراً فظنوا أن لا وجود لمثل هذا الفكر في الأدب العربي وأخذ بعضهم سلاح المقالة الانطباعية وجرد التراث من تراكم المعرفة وبعض هؤلاء عادوا إلى كتب التراث وأدركوا ما أدركوا وقرنوا وحالوا جمع الفكر والمقارنة والمفارقة ثم الالتقاء.

وهناك أدباء من المسيحيين لم يبالوا بأقوالهم بل ربما تظهر ضدّيتهم للدين الإسلامي وإن مالوا إلى الحنين للفكر الديني الآخر وهؤلاء ندرك أنهم غير ملزمين بالتوجه الديني الإسلامي ولكن نناقشهم ونكشف عن توجهاتهم حتى يدرك الآخرون القرب من الحقيقة. ومن هذا القبيل قولها عن جبران "يجعل الإنسان مصدر المعايير بدل أن يكون خاضعاً للمعايير من خارج"

وهذا القول مرفوض لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأعطاه الفعل وأفسح المجال ليتدبر ويعمل به ولكنه سرعان ما احتاج إلى توجيه وإرشاد فأرسل الرسل فكان المحصلة العامة بعد ختم الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى وضع المعايير التي يعلم الله أن الإنسان لا يقدر على وضع قوانين لها وضمن لمن سار عليه الصلاح في دنياه والسعادة في آخرته لذلك تقول أن هناك معايير ربانية توقيفية ربما لا يدرك كنهها العقل يجب العمل بها.

المثالية والواقعية

المثالية: بلوغ الكمال في الأعمال الربانية والدينية، والأمني الإنسانية، والسعادة الفردية والأسرية، والطموحات الاجتماعية. والمثالية هي السلاسل التي تدفع الإنسان إلى الأمام حتى تشحذ فكرة، وتكون مقياساً لتطوره وميزاناً لقدرته، والمثالية هي الآمال الإنسانية المتنامية الداعية المستمرة إلى المواصلة العملية والتواصل الاجتماعي، هي التي تشبع الغرائز الإنسانية، التي تؤدي إلى الكمال الذي يبلغه الإنسان والمثالية لا تقف عند أمور ذات حدود وقيود وإنما تتشعب وتتفاوت فهناك مثالية ينشدها المجتمع وهناك تفاوت بين مثالية الأفراد والمثالية متوالدة، وهي متغيرة لا نهاية لها ولا اعتدال للنفس الإنسانية بدون الجري وراءها والتطلع لها.

والمثالية الأولى عندنا وفي مجتمعاتنا تتمثل في الإيمان وزيادته والثبات عليه وعدم تغييره بها ومن ثم يصلح المطلب الديني وأهدافه، والإسلام الدين الرباني جعل من الإنسان عابداً عاملاً فهو يلتقي مع المجتمعات الأخرى في كثير من المثالية التي تدعو إلى الإنسانية ولا يعارضها الفرد وهناك مثاليات ظاهرة المطالب الدينية وتجد أن عملها مما يحض عليه الإسلام، من هذا تكون التوازن والاعتدال أمام المسلم وواقعية رغباته وتطلعاته وآماله فأصبح عاملاً فاعلاً حتى في آخر لحظة من حياته فهو إن عمل لديناه وإنجاز له يكون بقدر إخلاصه وتفانيه وتعليمه المساعد حيث يتسلح بالتجارب الإنسانية وأن فرغ من دنياه ولا إضاله فارغ، فإن العبادة تدعوه ليكون له مخزوناً أخروبياً ولن يبلغ المبتغى ولا ربه ولا نصيفه لذا وضع الله منهجاً يومياً للإنسان مع الدعوة المستمرة لتنامي العطاء الإنساني وتنافسه ولكن الدعوة الفعلية، والدعوة النابعة من التكون الإنساني، والغرائز الذاتية، لهذه المثالية، هل تحول دون النظرة الواقعية التي عرفت بأنها "التمثيل الموضوعي للواقع المعاصر" منهج الواقعية الإبداع الأولى ص 36.

والذي لا ريب فيه، فلا محالة من أن العمل والتدبر والاستمداد من الواقع أمر حتمي ومطلب ديني "القناعة كنز لا يفنى" و مطلب فردي ذاتي حيث يؤدي إلى استخدام

العقل وطلب المعرفة المساعدة للعمل والتكوين الأسري والمادي والنظرة الواقعية هي التي من خلالها ينمو الإنسان فكرياً والتوازن بين الواقع مع المجتمع والفردية والإنسانية مطالب متشابكة متآزرة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى يؤدي إلى الاعتدال وحسن التدبر والعيش بسلام، وهل المثالية والواقعية متعلقة بالفرد أم بالمجتمع أم بهما جميعاً؟ ونحن لو نظرنا إلى النتائج التاريخية وقرأنا الواقع المحيط بنا لرأينا الجنوح الفردي إلى المثالية في كثير من المجتمعات ويتمثل ذلك في الديانات والمذاهب الصوفية وكانت المراحل القديمة يغلب عليها الطابع المثل إلى المغالي، فترى الديانة المسيحية تهيمن عليها الكنيسة التي تغ إلى في الروحانية وتصرف المجتمعات عن النظرة الواقعية ورأينا الديانة البوذية كيف هيمن على المجتمع الآسيوي. وبرزت إفرازات هذه الظواهر على المجتمع الإسلامي مما كون المذهب الصوفي. إلى جانب مجتمعات لم تدخل التاريخية اعتمدت على الواقعية البدائية، أما في العصور المتأخرة فإن الثورة ضد المثالية كانت طاغية على المجتمع الأوربي فدالت دولة المثالية ولمع نجم الواقعية المغالية على انقاض المثالية الطاغية، ولذا فإن المجتمع الغربي وحضارته فقد التوازن والاعتدال في المجتمع والأفراد معاً.

والمثالية والواقعية بين الأفراد إنما هي جدول نابع من الظواهر الاجتماعية ونحن لو نظرنا إلى الواقعية الغربية وما هيأت الدولة لأفرادها من كماليات فضلاً عن الضروريات مع التكوين الذهني الذي يغلب عليه الطابع الواقعي للفرد فهل نعم هذا الفرد وأحس بإنسانية ووظائفه الحياتية واستغنى عن المثالية؟ الواقع الذي ظهر لكل البشر أن الفرد طغى عليه الفراغ النفسي وأمراضه. ولم يعد يأنس إلى الملذات التي تأتي بدون جهد أو تعب أو تمني أو تطلع ولم يكن أمامه آمالاً وأهدافاً ومثالية تدعوه إلى مواصلة العمل "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ".

ويبين المثالية والواقعية فيافي شاسعة وأفاق واسعة، وصحاري قاحلة، وسراب متواصل ينقشع أدناه ويمتد أقصاه. الأمر الذي أدى إلى ضياع أمم ومجتمعات عبر الحقب التاريخية رغم العقلانية التي أختص بها الإنسان ورغم الديانات الإرشادية التي نزلت لتصحيح المسارات؛ تهدي السبل وتقيم التوازن والاعتدال وكثير ما عطلت الرغبات

والمصالح الفردية السياسية منها والمعنوية، والاجتماعية أحياناً كثيراً ما جنحت عن السبل المستقيمة ورسمت مناهج الضياع وتدفقت عبر أوديته وهوت من قممه وتلاله فكان التعثر الإنساني.

ولكن المنهجية الواقعية المعاصرة وطغيان العقلية هل تلامس الواقع الموضوعي وتحسس إيجابياته وتفرز سلبياته لتقيم مناهج اعتدالية يسعد بها الإنسان وتنقذه من التدرج في الهاوية. إن الإنسان اليوم أكثر قدرة من أسلافه على التوافق والاختيار السليم وذلك لأنه متاح له الاطلاع على المعرفة من جميع جوانبها ويستقى من الموارد الفكرية ويتجهها بتدبر ورؤية تساعد على صقلها، إلى جانب المقارنة بين الأديان وأنها أفضل وأشمل وأكثر تفاعلية ويتناسب مع العقل والفرد والمجتمع والتفاعل مع الكون والأهداف الإنسانية ومع التكوين الإنساني ذاته ومتغيراته الناجمة عن نفسياته وغرائزه ولو يتاح للإنسانية ولعقلاتها ومفكرها الذين ينظرون بعقلية واعية بعيداً عن الاتجاهات المبدئية، ودرسوا بموضوعية لاتجهوا إلى المناهج السليمة ولكن هيهات فقد وقعنا في المثاليات المغالية، والمتوازية، والمتعارضة ووظفها الإنسان لآماله الرفاهية أو السياسية أو المذهبية.

والنظرة المثالية المغالية كانت سبباً في وجود الثنائية النظرية وربما الواقعية في المجتمعات العربية والإسلامية ودول العالم الثالث الأمر الذي عرقل مسيرة التقدم في كثير من هذه الدول وجعل الصراع يستثير بين مفكريها وبين منفذيها مما أحدث فجوة كبرى بين السياسيين والمثقفين حيث ظن الكثير أنهما يتعارضان ولا يلتقيان يختلفان ولا يتفقان وإن في ظهور أحدهما قضاء إلى الآخر حتى ظلت رؤية الاعتدال تقرب من المستحيل، فنحن نرى المواقف السلبية من كثير من المفكرين والذين ينشدون المثالية في التنفيذ بل ويقدمون في أولئك العلماء الذين أدركوا الواقع وتعاونوا مع المنفذين لعلهم يؤثرون فيسيروا على أفضل الطرق وأسلمها. وكان المنفذون يخشون التعامل مع المثالية الفكرية ويرهبونها وبين هذا وذاك فقدنا الكثير من العطاء على المستوى الاجتماعي والفردى فقدنا التعاون والتكاتف والتآزر بين قطبين كبيرين هما المفكرون والمنفذون، فقد التنفيذ العوامل المساعدة وفقد الفكر التطبيق مما أفقده التأثير. واستجابة المنفذين لمقترحات وأراء المفكرين يؤدي إلى التكامل والتعاضد لا

إلى الضعف والتناحر ويقف في وجه الفرقة والتضاد ونرى التجربة التي نعيشها في بلادنا خير مثال في ذلك فإن العلماء يلتقون بولاية الأمر في مواعيد منظمة وزيارات ميدانية فيسمع الولاية منهم وينفذون آراءهم ويطلع العلماء على العقبات والمشاكل التي تعترض التنفيذ ومن ثم يكون هناك الحوار والنقاش الذي يؤدي إلى الاعتدال والتوازن وهؤلاء العلماء والمفكرون هم أكثر فعالية وأقدر على التنفيذ أو توليد الآراء القابلة للتطبيق والتألف. ونحن لو نظرنا إلى الذين امتطوا المثالية المغالية وطالبوا بتنفيذها وهم على بعد عنها لم يكن لهم كبير أثر أو ربما تلاشى وأثر على عطائهم الفكري وأدى إلى انغلاقه ذاتية ففقدوا أنفسهم وفقدتهم مجتمعهم لأنهم لو استمروا في العطاء وأخذوا بجانب من الواقعية لكان أفضل ويقرب إلى ذهني مثال حيث كنت أتابع خطيباً في جامع كبير فكان ذو فصاحة ومنهجية وخطبته وشموليته في المعالجة مع معالجة المشاكل المعاصرة مما حبه للناس وكان له تأثير كبير غير أنه انقطع فلما سألنا عنه وجدنا السبب أنه ضاق ذرعا بالحديث عن الإلزامية بالحديث عن الأسابيع ذات النشاط المحدود مثل أسبوع المرور، مما أدى إلى الخلاف بينه وبين مدير الأوقاف وبغض النظر عن تأييدها ومعارضتها ولكن أليست مواضيع اجتماعية؟ وما يهم المجتمع فإن الإسلام يبحث عليه فمثلاً أسبوع المرور أليس فيه إنقاذ النفس الإنسانية ألا تستحق أن ينطلق منها الخطيب ويحي ضمير الفرد ويجعل منه رقيباً في سيره وتعامله مع العربات والطرقات ومثله النظافة، وأسبوع المساجد والارتباط بها ونحن لو نظرنا إلى مثالية هذا الخطيب ألم تحرمنا منه قدراته الإبداعية على معالجة القضايا وغرس الإيمان في التعامل البشري.

أن مثل هذا وغيره كان الأجدر بهم الاعتدال والتوازن في لا يخالف الدين الحنيف بل إن ولى الأمر يؤيدهم ويدعوهم لمعالجة القضايا ضمن التعاليم الشرعية. والعلماء والمفكرون والمثقفون مطالبون بالتعاون والتآزر مع المنفذين حتى يتمكنوا من تطبيق علمهم وفكرهم وكما أن العالم يبحث عن الفكرة وينشرها فإن عليه أن يبحث عن العمل بها وتطبيقها أي يجب عليهم الخدمة الإجبارية الإلزامية فيدخلون معترك التنفيذ ويدركوا صعوبته ومن ثم يبحثون عن كيفية التنفيذ المتغيرة المستمرة التي لا تتأبى عن المعاصرة وحتى

نجمع بين المثالية والواقعية فإن الواقعية يجب أن تكون الأرضية التي تنطلق منها ومن خلال تفحصها وإبراز إيجابياتها وفرز سلبياتها وإمكانية تعديلها وإمكانية التغيير الذي يؤدي إلى المستقبل فإن الفرد والمجتمع يجب أن ينطلق منها غير أن المثالية هي التي تشده وتدعوه إلى النجاح والتواصل والاستمرارية مع القدرة التنفيذية عن طريق السعي وراء المثالية المتشعبة التي تكون في كل شأن من شئون الحياة فتدعو الإنسان إلى التنافس والتطور والاستمرارية وتدفع به إلى الأمام والتنافس الشريف، وتجعله يحس بنفسه وبمجتمعه، فيواصل الإنتاجية العملية التي لا يعدم الفائدة منها في دنياه وآخرته. والمثالية المتكاملة التي جنح إليها قليل من أدبائها ففقدنا عطاءهم الفكري وإبداعهم الأدبي بل أن بعضهم أحجم عن الانخراط في المجتمع وقراءته وتفاعله معه فظل في معزل عن ملهمات الإبداع وظل يتوقع على ذاتيته بل إن آخرين أغرته المثالية في التعايش الأسري ولم يأخذ بمبدأ الخطأ والصواب والعقل والهوى التي تمكن في التركيب الإنساني ويقوم العقل بعملية الاعتدال والتوازن ووجدت الحدود الشرعية من أجلها.

مصير الحداثة

إن الاتجاه السائد إلى تفجير اللغة وتحطيم الأوزان والإعراض عنها والاستخفاف بها والتعاقب مع الموجات الموسيقية العاتية التي لا تقوم على ترتيب أو ترتيب أو تنظيم ما يقذف بالشعر إلى محيط النثر وتذهب الموجات غير المقاسة وتزول خاصية وقد صرح الكثير بهذه الهدفية ولكن السؤال المطروح ثم ماذا يعد هذا من جديد للشعر؟! أينقرض أم أن مصيره متعلق بالإنسان يدوم ما دام الإنسان يعيش، الذي لا ريب فيه أن الشعر لن يندثر ولن يتلاشى ولن ينعدم والذي اتوقعه إن كان الغلبة لنداء الاندماج والامتزاج والتحطيم والتدمير فلن تلبث راكدة زمناً طويلاً ويستخرج الزهرة من أكمامها والذي أرجحه أنها ستعود إلى جذورها الأول جذور الأصالة وتتكون فروعها من هذه الدوحة تماماً كما عاد الأدب الإنجليزي إلى أوزانه وضوابطه بعد أن ساح برحلته التنظيرية والإبداعية في جداول النثرية فترة زمنية: "ويمكن أن نستأنس هنا بالفترة التي عرفت الشعر الإنجليزي باسم "المورلي" 1920 م حين أعاد إليه باوند و أليوت أوزانها المعروفة بعد الفترة التجريبية التي غير فيها - عبر الشعر الحر - أسلوب الشعر الإنجليزي تغيراً نهائياً في أركانها الثلاثة: الإيقاعية والتعبيرية والفكرية"⁽¹⁾.

والدكتور يعتبر مرحلة الحداثة مرحلة تجريبية فندعى أن شعرنا ما يزال يعيش فترته التجريبية "التي ستنجلي كما يبدو، ولكن لن نعدم الجديد من خلال التجربة هذه فإنه لا بد وأن يتأثر الإيقاع فيكون أكثر تلوناً من الأوزان القديمة، وتتأثر الصياغة بما يتناسب مع روح العصر ولغته وطرائق أساليبه ومخزونه اللفظي.

بقدر ما وُهب الشاعر من مواهب واستعدادات، وما يشبه الإلهام بقدر ما يحتاج إلى تدريب وممارسة وتنمية لعبقريته، وأكثر الناس تواضعاً أمام العلماء هم أولئك العظماء، فعظماء الشعر العربي هم أولئك الذين يقتفون أثر الشعراء ويسعون وراءهم مهطعين طلباً

(1) حركة الشعر الحديث في سورية أحمد بسام سباعي ص 531

ليبت شعر أو مقطوعة، ملازمين أولئك الشعراء الفقراء، فاستمعوا لإبداعهم، واستلهموا ما حوته ذاكرتهم من شعر الأسلاف، فطرفة بن العبد راوية لأعمامه وأخواله، وزهير راوية لأوس بن حجر وبشامة بن غدير ورواته كونوا مدرسة عبيد الشعر أو مدرسة الصنعة، وعباقرة الشعر الأموي لهم كبير التواصل مع شعراء الجاهلية وراوية أشعارهم كما تحدث الفرزدق في شعره، ورواد الشعر العباسي تولدت عبقريتهم عن طول تدارس وتدبر وحفظ ورواية لأسلافهم من شعراء العربية من أمثال بشار وأبي نواس، وأبي العتاهية وأبي تمام والبحري والمنيبي وغيرهم فإن الباحث في حياتهم يذهل أمام القدرة الجادة والتواصل لتكوين عبقريتهم الشعرية.

وفي عهد الضعف والتدهور والتأخر في أوروبا سادت المقولة "إن الموهبة في حسن السبك، كانت تكفي لنيل الرضى والاستحسان، وإن تبصر الفنان في فنه، وفي دروس معلميه، وفي النصائح الماثورة، لا يغنى العمل الأدبي في شيء فلا بدّ من النماذج العالية" ص10.

فكان الأدب الساقط الضعيف أدب العصور الوسطى، حتى ظهرت فرقة من الشباب تمردوا على الواقع في حو إلى 1546 م فأدركوا أن العلم والمعرفة أولاً وهنا عقدوا مقارنة بين معاصريهم والشعراء السابقين فأدركوا عظمة الأسلاف ونهجوا نهجهم وكانت من أقوالهم "أنه مهما تعلم الإنسان لا يشعر بالكفاية لممارسة أنبل الأعمال بتكوين قاعدة معلوماتية وممارسة".

ومن حصاد هؤلاء إنهم أدركوا هدفية وغاية الشعر السامية وأنه جزء من الدين وعامل مهم لصالح الإنسانية، فيجب استعماله في القيم والمثل وسخروا مما هو متعارف عن الشعر "لم يكن في أول عهده سوى لا هوث رمزي، الذي يُدخل إلى عقول الناس الغلاظ بالأمثال المسلية والملونة، الأسرار التي ما كانوا يستطيعوا فهمها عندما كانت تكشف لهم الحقيقة بصراحة تامة" ص12.

فهم ينسبونه إلى الآلهة فهو إلهام من الخارج، ونسبة قوة الشعر وقدرته إلى الخارج أمر عند العرب أيضاً حيث ينسبونه إلى شيطان الشعر رفيق كل شاعر.

وكل ذلك أعرض عنه النقاد والعرب أولاً فحثوا على الرواية لزيادة المخزون، واستشعار النموذج السلف، وقالوا بالممارسة، فهي المثقف للموهبة والمغذية لها. وكذلك فعل الأمين في روما فقد تتلمذوا على المدرسة الإغريقية وذلك ما فعلته رائدة المدرسة الأدبية الحديثة المدرسة الفرنسية "فقد انتسبوا بتواضع إلى المدرسة الإغريقية" وتبلورت المدارس وتنوعت، وأصبحت فرنسا تسلك المدارس الأدبية، وتصدرها، ومن هنا لا نجد لأي اتجاه أدبي فاعلية، ومكانة مرموقة، إذا لم يتواصل مع الجذور فهذا البارودي رائد الإحياء للشعر العربي الحديث تواصل مع الأدب العباسي، وهذه مدرسة البيت مثل أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم وغيرهم من شعراء العربية الذين عاصروهم.

ومن هنا فإن أولئك الشعراء الشباب الذين أعرضوا عن الجذور ومنابت الأصالة، وبتروا أنفسهم وانقطع الوشائج مع النموذج السلف، فقد زلت بهم القدم، وساحت بهم المفاهيم الذهنية، في مهمة فأصبحت أعماله سراباً بقيعة، وتقطعت بهم الأسباب، وتألق نجم أولئك الذين استقوا من نبعمهم، وأقبسوا من عصرهم وتبلور الناضج من القديم والحديث، فكان التلاحم والانسجام وتولد الجديد تماماً كالإنسان الذي يشبه أبويه في أشياء ويفترق عنهما في أشياء أخرى، أو كالزراع المهني تهجناً حديثاً، فيكون العطاء والوفر.

قبسات من الأدب المغربي

الشعر هو النبع الصافي الذي يصدر من أغوار الإنسان الناقل لتشابك مفاهيمه ونزعاته وتفاعله مع الحياة، فكل ما تنوعت حياة الشاعر واختلفت مرثياته، وتطورت مدركاته وألحت عليه الطبيعة وتضوعت في نفسيته، وتصارعت الأهواء والآراء وكلما رهف حسه، وانغمس في الموجودات وكان الإنسان سريع الحضور في المشاهدات كلما تنوعت المذاقات الإبداعية العطائية لأن "الإقامة الطويلة في المكان الواحد تجفف ماء القلب" قصتي مع الشعر ص 244.

والارتحال عبر الطبيعة منبع من منابع الشعر، والجوس خلال النفس الإنسانية واهتزازاتها فهي نبع استلهموا منها زخم هائل من التراكمات والملهفات الشعرية، والصدام والمواجهة والعراك والتلاؤم والتلاحم الاجتماعي مكونات فياضة للمخزونات الشعورية واللاشعورية. تلك الأحاسيس والانطباعات التي تغور في الأعماق وتتبلور في الإبداع هي التي تمثل الحياة الإنسانية، فتصيرها تتذبذب في هزات كهربائية بين اليأس والأمل بين النور والظلام وبين الحب والكراهة وبين الذاتية والجماعة بين الخير والشر هذا الصراع ملتزم بالإنسان عالق به من حيث خلقه الله حتى تقوم القيامة هذه الأشعة المتشابكة المتأثرة والمؤثرة المتغيرة المتطورة جعلت من الإنسان أعماق مجهولة والشعر أعظم وسيلة لتتعرف على المنعرجات السحيقة في النفس البشرية والشعر تتكون إبداعاته ونتاجه ورسمه لتلك اللوحات الإنسانية "فالشعر ركام ضخم وجميل من الأحاسيس والوجدانيات الكثيفة، تشحنها في أعماقها سلاسل الأحداث والوقائع المترادفة من حوله في الطبيعة والإنسان.. كان لا بد أن ينطلق بها "الأحاسيس والوجدانيات" في مختلف لغاته، وأن يمضي في تصريفها على مختلف القنوات الأدائية - وإلا نغلق على إنسانيته، وانطوى على توتراته الداخلية، يحترق

وتحترق في كوامنه ذخائر الموهبة وقذائف الإبداع وإلا ظل إناء معتماً مصمتاً لا منفذ في جوانبه للتصريف، والأخذ والعطاء⁽¹⁾.

ذلك ما قاله الحبيب محمد الفرقاني المغربي في كتابه دخان من الأزمنة المحترقة والذي عالج فيه المفهوم الشعري من منطلق الأصالة العربية للمضامين وتطفو كثير من المفاهيم الغربية على الديوان والمعالجة التي تصدرت الكتاب والتي لا مندوحة من هيمنتها على كثير من أفكاره وشكلية إبداعه، فالمضامين التي تنساب عبر جداوله الفنية إنما هي نابعة من موطنه ومن عريته حيث يطيل الإطالة على القضايا التي تصحب كل عربي في خلواته وأنسه و بين رفاقه وربما يئن منها في ثنايا ضحكاته، وكثير ما تكون كوابيس ليلية تعاود الزيارة تلو الأخرى.

والفرقاني يصدر كتابه "دخان من الأزمنة المحترقة" بلوحات فنية ثرية يحكي قصة التاريخ الشعري ومكانته ويحكي بأن الشعر ضرورة فوق العادة من أجل التلاقي والتواصل والتلاحم الإنساني "بل الشعر بطبيعته - بلورة وجدانية للذات وصلة فكرية مباشرة على مستوى آخر - بين الإنسان والعالم الخارجي من أجل التكاشف والتفاهم والتلاقي على الأعماق⁽²⁾.

ويؤكد على أهمية الشعر وينأى به عن تهمة العبث والتسلية فهو "ليس عملاً ترفيهياً سائباً ولا نتاجاً فردياً وأنائياً معاً، كما أنه في وظيفته ليس مجرد أداء سطحي، أو عبث مجاني لمن لا شغل له" إذن فهو ينظر إلى الشعر نظرة علوية ذات قيمة إنسانية واجتماعية لا غنى عنها؛ فالشعر يمثل رحلة الفهم والارتباط والمعالجة الذاتية والتفاعل مع الموجات الاجتماعية، والتصادم مع السلبيات الثقافية من هذا ندرك أن الشعر عند الفرقاني ابن المغرب العربي يحمل الانطباعات الخيرية للإنسان ومجتمعهم، وإنه ذات رسالة هادفة مختارة من الماضي ومتفاعلة مع الحاضر وآمله ورأسمة للمستقبل فالشعر عند الفرقاني هاجس إنساني دائم الحضور نابع من اهتزاز العناصر الإنسانية المتشابكة فقد "كانت رحلة الشعر الإنساني

(1) دخان من الأزمنة المحترقة، ص5

(2) المرجع السابق، ص5

إذن رحلة لقاء وتواصل.. اندماج في الحدث... تقمص لمعناه.. ذوبان في أفقه، بل مشاركته في صنعه معايشة لتحركه حضور في مصايره المقبلة فجاء من بدايته ذا طبيعة اجتماعية لا يأتي إلا ثمرة اندماج لا يكون إلا شرارة إنسانيته، تنقذ من العمل وبه... لتذوب فيه. لا ينحدر من أعماق الإنسان إلا من جدلية العمل الإنساني: إنتاجه، حركته، أفكاره، عواطفه، رؤاه، مناقشه الذاتية والخارجية مع الطبيعة مع الإنسان.. مع الحياة⁽¹⁾.

وقد أدرك كبار الأدباء والنقاد في الشرق والغرب الوشائج والعلائق الممتدة بين الأغوار الإنسانية واستكشافها من خلال القبسات الشعرية فهذا رتشاردز يرى الخطل والزلل بارزا فيمن يحاول فصل الشعر عن المجتمع حين يقول: "يتضمن فصل التجربة الشعرية عن مكانها في الحياة وعن قيمها البعيدة اعوجاجاً أكيداً في التفكير وضيقاً في الأفق وقصوراً لدى أولئك الذين يدعون لهذا المبدأ، مبادئ النقد الأدبي 126.

والشعر إنساني ملازم للإنسانية ضروري من لزوميات الحياة فلا يستغنى عنه الحاضر في حاضرتة والبدوي في صحرائه والأمي في ذاكرته وكل لغة من اللغات ولهجة من اللهجات للشعر حيز كبير في المنتقى من ألفاظها وقمة الجمال في أسلوبها" فالمقطوعة الشعرية، تديرها المرأة البدوية أغنية هائمة مع الرحي وهي تطحن في بيتها الحب، وتهيء الغذاء... وبنات القرية يرسلن الأزوجة الشعرية بين حشائش الغابات والحقول.. والمطارحات الشعرية يعقدها الفتيان والفتيات، ويحبط فيها الشيوخ والكهول⁽²⁾.

ويعتقد الفرقاني أن الأمة العربية أمة شاعرة نبع الشعر من خصائصها النفسية والروحية ولكن الفرقاني شأنه شأن كثير من الأدباء العرب الذين مالوا مع الاتجاهات الأدبية التي تؤمن بتغيير الشكل ولا غرابة في ذلك فمن أثر المدارس الأوربية والفرنسية أخذ مسربة على مغربنا العربي فهو واضح وأكثر تجلياً حيث الجوا الجغرافي وتعدد القنوات الاتصالية والاستعمارية والخلفية، والتواصل الثقافي من جراء ذلك فإن الكثير من الأدباء في المغرب استلهموا الشكلائية الأدبية من قصة ورواية وقصيدة والفرقاني أحدهم فقد ارتاد

(1) دخان من الأزمنة المحترقة ص7

(2) المرجع السابق ص11

الشكل الحديث للقصيدة بل يرى أنه منطلق حضاري صحيح المسار فالتطويع الذي عصر القصيدة على مستوى عالٍ من الجودة والاستيعاب ووضعها في إطار جمالية وذوقية متطورة، وحررها من روتينية التفعيلة، وجمود الهيكل والتقفية، وأضفي عليها من حذق اللغة، ومرونة الكلمة، ودفء الإدراك الوجداني الشريف وجعلها - على الأقل - لم تختلف عن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الوطن العربي⁽¹⁾.

(1) دخان من الأزمنة المحترقة ص50

الشاعر الفرقاني

ولد محمد الحبيب الفرقاني بتحناوت ناحية مراكش في 18 ديسمبر سنة 1922 م تلقى تعليمه الابتدائي على يد والده ثم التحق بكلية ابن يوسف الشعبة الأدبية عام 1948 م وبعد التخرج عمل أعمالاً حرة مرتبطة بالتعليم ساهم في الكفاح الوطني ضد المستعمر وهو يدرس في الكلية تعرض للسجن مراراً كثيرة يعمل بالصحافة.

والفرقاني له ديوان يعتبر الجزء الثاني من كتابه "دخان من الأزمنة المحترقة" يرى شعره نبضات قلبه وقبسات فكره وديوانه كاملاً من الشعر الحر الذي لا يتقيد بقافية ويلتزم بالتفعيلة وقد استلهم الأشكال الفنية الغربية، وأخذ يعالج القضايا في شعره عن طريق الإيحاء الخاطف النابع من المجاورة اللفظية غير أنها مجاورة لا تجنح إلى الإغراق في الجدلية والغموض المستحيلة لكنها أشبه ما تكون بالجذور الأولى للغموض المستعصية التي تبلورت في الجيل المتأخر لشعراء العربية أما القضايا التي عالجها في ديوانه فإنها تكاد تشمل الواقع المغربي في عصر الشاعر ولا غرو في ذلك فالرجل مهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية والفكرية ومتفاعل معها ليس في مغربه فحسب وإنما هو على اطلاع واع بالقضايا العربية وقضيته الكبرى فلسطين وله قصيدة وسمها بعنوانها (تل الزعتر) يقول منها:

لهات الصبايا

ولون الضحايا

أسارير غيم على جبهة شيخ

عميق الإرادة

يقاوم حرب الإبادة

ينفض فوق المآسي غبار السنين

و تضحك في جلدهم

زغردات الرصاص

وقال لي النهر
هي الموعد الجهم..... في صورنا
وشارة لقيما الأحبة..... في دارنا
..... وطريق الخلاص

ومن الأحداث الكبرى التي سجلها حرب (رمضان اكتوبر عام 1973م)

قلبي !
وخبيري بجولته القمر
آمنت
غام الأفق، وأنهمر المطر
لا تحسبوني عاطلاً
متهوساً
اتسكع الغدران ألتحف الحفر
مهلاً
فقبل اليوم كانت مرابي
تتنطق الأهواء
تلتحف القدر
إني أكلت النار
فوق اظافري
وركبت أجنحة العواصف
وفيها يقول:
يا أيها العربي أنك أمة
ملء الزمان

و ملء أركان البصر
تاريخ وجهك ثورة مجنونة
وخصالك الحمراء بركان زخر
النار أهلي
والأعاصير منزلي
والثورة الطمع طعامي المعتبر
أمنت الوثبات
يعرب في دمي
لهبها يؤرقني
و في عصبي مضر

من هذا ندرك أن أسلوبه الشعري يميل كثيراً إلى التقريرية وتتخلله زخات من الإيحائية والرمزية التاريخية.
و شعر يحمل إشعاعات ذاتية مبلور معاناته في السجون وتفاعله مع الأحداث والمستجدات والمنحنيات الاجتماعية من ذلك قصيدته.
مذكرة سجين في اليوم العالمي لحقوق الإنسان.

أنا واقف في غابة القضبان.
والسور واقف
وحقبة الجدران تجمع قصتي
والقفل ينبح جبهتي
وأظافر المهرز والأدغال
تنفث في دمي
تاريخ إنسان بلا لسان

ولا فم
تاريخ ليل عاصف الظلمات
بلا شروق
ونزوح إنسان من الدنيا
من الأحياء
يسبح في حروق.....
وبلا حقوق.

عن الشعر المغربي

الشاعر الأديب المغربي محمد الحبيب الفرقاني يدرك ما حاق بالأمّة العربية ويحدق بها وأنها من أثقالها مغلوبة على أمرها وقد تنبه الفرقاني إلى ما تفتقت عليه أعين الشعراء وبصائرهم من واقع مرير للعرب "لما حاق بالجماهير العربية من انتكاسات ارتجاعية، وارتدادات سياسية، وما أخذ و يأخذ بأعناقها من مقابض حديدية، تغل حركتها وتشد طموحها إلى الارتكاس والضياع، وتتركها كمأ مسخراً يرتمي على أرض التمزق و الاستسلام" ذلك القول ما يشير إلى إدراك الشاعر للأرضية الواقعية التي نما بأنسجتها الشعر العربي، فكانت لهذه الأنواع المريضة والملوثة أثرها في نفسيته وما يعنصره من ألم، ومما يثقله من واقع صعب ربما يؤدي بالكثير من الشعراء إلى التنفس الذاتي لهيمنة اليأس في إزاحة الظلمات المحدقة "وقد ترك كل ذلك مفاعيله المباشرة على مستوى الثقافة والشعر والأدب، وانكفاً الشعر العربي نتيجة لأوضاع رثة قاسية، ومحيط متهافت مخنوق في مجموع الوطن العربي، إلى نوع من التهويم الذاتي والانغلاق الوجداني الغامض...."⁽¹⁾.

ولا يستثنى من ذلك الزعم المتجنى إلا الشعر الفلسطيني فإنه عميق الإحساس صادق الشعور بليغ الأداء "لأن لغة الشعر الفلسطيني خرجت من التهويم الميتا فيزيقي الهارب، وارتفعت عن الحبوط النفسي المتهوس، فتحوّلت مع بنادق الثوار، ومعانقة الصراع الدموي والحرائق إلهية في حياة الأمّة العربية إلى شحنات إرادية في اذرع طلائع التحرر العربي، واستحالت الكلمات إلى طلقات نورانية في وجدانهم"⁽²⁾.

ومع موافقتنا في حكمه على الشعر الفلسطيني إلى جانب سرورنا بإدراكه ورصده لهذه الظاهرة فإنني أخالف الفرقاني في حكمه على مبدعي الأمّة العربية، فإنهم استلهموا القضية الفلسطينية في فكرهم وثقافتهم ومشاعرهم وإحساسهم ومجتمعهم ليس ذلك على مستوى العالم العربي فحسب بل كل الأمّة الإسلامية وكثير من الفضل في ذلك يعود إلى

(1) دخان من الأزمنة المحترقة ص51

(2) المرجع السابق ص52

تلك الإبداعات التي سرت في الشعوب سريان الدم والهواء لذا فإن كل فرد من الأمة يحمل أثقال هذه النكبات ويعيش في ظلامها الدامس ويثري في أحضانها الأبناء شأنهم في ذلك شأن كل أمة تنفض عنها القهر والضميم وشأن الشعر المغربي الذي يرى الفرقاني أنه واكب الثورات وأحياء الشعور وفتح البصائر على واقع المجتمع في ظل الاستعمار حين أبان عن ذلك تحت عنوان "الشعر المغربي قبل الاستقلال" وتحت هذا العنوان تحدث الفرقاني عن تطور الشعر العربي المتأخر عن نظيره الشرقي كما يرى ذلك ويحدد بدايته الحقيقية بعام 1930 م من ذلك الحين واكب الشعر الكفاح والسياسة، ويصحب الحركات الوطنية حتى عام 1956م ويمتاز شعر هذه المرحلة "بمحاولة إعطاء الشعر شعر المرحلة مضموناً اجتماعياً وسياسياً مع التزام البناء العمودي للقصيدة، والتأثير التقليدي المنفعل بالاتجاه التجديدي"⁽¹⁾.

لكن هذا التمثيل الشعري للأحداث لم يكن حضوراً متكاملأ لأنه ظل في غياب عن أحداث وطنية كبرى في سبيل الاستغلال ودحر المستعمر وقد رصد الكاتب تلك الأحداث تتجاوز تعدادها خشية الأطلالة.

و لم يكتف بتسجيل هذه الظاهرة فحسب بل "أن الحضور المعاكس إلى جانب الاستعمار والاقطاع كان قد سجل في صفه جملة من شعراء المرحلة ارتبطوا مصلحياً ومذهبياً بالاستعمار وأجهزته".

وما دام أن الشعر المغربي لم يستلهم الأحداث ويعالجها بشمولية متفاعلة فإن الأخرى به أن لا يتجاوز تلك الإقليمية وينطلق إلى مشاركة الأمة العربية فإن الأحداث الكبرى التي أملت بالعرب "لا نعثر على أصدائها في الشعر المغربي لا ضعفاً في الحس القومي لدى الشعب المغربي الذي كان يعيش هذه الأحداث ويتابعها بطموحاته وأعصابه ولكن ضعفاً في الشعر والشعراء، وفي الحس الأدبي الشجاع"⁽²⁾.

ومن شعراء المرحلة الأولى لشعر المغرب العربي علال الفاسي، محمد المختار السوسي، محمد القرى، ابن العباس القباج، ومحمد سكيرج، وعبدالواحد الكتاني.

(1) دخان من الأزمنة المحترقة 53

(2) المرجع السابق ص55

"أما المرحلة الثانية من الشعر المغربي فإن معالمها تكون من بداية الستينات من القرن العشرين ويقسم الفرقاني شعراء هذه المرحلة إلى قسمين كبيرين أحدهما الفئة المحافظة ويتحامل الفرقاني كثيراً على هذه الفئة فيصفها بالسطحية والتملق وعدم المعالجة الاجتماعية العميقة وضعف الصياغة في كثير من الأحيان"⁽¹⁾.

أما الفئة الثانية فإن شعرها "يأتي بالمقابل نوع آخر من الشعر نقيض للأول هو - شكلياً - يقبل بكل تغيير في عمودية القصيدة، وهيكلها البنائي على شرط أن تظل الموسيقى الشعرية، والشحنة الجمالية، والطاقة الأدائية مصونة موفورة على الأقل بجد لا يبقى وراءه إلا الخروج من دائرة الشعر... دون التزام مسبق بقافية أو بحر أو أسلوب معين. ولكنه أي هذا الشعر في المضمون يعكس ويحاول أن يعكس إرادة التحرر والتسامي لدى الجماهير المظلومة، ويعبر أو يحاول أن يعبر عن التيار النض إلى الذي تنتمي إليه اجتماعياً وموضوعياً هذه الفئات البروليتاريه الكادحة" ص 60.

والواقع أنها دعوة إلى التحلل والتحرر المؤدي إلى البلبلة الشعرية التي يئن منها كل إقليم حتى أن الفرقاني نفسه لم يرض بالنتيجة والانحلال الشعري الذي هيمن على الشعراء الشباب في السبعينات نظراً للتأثير بالسلبات الفكرية والمادية التي طوقت المغرب حين يقول: "و الواقع أنه في عصر التحلل والانسحاق، وفي ظروف الفردية والتفوق المصلحي المدمر، وفي وقت تيمت فيه الفكرة والكلمة، وانحسرت الفنون عن موقعها الإنساني وفي غياب الحصانة الفنية والنقد الأدبي الصارم والصريح... كان الشعر قد وجد الفرصة بدوره للتحلل من نفسه ومن معاييرها الفنية، وانفتحت الساحة على مصاريعها للهديان السائب، ليتقدم على إنه فن وإبداع، فترامت إلى السوق على التو إلى سلسلة دواوين "شعرية" (ولو أنها تعطي صورة شكلية ظاهرية على النماء والإخصاب في حقول الشعر فإن الكثير منها، يتميز بالضحالة والهزال، وبالتحلل السائب والغموض البرقي الهارب من هذا البوهيمي المتفكك السالف الذكر"⁽²⁾.

(1) دخان من الأزمنة المحترقة 60

(2) المرجع السابق ص 69

ولم يقف الفرقاني على تحديد المشكلة وإظهاره بمظهرها المتجلية فيه وإنما أخذ يعالج التردّي الشعري بمعالجة واضحة مبنية على أسس قوية حين يرد على أولئك المتحلّلين "فتصوروا أن انهيار العمودية التقليدية في الشعر قد اسقط كل الحواجز دون الدخول "المجاني" إلى الساحة الشعرية وقد ترك الانخراط في الرسالة الفنية والفكرية للشعر دون خصائص أو قيود وأصبح بإمكان كل "تلقية" اعتبارية بين الكلمات أن تكون شعراً، ناسين أنه إذا سقطت العمودية في الشعر فقد بقيت "الأفقية" فيه شرطاً ذاتياً وموضوعياً في عملية الشعر يجب أن تتكامل بكل مقوماتها الفنية والوجدانية والاجتماعية ليستوي العمل الشعري حينئذ بخصائصه الضرورية كرسالة إنسانية، وكفن إنساني ينخرط فنياً وعملياً في معركة الحياة"⁽¹⁾.

والفرقاني يدون تديناً أميناً سيرة الحركة الشعرية في بلاد المغرب العربي تلك الدوحة العربية التي استلمت زمام الحركة الأدبية في بعض مراحل التاريخ العربي كما سجلت في ثنايا رحلات علمائها كثيراً من التاريخ والقيم العربية، والفرقاني يرى أن الشعر في المغرب العربي يفتقد الاحتضان الفني فحبل بينه وبين العالم العربي في أوائل العصر ببرزخ من الاستعمار، وتأخرت فيه إحياء التراث، أضف إلى النموذج الفني الآتي مع المستعمر الذي له دور كبير في احتضان كثير من الأدباء في بلادنا المغربية وعلمهم لغته وطبعهم بطوابعه الفنية، فضلاً عن المجاورة وسهولة تصدير الفكر المقصود عبر الحدود المتلاصقة، وكذلك الفقه وطلب العيش الذي دفع بأعداد كبيرة من المنارية إلى الهجرة في الدول الأوربية، كل ذلك كنبيل بالقضاء على الأدب في تلك البلاد الحبيبة ولكن الجذوة القوية لا تنظفي فقد حدا الأدباء على أن ينهضوا بالفكر والأدب في أرضهم ومن واقع مجتمعاتهم، وتجسدت التيارات الأدبية بجلاء ووضوح في نتاجهم الشعري فمنهم الملتزم بالأصالة الشعرية في جميع مناحيها ويغلب على هؤلاء التزام الفكر الإسلامي في مضامينهم، ومنهم الذي نجد معجمه الشعري ينتسب إلى اليسار الماركسي من حيث المعالجة والألفاظ لا من حيث المعتقد فإننا لم نبحث عنه ولا يُعنىنا في هذه الدراسة ولكن من حيث الشكلائية والدعوة إلى التمرد وقد نجد من هذا شيئاً في شعر الفرقاني نفسه.

(1) دخان من الأزمنة المحترقة 77

ومنهم من التزم بالفعيلة وصاغ منه في قوالب شعرية حديثة مع الوضوح والمزاوجة بين التقريرية والرمز والأسطورة أحياناً كثيرة، وشريحة أخرى عانقت الحدائث صاحبت الحرية اللا متناهية فأعرضت عن الأصالة الفكرية والفنية معاً وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين فئة استحدثت منها من الواقع الشعبي فاقتبست من الألفاظ الدارجة وطعمت بها شعرها وفئة أخرى عانقت الغموض وجعلته الحلة الزاهية لتجاربها الفنية – وتعقبت مدرسة (شعر) وتابعتها واعتنقت مذهبها.

النقد في بلاد المغرب العربي

الأدب هو التكوين الإنساني بفكره وأحاسيسه ومشاعره وثقافته بل وروحه ونفسه متفاعلاً كل ذلك من تكوينه الجسماني والأدب هو سجل التاريخ البشري عبر القرون والأزمان، وهو يصوره في كل مكان، ويحمل الأدب مراحل التطور الحضاري والثقافي وكانت غريزة حب الأدب من الغرائز الذاتية في كل فرد يقول العقاد:

والشعر ألسنة تفضي الحياة بها إلى الحياة بما يطويه كتمان
ما دام في الكون ركن للحياة يُرى ففي صحائفه للشعر ديوان

والنقد صحب الإبداع منذ الأزل فهو ربان السفينة الإبداعية يشد بها ويصنع مساميرها ويثبتها والنقد هو الذي يجدد معالم سفينة الإبداع حتى تتلائم مع الحالة المتطورة التي تواكب تطور الحضارة والفكر، وكل ذلك بصناعة اللغة فما أعظم اللغة فهي التي حظيت بالدراسات الفلسفية والفكرية والآن في محاضن اللسانيات والنقد يتعالى فوق تلك الدراسات بأسلوبه وأسلوبيته وبلاغته وما لا نصل إليه.

إن الحديث عن الأدب والنقد لا حصر له ولذا نقطف من أحد فروعه أو غصن من أغصانه ونخص الأدب العربي الغربي فنأخذ منه باقات من الأدب الأندلسي والمغربي والجزائري والتونسي والليبي.

والثمرة الإبداعية والنقدية التي تتأمل تكوينها هي الأدب الحديث والمعاصر؛ فالترج الأدبي الحديث تشابهت ألوانه وأنواعه مع أدب النهضة في سائر الأقطار والأقاليم. وكان التاريخ يدون أسبقية الشرق على الغرب العربي، أمّا نحن في هذه الأيام المعاصرة ندون تقدم الأدب والنقد والفكر المغربي على الفكر والأدب والنقد المشارقي. فمن لا يدرك أثر المغاربة أجمع على الفكر فهذا مالك بن نبي وعلال الفاسي وهذا العروي، ومحمد عابد الجابري، وأركون، والحبيب الجنحاني ومحمود المسعدي ومحمد

العروسي المطوي. ومن النقاد المعاصرين محمد مفتاح هذا الذي تمثل توصيف النقد الذي أطره حيث يرى أنه لا بد للناقد من معرفة اللغة بألوانها وأطيافها واللسانيات بأنواعها، ثم يترقى إلى الأسلوب والأسلوبية ثم يقرأ التاريخ ونظريات علم النفس والمجتمع ومجريات الثقافة والحضارة وقد تدرج مفتاح حتى بلغ أعلى هذه المراحل.

إن الأدب المغربي أضحى مثل جبل طارق المظل على أوروبا وعلى العرب وعلى المحيط الأطلسي فيرى هذه كالنسر حين يعلو ويرى الكون من تحته، وقد أهلهم هذا ليقطفوا من تراثهم العربي ومن جيرانهم الغرب فيمزجوا بين الإبداع ويقارنون ويفيدون من النظريات الغربية فبنوا التكوين الذهني والمعرفي لديهم وطوروا بالنظريات واللغة، فكانوا هم السباقين على ترويض الألسنية، وهم الأكثر ترجمة للنظريات النقدية وهي الإدراك للمصطلحات بحكم معرفتهم باللغة الفرنسية.

منذر عياشي

قدم الدكتور منذر عياشي عدداً من الأبحاث وخاض جدل النقاش في المنتديات والمؤتمرات، وترجم بعض الأبحاث التي تكشف عن جذور النظريات النقدية وقد ترجم كتاب "مفهوم الأدب" تزيفتان تودوروف.

يحاول العياشي أن يتداخل مع التنظير اللغوي والنقدي المتمثل في اللسانيات، وقد استحوذت تلك النظريات على جلها الأبحاث اللغوية واستجابت بعمق للدرس النقدي يدعم ذلك تصدره للترجمة وهو وغيره من الأساتذة المغاربة هم أكثر تواصلًا مع اللغة الفرنسية وأدرى بخصائص دلالاتها ثم نقلها إلى العربية يقول المترجم في مقدمته: لقد رأينا ارساء قواعد جسر يصل الفكر النقدي العربي المعاصر ببعض ملامح أكثر التيارات تجديداً في الفكر النقدي الغربي، ألا وهو النقد اللساني، وهو نقد كما يتبين من مسماه يقف وسطاً بين نظرية الأدب ومنهج الدرس اللساني المعاصر⁽¹⁾.

(1) مفهوم الأدب، منذر عياشي 5

وقد ألف الدكتور منذر عياشي كتابه "العلاماتية السيميولوجيا، قراءة في العلامة اللغوية العربية"، وكشف في كتابه عن وظيفة العامل والسياق وعن الوظيفة المرجعية وعن صورة المرسل وأثر الانفعال والتعبير ثم كيفية الوقع على المتلقي، وكون الانطباع من المرسل ومن المتلقي وأثر العلاقة الدلالية في السياق. وهل تكون الرسالة وصفية ثم يقف على " الوظيفة الشعرية فيقول: وهو وإن كان لا يخلو من التنظير، فإنه إلى النقد التطبيقي أميل، هنا يصبح العمل النقدي قراءة في نص لا تقل المتعة فيه عن النص الأول، هنا يتداخل المتنافر، وتنعقد صلات القريب والبعيد، وتتراحم الأضداد، وتتجاذب النقائص، فإذا بالمتعة لذة يكشف فيها النص لا عن سر من أسرار الكاتب فيه، ولكن عن لغة تجعل المستحيل ممكناً، والمحتمل بديلاً عن الواقع⁽¹⁾.

قد لا نجد سؤالاً أكثر انتاجاً من سؤال الوظيفة الشعرية عن نفسها وعن سماتها. ولذا تجدنا نقول: ما هي الوظيفة الشعرية، وما سماتها؟

تغطي الوظيفة الشعرية حيزاً واسعاً من عمل اللغة، وليس حيزاً ضيقاً، كما يخلو لبعضهم أن يرى. ألا وإنه لم يعد تضيقاً لواسع، أن نربط بين الشعر والشعرية مثلاً، مأخوذتين في ذلك بالعلاقة اللفظية والصوتية التي تقوم بينهما. أما خلاف هذا، أي عدم الربط بين اللفظين والاتساع بعمل الشعرية ليغطي ضرورياً من القول وفنوناً، كالرواية، والمسرح، والمقالة، والشعر طبعاً، فهذا يوسع ضيقاً ويتفق مع مقتضيات هذه الوظيفة ومطلوبها.

ولقد نرى أن هذه الوظيفة، ونتيجة لأنها تغطي من حيز القول واسعاً، فهي تسمى أيضاً الوظيفة الجمالية. ولعله مما يؤكد هذا أن موسوعات مصطلحات علم الجمال قد تبنت هذا المفهوم، وأفرد له بعضها عدة صفحات⁽²⁾.

(1) مفهوم الأدب، منذر عياشي 7

(2) منذر عياشي، العلاماتية 14

الصادق بن الناعس بن الصادق قسومه

قام بترجمة كتاب "مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي" وتم طباعته في مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهذا يشير إلى التحكيم والفحص قبل الطباعة، فالجامعة تمحص الفكر الذي يدور في فلكه الكتاب يقول المترجم: (مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي) الذي أعده (دانيال بارجاس، بيار بربريس، بيار مارك دي بيازي، مرسال مريني، جيزال فلنسي) وأشرف عليه: دانيال بارجاس وترجمه: د. الصادق بن الناعس بن الصادق قسومه الأستاذ المشارك بقسم الأدب بكلية اللغة العربية في الرياض⁽¹⁾.

ويعرف الكتاب كثيراً من نظريات النقد واتجاهاته ومناهجه ويضم الكتاب أبحاث " إن كل بحث من البحوث التي تكون هذا الكتاب متمسك بالدقة ووضوح المنهج لجمعه بين الجانبين النظري والتطبيقي ولقيامه على التفكير والتحليل وإثارة أبرز القضايا وإيفائه بأهم ما يحتاج إليه الباحث العلمي الجاد: ففي كل قسم نجد مذهباً نقدياً يُستهل ببسط ظروف نشأته وإطارها التاريخي، ثم نجد عرضاً لأبرز العلامات والهوادي والأعلام خلال مراحل تطوره الكبرى⁽²⁾.

وقد اهتم الدكتور عبدالقادر قنيني بالدلالة فترجم كتاب "نظرية علم الدلالة" السيمانطيقاً" لمؤلفه راث كيمبسون، والكتاب يتحدث عن تفسير الدلالة للفظ والجملة وقيمة الدلالة وقضايا الاستعمال يقول عن طريق الدلالة: وهناك ثلاث طرق أساسية حاول بها علماء اللسانيات والفلاسفة أن يصيغوا تفسيراً للدلالة في اللغة الطبيعية:

أ- تقوم هذه الطريقة على تعريف طبيعة دلالة اللفظ.

ب- وتحاول الثانية تحديد معنى الجملة.

ت- وتذهب الثالثة إلى تفسير عملية التواصل.

(1) الصادق المهدي، مدخل إلى المناهج النقدية 5

(2) المرجع السابق 8

وهكذا يتبين أن الطريقة الأولى تؤخذ فيها دلالة اللفظ، باعتبارها في تركيب بموجبه يمكن أن يفسر معنى الجملة والتواصل، وفي الطريقة الثانية يكون معنى الجملة هو الذي يؤخذ كقاعدة وأساس لتخريج دلالات الألفاظ بسبب ما تتصف به من مساهمة مطردة في تأدية معنى الجملة. وفي الطريقة الثالثة يفسر اللفظ والجملة معاً حسب الأساليب التي استعملت فيها الألفاظ والجملة لفعل التواصل⁽¹⁾.

سعيد يقطين

من أشهر النقاد الذين تواصل نقدهم وتطور فكرهم النقدي الدكتور سعيد يقطين. والدكتور سعيد يقطين درس في جامعات المملكة، وتواصل مع الأدباء والنقاد وحضر عدداً من المؤتمرات والملتقيات. وقد اهتم بالنص وتحليله، وقد حاول الكشف عن نظريات النص وتجلياتها الاجتماعية والنفسية من خلال بنية النص ودلالته، وقد أخرج كتاب "انفتاح النص الروائي" فعرف فيه النص، وأبان عن خطاب النص وعن النص ونظرياته ثم طرح نماذج التحليل النص.

بشرى موسى صالح

والنقاد في بلاد الغرب العربي حاولوا إثراء النقد العربي من خلال ترجمة المصطلحات التي لها عمق نقدي وكذلك ترجموا النظريات النقدية الحديثة مثل نظرية التلقي، فقد ألفت الدكتورة بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول التطبيقات. وأول نظرة لها جاءت لتتناق مع ملامح النظرية عند النقاد العرب الأوائل فهي جعلت ابن طباطبا مثلاً تنظيرياً وكذلك الأمدي، والجرجاني، وتواصلت مع المبدعين العرب ومنهم نازك الملائكة ونزار القباني.

(1) راث كيمسون، نظرية علم الدلالة، ترجمة عبدالقادر قنيني

الأدباء التونسيون

من أوائلهم الشاعر العالم أحد شيوخ جامع الزيتونة، العربي الكبادي (1880-1961) وكان له دوره التعليمي ومارس الكتابة الصحفية، ونشر شعره الذي يمثل المرحلة الأولى للأدب التونسي الحديث. ومن الأدباء والنقاد والروايين (الطاهر البكري، نشر شعره في دواوين حارث الشمس، ونشيد الملك الضليل، والقلب يرتاد البحار، وقصائد مزدوجة، وقصائد إلى سلمى)، وله أبحاث كثيرة.

ومن الأدباء محمد العروسي المطوي، وهو الأديب، والمؤرخ واللغوي والمثقف قرأ له الأدباء العرب في كل أقليم، وهو محقق لكثير من الكتب التراثية.

ومن تونس انطلق الناقد الباحث المفكر محمد صالح بن عمر المولود بقرطاج عام 1949 م وقد حصل على الدكتوراه وهو مؤرخ تونسي وكتب عن تاريخ الأدب التونسي وعن رجال الأدب والفكر والإعلام.

وقد اهتم عبدالرحمن أيوب بصفاقس 1948 م بالأسطورة الهلالية مثل الطاهر قيقية الذي اهتم بسيرة بنى هلال وهي ضرب من الأدب الملحمي.

وقد كتب الدكتور محمد صالح الجابري المولود عام 1940 م، عن الأدب الجزائري ومن كتبه الشعر التونسي المعاصر 1974 م والقصة التونسية 1975 م وجمع الشعر التونسي في كتاب ديوان الشعر التونسي الحديث 1976 م.

ومن المثقفين العرب الدكتور محمود المسعدي المولود عام 1911 م تولى بعض الوزارات وعمل في الجامعة العربية وله حضوره في المشهد الثقافي العربي وقد جمع عثمان بن طالب أكثر أدباء تونس في كتابه مختارات تونسية في النقد والفكر.

جميل حمداوي

اهتمت المؤسسات الأدبية والثقافية بالنظريات الفلسفية والفكرية والمناهج ليكون التلاقي والتعاقب بين الثقافات، ولما كان أدباء الغرب العربي مكان ثقة لتواصلهم بالجوار ولمعرفتهم باللغات الأوربية فإن رجال الفكر والأدب شجعوا على طباعة الكتب ذات القيمة المعرفية والثقافية وقد طبع النادي الأدبي بالقصيم كتاب (مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر) للدكتور جميل حمداوي عام 1430 هـ 2009 م. ويحتوي الكتاب تعريف بالنقد ومناهجه، ويقف عند القراءة والتلقي والتقارب النصي وآلياته وكذلك تحدث عن المنهج السيميائي ودلالاته، والمنهج الأسطوري البنيوي التكويني، والمقاربة الأسلوبية وعرج على النقد البيولوجرافي يقول عن الرواية التجريبية: يمكن القول بأن المستنسخ النصي بدأ مع الرواية الجديدة التي أكثر من استعمال الشواهد والمستنسخات والكليشيات التناسية والإحالية تأثراً بالشعر الحر مع بدر شاكر السياب وخليل حاوي ومحمود درويش ونزار قباني، وتأثراً كذلك بالرواية الغربية والنقد الأدبي المعاصر عبر تطور مدارسه مثل الشكلانية الروسية، وخاصة ميخائيل باختين صاحب البوليفونية ونظرية التناص، وجماعة تيل كيل التي كانت تدعو إلى الانفتاح النصي من خلال التفاعل الإحالي. وما يلاحظ على هذه الرواية أنها اعتمدت على مستنسخ تناسي يغلب عليه الطابع الحدائي التغيري من خلال التأثر بالرواية الغربية في البناء النصي سواء على مستوى تشكيل الجنس النصي أم على مستوى بناء النوع وصياغته تناسياً.

لغة الشعر

تشكلت لغة الشعر في أحضان المجتمع العربي وما صحبها من التعليم في المساجد والتعليم في الكتاتيب، ثم مواصلة التعليم الشرعي والأدبي، وسائر العلوم في المدن والمساجد المدرسية الكبرى وهذه له دورها الكبير في معجم اللغة الشعرية والأدبية في مستهل النهضة في بلاد المغرب فجل الشعراء من طلبة العلم والعلماء، فهم يدعون إلى الإصلاح للبناء واتحاد الأوطان. ويدعون إلى صلاح القيم، ومحاربة الفساد. ونحن لو استطعنا أن نجمع حقول اللغة الدلالية في المراحل الأولى لتبين لنا كم هائل من الألفاظ التي تمت إلى الدين، والقيم في سائر الدول العربية، ولو استطعنا أن نجمع مضامين الدلالة لتكشف لنا كم هائل من المعاني الإسلامية الإنسانية بل أكثر الشعراء من طلبة العلم الشرعي ومن العلماء في المساجد والمدارس العربية وكذلك من الطرق الصوفية، قال الشاعر الجزائري محمد بن دويده عن المقاومة الشعرية:

شوقي إليك وإن قصرتُ في كلمي
شعب تَو إلى عليه الخطب يفجعه
أهدى تَحِيَّةَ شعب لَجَّ في نَصَب
فلم يزل وصرُوفُ الدهر تُؤلمه
في كل يوم بأنواع من العَطَب
بين المخاوف يشكو حملة العَلَب⁽¹⁾

فأنت ترى أن مكونات اللغة من المتوارث الشعبي الذي يدركه كل عربي فاللغة وليدة العلوم الشرعية والجهاد الإسلامي. قال الشاعر الجزائري رمضان همودة:

الله أكبر نجم العرب قد سطعا
فتح من الله و النصر المبين أتى
وبات دين الهدى في الأرض مرتفعا
فحقق الله آيات بها صدعا
وكان فيما مضى بالذل مقتنعا
في الشرق قاطبة سر الحياة نما

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 109

من مهد النبوة قوم بدرهم طلعا
من كل من ضيع الإسلام واتخذعا
أرضاً مقدسة فيها الهدى شرعاً⁽¹⁾

من جانب الشرق من قلب الجزيرة
أحيوا معالم دين الله وانتقموا
وطهروا تربة للمسلمين غدت

التحم العرب شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لنصرة الدين ولنصرة الأوطان ومحاربة الأعداء الغزاة، وهم يتمنون القوة التي تتشكل جديدة تحمل راية الإسلام والعروبة فلما ظهر الملك عبدالعزيز بن سعود في الجزيرة العربية علقوا آمالاً عليه وقالوا عنه نجم العروبة بل بعض الكتاب تمنى أن يكون قائداً للأمة الإسلامية.

يملك القبائل في بلاد المغرب ثروة من الألفاظ العربية بل الصور العربية القديمة والألفاظ المرتحلة مع الارتحال القبلي والمتواصل مع الحروب، وقد اتجهت إلى تصوير مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي يقول أحد أعيان قبيلة أولاد عمر عام 1860 م:

وعودك من الأبعاد جاء عرقه يقطر
فيما بين الناصرة وأولاد عمر
وحرمة الأبطال عامت على البر
ذرية رحاب شريف من النبي الطاهر
وفرسان المحمول ستين بعد مائة قادر
قصدوا الجنة للمقام الأخضر
وبعدما صدروا الوطن راح وكفر
ونلقى السوق عليهم ديماً عامر
والذي يجيى تعبنا عيان مسافر
والذي يروح ضيف يأكل ولا يتعذر

يا راعي الملجوم أم هل لي
تعلميني ما صار في الحضيئة
خبر جاني مع النجوح الحق لي
ضاعوا لي سادات طلباء سنية
هم راحوا وفي فؤادي جات كية
باعوا الحياة من دار الدنيا
يا ركاز عرشي وستار الشرقية
بيوت المجبور أهلهم غوثية
يا من قليل ماله سنديد
جميع القيم والناس العمياء

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 150

يمشون الطريق مع الشرعية ويعرفون الله الواحد القادر⁽¹⁾

واللغة الشعرية تمازج فيها لغة التعليم الأولى مع لغة القبائل الذين جمعتهم الألفاظ الشعرية ودلالاتها المضمونية إلى جانب التفاعل اللغوي القديم بين القبائل ثم الانحياز باللهجة الخاصة بالأقاليم والجنس العربي والبربري. وقد غلب النداء الوطني ويكاد أن يوحد اللغة فالشاعر محمد الحاج يقترب من اكتمال اللغة العربية عندما يشدو بالشعر الوطني يقول من قصيدة عام 1857 يصف فيها اجتياح الفرنسيين للجزائر:

الأولياء اختفوا من عندنا
الروم قطعوا أشجار الفاكهة
القلم انكسر
القبائل هُزمت وشردت في الغابات
المسجد هدم. هذا الذي بناه الأتراك جميلاً عالياً
حولوه إلى قطعة من حجر
لقد هدموا قبور الأولياء⁽²⁾

فلغة الشاعر الشعبي مستمدة من العربية فلا تكاد ترى فيها عامية أو دخيلة بل إنه شعر معاصر، فالشاعر نقل الشتات القبلي في الصحراء والبراري نتيجة الهجوم الفرنسي على البلاد.

وأثرت الحرب على تنامي ألوان الشعر فقد ظهر الشعر الحر عند الجزائريين مبكراً بل هو يمزج بين الشعبية والعربية والعامية وربما أنه يمثل بداية الشعر الحر فهو قبل عام

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 201

(2) المرجع السابق 219

1970 م – 1971 م، ولعل الشاعر اغترب عن بلاده ونال حظاً من الثقافة الأوربية فقال هذا الشعر الحر و عبر عن أحوال المغتربين:

زغردن يا نساء زغردن
يا نساء بني يعلى إن عهد الحرية قد أقبل
لقد سكتت المدافع
لم يبق في البلاد نصراني واحد و انتهت المعارك
سقط رجال شهداء
لا تخلعوا أنعالكم حتى النهاية...⁽¹⁾

ولغة الشعر لغة منفعية فهي تحمل هدفاً، وهي إصلاحية تعليمية وهي لغة محاكاة للواقع مستمد منه تسير في ركاب الشعبية وليست العامية هي المهيمنة، وإنما العربية لها السلطة ولها النفوذ، واللغة العربية هي القاسم المشترك للبلاد المغربية ولهجاتها محصورة في حدود أقاليمها، ولا ضير في ذلك ما دام كل فرد يتواصل مع العربية، وربما تداخلت ألفاظ من اللهجات مع نمط شعري مثل أشعار الأناشيد، والشعر الغنائي، والشعر الانطباعي والشعر الحماسي وقيس الشاعر كثير من الألفاظ الأعجمية سيما أسماء الآلات، مثل الكهرباء، وأسماء الأجهزة الجديدة، ويضم المعجم الدل إلى اللغة كثيراً من مجامع الفكر والروح الاجتماعية والوطنية والقضايا الإنسانية. فالديوان المغربي العربي يضم بين جنابته وصفحاته هم الأوطان وحب الصحراء، والهاجس الديني، والتعاقب مع الوطن، والتلاقي العربي وقوميته، وكذلك الواقع الاجتماعي الذي يطلب الإصلاح التعليمي والسياسي والاجتماعي وتشكل فيه سبل الإصلاح و طرائقها وتبلور في ذلك الاتجاهات الفكرية، إن مضامين الشعر العربي المغربي هو مجمع الدلالة المعجمية والفكر والمضمونية بل مجمع اللغة

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 216

والمصطلحات العربية. وقصيدة (علال) للشاعر عز الدين الإدريسي تجمع شتات مضامين
الشعر المعاصر العربي المغربي:

يا زعيم الوطنية والجهاد الأكبر
يا رائد الحرية والاستقلال المنشود
وجهت نداء الكفاح منذ نعومة الأظافر
وقدت جموع الشعب للنضال
ضد حصون الاستعمار الغاشم
مرددة شعارات المجد والبطولات
وهاتفه للحرية والدفاع عن المقدسات
لم تهب نير الطغاة الظالمين
ولا تراجعت أمام مد الحاقدين
واستبسلت في معركة الشرف والفداء النادر
أبعدوك يا علال عن مغاني الوطن
عسى أن يخمدوا ثورة الأمة الجاحمة
ويسكتوا صوت الحناجر الملتهبة
ويطفئوا لهيب النار المتأججة
في نفوس الشعب المتعطشة الثائرة
لكن اسمك ظل رمزاً للجهاد والثأر
وأحرفاً من نار تُذكي حماس الشباب
ومن منفاك السحيق ب "الغابون"
أطلقت صرخة حمل السلاح
وفداء الوطن بالدماء والأرواح
واسترخاص كل غال

في سبيل نصرة الحق
وحمي وطيس الجهاد والشهامة
وامتدت يد القهر إلى ملك البلاد
رمز السيادة وحبب القلوب
فكان "نداء القاهرة" لفك الأسر
ورفع الضيم وغسل آثار العار
وتلقين جيوش الاحتلال الدخيل
بأن أبناء المغرب نسور الأطلس
لا يرضون بالذل والهوان
ويحمون تراب البلاد بالبأس الشديد
 ويفدونهم بأرواحهم النضر
ورفرت أعلام السؤدد والنصر
في سماء الحرية والانعتاق
وتهلل وجه البلاد بالسعد والأمنيات
وعاد ملك البلاد إلى عرش العز والفخار
موفور الكرامة، مرفوع الرأس
فرضيت الرجوع إلى مغرب المكارم
وموطن العزة والشهادة والجهاد
لثعائق إخوة الكفاح والطريق
أبناء شعب المغرب الأصيل المرابط
للدفاع عن حوزة البلاد وصون الشرف
خُضت غمار كفاح جديد مرير
لبناء صرح المع إلى والعز والمفاخر
منادياً لنسيان العداوات والأحقاد

وتكائف الجهود والطاقات
وتحرير الإنسان من كل الأغلال
ونشر ألوية الشورى والعدل
وتحقيق أسس التعادلية والإثراء
ودحر مخلفات الماضي والجهل
وإشاعة أنوار الثقافة والعلم
في أرجاء البلاد التواقفة للخير
وكسب معركة التطور والرفاه الزاهي
وهبت نفسك للعلم والأخلاق تنشرها
وللفكر، أقيمت منارات من العرفان
ومنابر الخطابة لا زالت تصدح بفصاحة البيان
وبديع القول ومأثور الكلام والدرر
وشيق الشعر والأبيات كأنها عبيق الزهر
فاح شذاه في رُبي وهضبات الأطلس⁽¹⁾

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 30-34

الفكر في المغرب

يتشكل من واقع الأوطان وثقافتهم، فإذا جمع الوطن حدث كبير مثل الحرب والاستعمار والجوع والفقر والاستبداد، والافتراق فإن هاجس الأمن والوحدة والإصلاح هو الذي يستحوذ على كل فرد ويلهم المبدعين من الشعراء والكتاب والقاصين بل سلاطين المجالس والمنتديات في الأحياء ومجالس القبائل، وقد جمع الاحتلال الفرنسي روح الانتماء والفداء في الشعوب في دول المغرب العربي والمتلقي للشعر إبان تلك الفترات يدرك هذا التلاقي ف شعر كل شاعر إنما هو يحمل فكر كل مواطن يقول الشاعر سي موحند:

لقد سحت في كل المناطق
والمصير نفسه في كل مكان
والنار نفسها تشتعل في كل القلوب
العالم أنهار فوق أساسه
الموت أفضل من حياة كهذه⁽¹⁾

وقد تشكلت ظاهرة الفداء من جل الأقاليم وتنادى لها الأعيان، وأمراء القبائل، ورجال الفكر والعلماء وضحوا بأموالهم وأنفسهم فدخلوا معارك الجهاد. وقتلوا ونهب العدو والسفلة أموالهم، وأغرى الأعداء ضعاف النفوس والذين لا يملكون مبدأ الدين ولا العروبة ولا الوطنية وإنما يملكون حب المال لا غير فأغراهم المستعمر ومنحهم المناصب والمكانة العالية.

يقول الشاعر شيخ بن عثمان وهو شاعر شعبي:

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 222

أضحت النخبة من الضفادع والسلاحف
وفقدت الثعابين سمها، والعنزة تعيش في العز
بينما الشجعان هنا في الأوصال والسجون⁽¹⁾

ويقول سي موحد:

هذا الوطن قد تغير كثيراً
لقد أصبح ملك التافهين
هؤلاء الذين كنت احتقرهم بالأمس⁽²⁾

وأنت ترى أننا ضممننا هذه الأشعار بجامع الالتقاء في الفكر الشامل لا في الضوابط
الجمالية الفنية. وترى أن الشاعر الحدائي يعبر عن هذا الواقع والفكر بأسلوب آخر، قال
عبدالسلام بو حجر من قصيدة (الموت في المرأة):

نامت...

رأيت وراء عينيها الحديقة
واشتعال الروح في جسد القصيدة
وآخر الأشعار و الأخبار في وطني
رأيت وراء عينيها تحابها
لكل العابرين إلى الحياة
لكل ثوري أمين
ولكل سجين⁽³⁾

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 220

(2) المرجع السابق 221

(3) عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل 51

مع الشاعر المغربي الأمراني

ومن المغرب العربي نلتقي اليوم على مائدة من الموائد الإسلامية التي يقوم عليها ثلة من الكهول وجمع من الشباب فقد حملوا على أكتافهم الأمانة الإسلامية وأرادوا بثها ونشرها بوسائل عصرية حديثة استلهموا التعاليم الإسلامية وانغرس الإيمان في نفوسهم. وادركوا المتشابكات العصرية، وسرعة تفاعلها وسر طغيان الاتجاه المادي، وانحسار الاتجاه الإسلامي، وتخبط المجتمع في بوتقة دائرية متحركة لا يقصد صهره، واستخلاصه وإنما يقصد الضياع والتيه في أمواج تلك الثقافات، وهذه البلبلة الفكرية والثقافية يجتمع تحت مظلتها العالم العربي غير أن بلاد المغرب تأتي في المقدمة للاستعمار الذي خيم عليها وللمجاورة، ولتشعب قنوات الاتصال، ولانتشار اللغة الفرنسية والإسبانية في البلاد مما يمكن من استقبال الرسائل الإعلامية الموجهة في الغيوم المدلهمة التي تكون مهامه رحبة للتيه، والتشعب، والتفرقة ويقف شباب المغرب محاولاً إيضاً المعابر والمسالك بإعلان التحدي الظاهر واستلهم الروح الإيمانية، مع وعي متكامل بالمتغيرات العصرية واستجلاء سلبياتها وموجباتها وكان للأدباء معطياتهم التي لا تنكر على قمة ذلك توظيف الأدب واستلمته، وحماية لغته، ورسم مناهجه، ومحاربة الساقط منه، ومن هؤلاء الأدباء حسن الأمراني ورغم اشتهاره بالشعر إلا أن له مشاركات أدبية أخرى وله دراساته الثقافية النيرة ينشرها عبر مجلة (المشكاة) ويدعو إلى ثقافة مستنيرة بضياء الروح الإيمانية وبلورة العقلية المسلّمة من الشوائب العالقة "نحن بحاجة إلى إعادة تشكيل العقل المسلم" و إلى إعادة تشكيل وجدان المسلم أيضاً فيصحح منهج التلقي، ومنهج الفعل، وهذه عملية بناء تقتضي الفهم العميق لطبيعة الإنسان حتى لا يختل البناء، إننا بحاجة إلى "أنسنة" الإنسان، لا إلى تأليهه على طريقة نيتشه، ولا إلى سحقه ومسخه بأسلوب كاف، وأنسنة الإنسان تقتضي التوازن داخل المتلقى، ولكن تتطلب أولاً توافر التوازن داخل الفعل الثقافي نفسه "9 المشكاة ع 6، 5 السنة الثانية - شوال 1406 هـ.

والأمراي يرصد المقومات الثقافية والحضارية من الضروريات الإنسانية وأرضيته الواقعية فالإنسان في حاجة إلى دين وتمع الله بعقل ينطلق منه عبر الأفاق التطورية " فإن البناء الحضاري رهين بفقہ الإنسان بشروطه الثابتة وعناصره المتغيرة، الإنسان والزمان والمكان. تلك هي الشروط الأساسية للبناء الحضاري، وكل تحول حضاري إنما هو نتيجة للتوازن الفعال بين هذه الشروط " 9 المشكاة شوال 1406 هـ.

وهو يشير إلى دعمتين أساسيتين يقوم عليهما الإنسان هما حركتا التطور والثبات ولا بد من تحقيق التوازن بينهما حتى تستقيما الحياة ويكون التطور، مرتبط بعوامل محورية ثابتة و " كل شيء في حركة ولكنها حركة موزونة مضبوطة لا تحيد عن النواميس التي أرادها الله عز وجل والإنسان ذلك الجهول الذي كلما أزددنا تعرفاً عليه أزددنا يقيناً بما نجعله عنه هو أيضاً في حركة دائبة، ظاهراً وباطناً، ولكنها حركة خاضعة لفطرة ثابتة لا تتغير، إنه منذ استخلفه الله في الأرض له شهوات تشده إلى الطين، وأشواق تتاسمى به إلى الملاء الأعلى والصراع قائم في ذاته أولاً بين نزعة الهبوط والارتكاس، ونزعة التسامي والارتقاء، فالتطور والثبات أذن هما ذانك القطبان اللذان تقوم عليهما الحياة " المشكاة ربيع أول 1405 هـ ص 7.

والتوازن بين المتطلبات الإنسانية أمر لازم بالضرورة حتى في الأعمال الفنية " لا غنى عنها لتحقيق " الكتابة " رسالتها، إن التوازن في العمل الأدبي بين القيم الجمالية والقيم الفكرية شرط لازم لتحقيق الغرض أي أن الفائدة والمتعة يسيران جنباً إلى جنب، ولنا في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ما ذكرت، وحسبنا هذه الآيات البينات من سورة النحل شاهد على ضرورة التوازن بين الفائدة والمتعة "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأُنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِيعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (سورة النحل 5-8) المشكاة 10 شوال 1406 هـ.

والشاعر حسن الأمراي له ديوان صغير بعنوان "القصائد السبع" استهله بقصيدة بعنوان "أحلام حفيد صاحب الرأس" وتوجها بآية من القرآن الكريم هي: "لَا يَنْهَأُكُمُ اللَّهُ عَنِ

الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّ مَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

وتقديم الشاعر بهذه الآية الكريمة يدل على استلهامه الروح الإيمانية الإسلامية كما يبلور موقفه الفكري من القضية الفلسطينية وما طرأ عليها من المعاهدات التي عقدت بين أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل، ولها منحنى آخر أيضاً يوحى بالألمعية والاستشفاف المستقبلي والإحساس بالحدث الطارئ الذي يتمثل في الاتصال الأخير بين ملك المغرب الحسن الثاني ورئيس وزراء إسرائيل وثنى لديوانه بمقدمة شعرية أخرى تتمثل في قصيدة مالك بن الربيع:

تذكرت من يبكي علي فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكياً

أما قصيدة أحلام حفيد صاحب الرأس " فإنها توحى بالروح الإسلامية ولم يتناولها عن طريق التقريرية والإثبات والبرهان وإنما كان أسلوبه يتأرجح منها بين الحكاية البطولية القصيرة وبين الإشراقات الإيحائية المؤثرة كقوله:

يا أيها الحلم المدجج بالتوتر والكآبة
القلب منك كتيبة شهباء زاحفة إلى مدن الدخان
والوجه نهر ساكن القسماط مضطرم الجوانح

من أي أفق، أيما أرض تفجرت السحابة؟
من أي زاوية تدفق ذلك النبع الحمل بالأمان.
من أي صقع جاء؟

من أي العصور الضاربات دمي المكافح.

عيناك تشتعلان مثل حمامتين
غمامتين تغادران غديّة نهر الرماد
و تصرفان النار في أشلاء موتانا
فينتفض العباد

وأحياناً يتوجه إلى المقاتل الفلسطيني ويحدث بجدوثته ويحكي حكاوي البطولة ويرسم الواقع الحسي ممتزجاً بالمعتلج النفسي في الجسور والقنوات الروحية بين الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه فأعضاء هذا الجسم يتداعى بعضها لبعض فيعاضد الفارس المقاتل ويشد أزره ويكون قلعة حصينة خلفه لذا فإنه يضيف الفارس إلى ياء المتكلم وفي هذا إيحاءات جميلة:

لي أخوة يجيئون ما بين الرصاصة والرصاصة
بين شد القوس والسهم المسافر نحو صدري
بين مطرقة و منجل
لوددت أنني الآن أقتل ثم أبعث ثم أقتل
ثم أبعث ثم أقتل
فتأهبي
يا خيل ربي اركبي
يا فارس النبوي، لو ترك القطا
يا فارسي الأمثل
عرفتك في مواسم خصبك الأول
عرفتك قبل أن ترحل

صلاة تعبر الأمواج من أدنى
حدود المغرب العربي خاشعة إلى الأقصى

تقضي السجن و السجنان
تنبض فيك مشكاة الصحابة
تركب الأمواج دون شراع
عرفتك: صوتك الفواح يأتيني
على ظهر الجريدة
في قصائد شاعر ملتاع
ومن صبوات هذا الشعب يدينني
تجلى القلب جسراً

يحمل (الزيتونة) الخضراء من شوق إلى مكناسة الزيتون

وانظر إليه كيف يستلهم الحضارة الإسلامية ويجعل منها حضوراً دائماً رغم النوازع
والمغريات فليل باريس وجمالها ومغرياتها لم تحجب عن الشاعر التاريخ المجيد الذي صنعه
أبطال المسلمين على مشارف فرنسا بقيادة البطل الشجاع عبدالرحمن الخافقي وكان يقارن بين
هدف الجنود العربي المسلم في ذلك وبين العربي والمسلم الذين يعجون في باريس وشتان بين
الهدفين فإنهما في أغلبهما لا يلتقيان:

لباريس لون التوجس، واللحظة الجارحة
ورائحة الرعب، والطعنة الغادرة
وهوى يتسلق في غفلة
طفلة تتساقط كالتوت، في العاشرة
لباريس رائحة ما لها رائحة
ولون تناثر من غير لون
وأنا أيها الغافقي
أيها الفاتح العربي

احتمي حين يأتي المساء بأغصان ظلك
كانت سماء المدينة تلبس لون الجراح
وكانت سماوات روحك زرقاء
زرقاء كالبرتقالة
أنت لم تتبطن بها كاعباً أو غزالة
أنت لم تتبن بها غير جرحك
غير غزالة شعبك
وأنهار حبك

وأختم الحديث عن هذه القصيدة المتلونة الشكل المتوحدة المضمون بهذه الأبيات

نحن في المشاة ندعو الجفلى	من يهود ومجوس وعرب
وفلسطين كتاب مشرع	زبرته فاس من ماء الذهب
وفلسطين خوان رائع	فهلّموا ياسرارة يا نجب
ليت أشياخي استجابوا دعوة	إنما الخائن من لم يستجب

أمّا القصيدة الثانية فقد أختار لها عنواناً "مشهد من مكابيات العز بن عبدالسلام"
والأمrani لم يسرد قصة العالم سرداً قصصياً، أو يقرر حكايتها تقريراً أو يتتبع منطقيتها
وبراهينها غير أنه أستوحى المضامين وصاغها في شكلانية عصرية مستعينا ببعض الألفاظ
والآراء الثائرة للعالم العز بن عبدالسلام ومنها:

ارفع بذاتك مثذنة
تمنحك أول طلقة للرفض
أول خطوة لتقول: لا

يا أيها الشهم الهمام
يا من إذا غنى أته الشمس راكعة لديه

.....

اسطورة تهوي إذا ارتفع الأذان
وكان حزني في الملمات العلامة
لن تستبيح مراتب المستضعفين

فإن للضعفاء رباً إن للضعفاء جنوداً

يا أيها الوهم المفدى

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

وثالث قصائد الديوان تحت عنوان "كتاب الخروج" وتمثل نزع من نزيف الأمة العربية التي تئن من وطئة الحنادس والحروب التي تفتك بالأمة ويتفاعل بصفة خاصة مع حادثة الخروج الفلسطيني من بيروت أثر الحرب مع الإسرائيليين:

أصداء موت كان. ظل بيارق منكوسة
وقصيدة في الأفق تصدأ عنكبوت
يسطر على التاريخ، يقتحم البيوت
لا تسألوا عنا، فنحن بألف خير
ليس يعوزنا سوى أن ترفعوا عنا وصايتكم
- أياديكم.
لنغدو مثلما الأسماك تسبح في محيطات
بغير مدى

لتعبر هذه الأطياف بحر الموت و الظلمات

- نحو الفجر

أسطورة بيروت ملحمة

دم الأطفال في عرصاتها زيت يضىء

ويد و بضع بنادق مرفوعة

وقصيدة في القلب تهزأ بالذين تخرصوا

هو لن يجيء

وله قصيدة القصعة وفيها يقول:

أيها الطالع من نهر الرماد

وعلى جبهته السمراء جرح الكبرياء

أيها السابح كالبرق على ظهر السحابة

أيها الساكن بين الغمد والسيف

بين الوتر المشدود والسهم

أيا من شمسه صاحت بأعناق الجياد

من سيطوى طيلسان الحزن

من يمحو الكآبة

عن قرى المستضعفين؟

وفي آخر قصائد الديوان "الشمس مقبرتي" تسمع أنين الحزن يجلجل من خلال

أقواله على الواقع المرير الذي يعاني منه الوطن العربي يشعر بالمسئولية شأنه شأن غيره من

الأدباء والمبدعين الذين يلهثون وراء الحق والخير والجمال وينشدون الحقيقة يقول:

هدني الحزن يا صاحبي واشتياقي
وأنت تغني مواويل قبل السفر
قلبي الآن مملكة دون تاج
ووحدة بوابة للسحائب أنا وأمنة للعذاب
فأدخلي أيتها الريح غاشية واغسلي بالتحول
وجه بلادي

أيتها الريح إنني أغنيك حتى تردى الجواب

من هذا الحزن الوطني انطلق علال وهي يقول عن حسن الأمrani " أن الحزن الذي يتحدث عنها لشاعر حسن الأمrani ليس حزن ذاتياً، وإنما هو حزن إنساني يحملها لشاعر على أكتافه لأنه يحمل هموم بني وطنه ويحمل قضاياهم ومشاكلهم".
ومن خلال دراستنا واطلاعنا على المحتوى الفكري والثقافي للأمrani نجد أنه يحس بأحاسيس وطنه المغرب والأمة العربية وكثيراً ما يتجاوز ذلك إلى الواقع الإسلامي وتنطلق الإشعاعات والإضاءات الإبداعية التي تعالج من وعي كامل بالثقافة العربية والتعاليم الإسلامية والتراث إلى جانب المعاصرة وتكوين النظرة المستقبلية وقد شهد له بعض الكتاب من ذلك ما قاله الدكتور محمد براده " ما في مجال الشعر فهناك محاولات استطاعت أن تتخطى عتبة التأثير على نسج عوالم شعرية تستمد عناصرها من الثقافة الشعبية ومن الأساطير المغربية هذا إلى جانب التراث العالمي لتوظيف ذلك في موضوعات متصلة بالحساسية الاجتماعية العامة اذكر بالخصوص أحمد المجاطي وعماد الدين السعيد.... وحسن الأمrani".
وانضمام الأمrani إلى ميدان الصحافة وانغماسه في أهدافها فهو رئيس تحرير مجلة " المشكاة" الإسلامية الإتجاه، كان لهذا تأثير على الإتجاه الشامل لثقافته من حيث الإسلامية والإنسانية وأخرجه من التوقع الذاتي التي تتمثل في الرومانسية إلى المشاركة الشعبية التي تجعل الأديب يحس بأفراحهم وأحزانهم لذ فإن الدين يعالج قضايا وطنية وإسلامية أما المضامين الشعرية عند الأمrani فإنها تتبلور في الأصالة النابعة من الروحانية الإيمانية،

والأصالة التراثية، والحضور الزمني والمكاني واستيعاب المتغيرات المعاصرة وتأثيرها على الأمة لذا نراه يرسم سيلاً ، وينصب معالماً ويضرب أمثالاً، ويصنع جسوراً للنجاة. أما الشكلانية الفنية عند الأمازيغي فإن أسلوبه الكتابي يعتمد على التقريرية الشفافة بلغة عربية سهلة ممتنعة أما أسلوبه الشعري فإنه كغيره من شعراء المغرب الذين تأثروا بالشكلانية الغربية وخذوا حذو شعراء الغرب ومن سار على نهجهم من الشعراء العرب لذا فإنه لم يلتزم بالعمود الشعري ولا بالقافية ولا بالأبجر الشعرية ويتأرجح أسلوبه بين الحكاية القصصية والاستعانة بالأسطورة، والتقريرية أحياناً والالتكاء على الذاتية التي تنبع من الإنسانية الشاملة أو الوطنية ويعتبر النفس الطويل خاصة من خصائصه لاستعانتة بالمقاطع ولتنويعه لأساليب المعالج واستلهم الحدث والتفاعل من جميع الجوانب.

الأشياء المنكسرة

الشاعر المغربي عبدالكريم الطبال عاش في مرحلة بالغة الصعوبة لبلاد المغرب وشعبها العربي المسلم فإدرك الاستبداد الاستعماري وامتصاص خيرات البلاد، وعاش النضال الوطني الذي صمد في وجه المستعمر، وخاض عباب الفوران الذي مهد للاستقلال وأحس بالمعاول التي تحطم كيان الوطن على الصعيد السياسي والحزبي والاجتماعي والاقتصادي فترزع الشتات والفرقة وتفرق حتى تسود وشهد الأحداث والتي صحبت نفي محمد الخامس وتنحية أسرته عن الحكم وإحلال غيره محله وعانى أشد معاناة من الواقع الأليم الذي خيم على الشعب المغربي من العوز والفقر والقهر والجهل والشتات التي وقفت حاجزاً دون استثمار خيرات البلاد ولما يخرج المستعمر من البلاد حتى أثمر ما غرسه من توزيع للمجتمع إلى فرق متناحرة متصارعة من المفكرين والمثقفين والاقتصاديين، فطغى الخلاف على المسرح ونشب الصراع و كانت المجابهة بين الحكومة وقادة التيارات الثقافية المتأبیه ولم تنهج الحكومة مبدأ واضحاً يقنع الشعب الأمر الذي حجب الاستثمار والإنتاج وناب عنه التهريج والنفاق والدعوة إلى المبادئ اليسارية واليمينية مما أضعف الوقت وجعل الناس في شغل شاغل عن الإصلاح والإنتاج واستنفد جهد ووقت الحكومات المتعاقبة فكان هم السلطة أن تثبت أطنابها في الحكم ويصف الدكتور سيد حامد النساج جانباً من هذه المرحلة "فقد عشت هذه الفترة ورأيت بالمغرب ورأيت كيف كانت تجري المطاردات في البيوت وفي الشوارع وفي المدارس والمعاهد واستمعت إلى أحاديث الناس، والخوف الذي كان يعتري كل الوجوه، والسيارات تقف في الطريق للتفتيش، والصحف تمنع من الصدور، والمحاكم ملأى بالطلاب الثأرين، وبعض القضاة لا يريدون الحكم عليهم و أولياء الأمور يتظاهرون أمام أبواب المحاكم، والسيارات المصفحة المحشوة برجال الجيش المسلحين تملأ

الشوارع، و فرق الشرطة والدرك والأمن تقتحم المدن الجامعية وقسم اللغة العربية بكلية آداب الرباط ينتقل إلى حيث الثكنات العسكرية في فأس⁽¹⁾.

والواقع أن مرحلة المخاض هذه مرت على أغلب دول العالم الثالث فالتنافس بين السلطة والمثقفين و فقدان الثقة بينهما ومن ثم المواجهة كانت سبباً في قيام الثورات والصراع الطبقي والفكري وتأخرت الشعوب والقارئ للمعالم الثقافية والفكرية والاتجاهات الأدبية في المغرب العربي يشهد العراك والتنافس والمواجهة والفرقة والتفلت من القيم كل ذلك قائم على أشده يتجلى ذلك ويتبلور في الزفريات الشعرية التي تزخر بها دواوين الشعراء الشباب وهي في أغلبها لا تقوم على مبدأ ديني ولا منطق وإنما هي موجات عاطفية دعا إليها الفراغ الفكري وربما تكون خاضعة لتيارات وافدة متولدة من الصراع الرأس إلى الماركسي والطبقي في المجتمعات الأوربية والفرنسية بصفة خاصة.

والشاعر عبدالكريم الطبال عاش بين ظلمات الركام الهائل من القضايا التي تنتظر الحلول وامتطى المراحل المرتجفة وتمنى أن يرسو على أرض صلبة يستقر عليها ذلك الواقع الاجتماعي أما مكوناته الفكرية والذهنية فإنه يطفو عليها التأثير الغربي والمنحنيات الثقافية ويجنح إلى اليسار الثائر شأنه في ذلك شأن كثير من الأدباء الذين ينشدون التغيير فيتوهم أن كل حركة مقدمة لتغيير منظر وأن الظروف التي أملت بالحضارة الغربية ستماثلها ظروف تحل بالوطن العربي ولذا فإن كثير من أصحاب هذا الاتجاه يقذفون بالإبداع الذي يدفع إلى التمرد والعصيان، فيمد ظلال من العتمة والتشاؤم على كل معلم يراه من بشر وشجر وبحر.

النهر في بلادنا منكسر النفس
تمر الغيمة الصديقة بالأمس
فلا تعطيه حتى قطرة من الأمل
يمر الطائر المسافر إلى بعيد
فلا يقول شيئاً عن أسرار الرحلة

(1) سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر 214

تمر الريح الشاعرة
فلا تقرأ شعراً من ديوان الفصل القادم
أحياناً يحلم النهر بالضفة الحزينة
تصعد في المساء شجرة
يسقط منها رأس الحالم

وهو يخاطب طفل في الدار البيضاء في رسالة صغيرة يعلن فيها ثورة الأرض، حاملاً
الطفل رأيه التمرد منشداً أناشيد النصر في موكب الإرهاص بالفجر المرتقب وهو يرسم
الثورة العارمة التي تجتاح البلاد، فالنار تشتعل والطوفان الثوري يعلو السدود والجبال ويظمر
الضباب.

ويكشف النور والضياء وينجلي الفجر والاستبداد
مجد لأرضي أن تثور وأنت برعم زهرة والسجن (فصل) الثائر
لم ترتعد والسماح مجزرة ونيران وأنت أشم نوق الجازر
تمشي إليها في سمو البرج، في فمك النشيد يموج موج الطائر
في موكب الإرهاص بالفجر الذي سيطل علينا ليل ساهر
كالنار كالطوفان، تحترق السدود، تدك أسوار الضباب العابر
كالسندباد تشق درب الغيب، تكشف في تحد - عن طلاء الحاضر
ولكم يمر بك الرصاص وأنت تهذي بالذي هو حلم شعب حائر
فكأنما في العرس أنت، وما صغير النار إلا زغردات السامر
ولكم ترى في الساح طفلاً في الدماء وأنت تهدر مثل بحر زاخر
.....
وتسير في الزحف المقدس من الدماء تخط أرضنا للربيع الناضر
يا طفل ثرت فكنت ابن الثائرين الماجدين وكنت ذكراً لذاكر

ما كنت أحلم أن تكون كما أرى مجدداً لأرضي، وانطلاقاً الثاني⁽¹⁾

ولا ريب في كون الطبال يمثل واقع أليم لشعب فقير حائر غير أنه لم يستلهم الحلول العقلانية الناجحة فالشعب ينفذ غبار الحرب ويستعيد قواه فكيف ندعوه إلى إراقة الدماء وتعطيل الفكر، والعمل لذا فإن المضامين الثورية هذه تؤدي إلى الشتات والضياع واليأس والفرقة فلا يجعل أمام الشباب أملاً يجري خلفه ولا يدعوه إلى التطلع إلى مستقبل زاهر ويدفع بعزائمه وهممه، ويتوجه إلى الإنتاجية التعاونية، والإصلاح والوحدة الهدفية فيه عوضاً عن زراعة الوهم والمرض والإيهام النفسي الذي يقضي على الأفراد والشعوب ويجعلهم في سلبية تامة ويقف حاجزاً عن الإنجاز والتفاني ويضفي عليهم الحب والبسمة والآمال مما يهيئ الجو السليم للتفكير والعطاء وإيجاد الثقة وإحلال التفاهم بين المثقف والسلطة والتعاون أيضاً على إزاحة الظلام الدامس الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى تلاحم المجتمع والإخاء ومن ثم يكون العمل الناجح بدل الانتظار لانجلاء الليل وتلاشي الضباب ونحساره لذا لا نوافق الطبال على سراب الحلم والحيرة وتهويمات نفسية لا واقع لها:

يتيه هنا في قفار الظلام
وفي قدمي رعشة وسقام
وفي قدمي رعشة وسقام
ويا ما رجوت وما من كرام
على الريح في عبث وسام
متى ينتهي الليل هذا العتام
متى ألمح الشمس فوق الخيام
عواء الذئاب وهزء اللئام

وأحلم أنني لست الذي
طريداً بلا أكل في الضياء
وفي مزودي حفنة من هباء
فيا ما عثرت وما من مقييل
أحار اردد اسـئـلـتي
إلى أين أرحل أين المصير
متى يختفي من طريقي الضباب
فيرتد صوتي إلى أذني

(1) عبدالكريم الطبال، الأشياء المنكسرة 75

يـدومـني وـكـأن يـصدى يـخـدرني وـكـأنـي أنـام

إذن فنحن لا نبتغي نشر السأم والملل واليأس والحيرة والتحذير وإنما شأن المسلم أن يعمل دائماً ينظر إلى مشكلته فيتصدى لها بفكر وعمل ويظل دائماً فإن العمل يتوج بالإنتاج. والحيرة هذه التي ما تنفك عن شاعرنا وليدة الفراغ الفكري الذي خلقه الاستعمار فإن هدفه انسلاخ المسلم عن فكره الإسلامي، وقد اوجد السدود والحواجز وحيل بين الشباب وبين المناهل العذبة، والعدو لم يستطع أن يزرع فكراً يحتل القلوب ويستقر فيها لذا خرج الاستعمار من البلاد العربية والشباب بمنأى عن الروافد الإسلامية الصحيحة وتكونت مفاهيمه من شتات وضياع وضبايات لمذاهب شتى، فكان أن أخذ يلجأ لليسار تارات ولليمين تارة أخرى غير أنه ابدأ وبفعل الإعلام الغربي لم يلجأ إلى الفكر الإسلامي وعزف عنه، الأمر الذي أدى به إلى عدم الثقة بالنفس ولا بالتراث العربي والإسلامي.

والواقع أن الضباب والعتمة والتعثر والحيرة قد خيمت في سماء ديوان عبدالكريم الطبال "الأشياء المنكسرة" فهذا العنوان يوحى بالتحطم واليأس من الشفاء والبلوغ إلى القمة لأن الكسر يصعب تلاحمه وعودته إلى أصله.

ويصطدم القارئ - بلوحة أخرى من الحزن تتمثل في اشعار طفل حزين ويزيد في المفاجأة فيتحدث عن مدينة المساء:

مدينتي جئت إليها في مساء ممطر حزين

كفارس يعود من معركة بلا قتال

مكسور الرمح ولكن كان الكسر في غمد الخيانة

ويرسم عدة لوحات من الأشباح الحزينة المستقاة من الواقع الإنساني الذي يهز الشعور والعواطف الإنسانية فالحزن وحده يسير في الدروب الشاحبة يتقمص شيخاً وحيداً بلا رفيقة ولا أطفال فيتبلور الحزن في جسمه وصوته وصفرتة:

فالناس ربما لم يسكنوا في هذه المدينة
الحزن كان وحده يسير في الدروب الشاحبة
شيخاً بلا رفيقة ولا أطفال
مقوس الظهر كأنه فم الأبريق أو رأس الخريف
في فمه حكاية مدفونة الأصوات والنهاية
وفي الجبين رغبة الأوراق الصفرة ومناهة القيامة⁽¹⁾

وحتى في الأعياد وفي مواسم البشر والانشراح يفقد الطبال البسمة والهدوء والراحة
النفسية وتقذف عينه الدموع ويستقل فؤاده جماً يحترق ويحرق الآخرين وتكبله القيود
وتعترضه العقبات ويخيم عليه الضباب ويلتقى بالطفل الشريد كل ذلك يمثل نظرة الشاعر
لهذا الوطن والمشاكل المتسلطة عليه فيحس بها الشاعر وتتشابك على مسرحه الفكري فتجب
عنه المسرات وينزف جراحه بهذه الزفرات المريضة في يوم العيد:

كيف يا عيد، هل تعود وفي عي	ني دمع وفي فؤادي جمر
وفي يدي القيد وفي مواقع رجلي	ألف جرف وفي سريري قبر
وفي سمائي الضباب فوق ضباب	وفي طريقي الطويل شوك ووعر
وفي ابتسامي بكاء طفل ورعود	وفي انطوائي محارب له ثأر
وفي شرابي مرارة في منامي	ألف غول مروع له زأر
أي عيد ترى وأرضي شرع ضل	في الموج والعواصف كثر؟
لست عيداً وإن توهم غيري	إنك العيد فليثق بك غر

(1) الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 6

ويتخيل انكشاف الظلمة حينما يطل ربيع البلاد وتنعم بخيراتها وتقطف ثمار أرضها
في أمن واستقرار ونجد الشاعر يتغير مع هذه اللوحة التي يعلق آماله عليها ويأمل أن يتبدد
الظلام عن وطنه:

ويروى لنا عن الحب شعر	وغداً يا أخي سنضحك في العيد
يانع الزهر بيننا مستقر	وغدا يولد الربيع بأرضي
اينما سرت فالجداول خمر	اينما كنت فالأزهر كأس
وأنا أنت ليس دوني ستر	ويدي في يديك تقطر حباً
كأني وأنت في الفن حبر	تتملى الجمال في الأرض نوعاً
كل ليل فيغمر الأفق فجر	وغداً يا أخي سيهجر أرضي
غره الوهم فانطوى عنه سر	ذلك عيدي وعيد أرضك يا من

والشاعر عبدالكريم الطبال يطالعنا في ثاني قصائده بديوانه الأشياء المنكسرة بجنوحه
إلى الخيال الفلسفي الذي يؤمن بالخالق ومدبر الكون لكن قناعته لم تتولد عن طريق
الروحانية وإنما عن المسلك الفلسفي الأفلاطوني الذي يكشف أسرار الطبيعة حتى يصل إلى
موجدها خالقها وأهمها أن الصفات الكاملة الجميلة التي تتجلى لنا توجد في إله هذا الكون
على أكمل صورة وتفصح قصيدته "انصراف" عن هذا المنحنى الفلسفي:

أن يحلم الشراع أن يسالم القلاع والرياح
لأنه في البدء كان من سلالة الأزهار والأدواح
معاقل السلام، وملاحن الأشواق والأنعام
مزرعة الألوان مغزل الأضواء والأنسام
أن تحلم الشوارع الحزينة المديدة
من بعد ألف أو يزيد في جنازة بليدة

أن يرسم البركان في لوحاتها مشاعل المسيرة
أن يهدد البحر الكبير، أن يفيض من دواخل الإنسان
لأنه في البدء كان مطلق الأشواق لا تحده شواطئ الزمان
لأنه في البدء كان صانع الأمواج ومغاور المرجان
فإني أحلم أن أهدم الجدار والأسوار
أن أحصد الغلات من مزارع الأسرار
أن أرسم الذي أعيا الحروف والكلام
وأخرس الألوان والظلال والأنغام
أن أرسم الأصل الذي يلون سائر الصور
أن أكسر الأصداف عن عرائس الدرر⁽¹⁾

والطبال شاعر يتمتع بمواهب واستعداد فطري ويتقمص الرقة والإحساس الأمر
الذي صير منه مرآة تترآى فيها التقلبات الاجتماعية الآخذة في التردى ولسان حالها الناطق،
وقلبها النابض، ومصدر أحلام اليقظة لها، ورأس لوحاتها وقارئ أسرارها، ومعلن آمالها،
ومشعل الفوران والنيان في أحشائها.
واصفاً سحب الضباب والعممة، شاهراً سلاحه في وجهها، مبشراً بتبديدها وكشفها
و بيزوغ الضياء والنور إلى وطنه العزيز.
وهو الشاعر الوهان العاشق لأرضه المتفاني في حب مدنها وقراها وسهولها وجبالها
وبجارها وأنهاها، مستقرة في قلبه، مصاحبة له حيث حل أو ارتحل ماثلة بين عينيه، حاضرة
في وعيه:

الأنغام قيثار السواني والحمام
جات الظلال الخضر في صيف السأم

شفشاون الخضراء، أرض العطر
عش البلابل، معبد الشعراء، مو

(1) الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 9

والفن، فجر في متاهات الظلام
هي لا أرى الاك في زاهي القوام
ل، ويا تسايح الذي عاف الكلام
دفي سماوات عجيبات الغمام
تغربي ولا الدرب الغريب ولا المقام
الحمراء بالعطر السماوي الغرام
وحق كل السر في كأس المدام⁽¹⁾

اسطورة الألوان، معجزة الرؤى
نجواي أنت فأينما وليت وج
ياضفة الأطياف، ياعرى الجمال
ليلاي أنت وإن رحلت إلى بعى
لا البعيد ينسيني ولا الأوهام
فأنا عشقتك منذ لقيا الزهرة
فأنا هويتك منذ ميلاد الجمال

ومع غلبة الحضور الاجتماعي والوطني في الديوان فإننا نلتقي في كثير من الأحيان مع الذاتية الوجدانية الرقيقة الحانية التي تخلق مع العصافير وتنساب مع جريان الجداول، وتشدو مع إيقاع النغم وأحياناً ينتقل في همسات حانية تتدفق بياناً عذباً يحمل شعوراً فياضاً بين عاشقين وراسماً رعشات حركية تموج بالجمال والرقّة والدلال ولا تخلو من التصريح والوضوح مما ينقلها إلى وجدانيات مكشوفة ونستبين ذلك من قصيدته " إلى مسافرة ":

من رفة العصفور، في لون الصباح
في ميسة النغم المرفرف كالجنح
بجرها الرجاء أم تلك الروابي والبطاح
البيض من عاشقي البيض الصباح
متدله ألف التوجع والنواح
متردد ما بين وردك والاقاح
مترجرج غض يطوقه وشاح
مروع فوق الزوابع و الرياح

وجلست قربي كالحمامة غضة
في شهقة القيثارة، في زهو الشذى
و سألتني ماذا يشوقك في بلادي
أم روعة الأثار من عهد الجدد
فأجبت ساحرتي ببسمة عاشق
ففهمت من دون الكلام، وناظري
ويتيهه حيناً سادراً في مرمز
متناغم كاللحن يغزله الكمان

(1) الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 27

من ذا يقوض عزة لا تستباح
يا ليتني كنت الجيب إلى الصباح
لا ينتهي منها الظلام ولا يزاح
التيه في ليل يقعده الكساح
تزداد إضراراً إذا افتر الاقحاح
للخصلة السوداء عاتية الجمام
جمعت إلى ورد الصبا أشهي قراح
من غفوتي فرنينها أحلى صداح⁽¹⁾

مستصرخ من يستفز اباءة
من ذا يطاول صولة في بأسها
ويتيه حيناً في غياهب دجنة
ويدي بها جوع إلى تيه كهذا
وبها من لقا الأجابة لذعة
للخصر تطوية خيالاً خافقا
للخال يرتع في منارة روضة
فبحق لثغتك الحبيبة لم أفق

وأحياناً يرثى الطبال العلماء وأصحاب البذل والعطاء فيتفجع مرتأوا الشعراء والقضاة، كرتائه قاضي المدينة / العلامة أحمد السمار في قصيدته "المدينة الحزينة" وفيها يقتفي مسالك العقيدة العربية من حيث التفجع والأنين والحسرة والندم واستجلاب الصور القديمة متعانقاً مع المعالجة الإبداعية الحديثة التي تتمثل في استنطاق الطبيعة من الأنهار والأشجار والسواقي والمروج وذويان الورد وانحسار المناظر السحرية:

حيرى تشق جيوبها في مآتم
وتنوح في جرح عميق مكلم
يجري على الخدين سيلاً يرتمي
مس، كقيثار حزين الأنغم
والدرب ساه في عداد النوم
الحزن الذي بالأمس عنها قد عمي
والسحر في الشفتين وهم الموهم

ويلاه أمي في تفجع تاكل
تبكي كأن الدمع سيل ينهمي
في الجداول الرقراق ألمح دمعها
في الدوح اسمعها تنوح كمن به
بين السواقي كم أراها تشتكي
في المرج ألقاها وقد خلدت إلي
والورد في الخدين منها قد ذوى

(1) الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 29

أين اللعوب بكل قلب مغرم
فتعض عني الطرف مغلقة الفم
في معبد أو في رياض الملهم
حك أن حبك في دمي
وكانني ضيف غريب الميسم
حزن للمفجوع ليس بيلمسم
بين البنين وفي ظلالك يجتمي
تاجاً برأسك أو سوار المعصم
حمامة سخرت بألف متيم

والقد منها، أين منه رواؤه
فأهزها، أماء، ماذا جرى
ترنو إلى الأفق البعيد كأنها
واحسرتاه فقدتها، أماء وي
فكان فلذتها الوحيدة أحمد
صبراً فإن الدمع لا يجدي وال
يا ما أحبك وهو يحكم عادلاً
لم يقترف ظلماً فكان كما ترى
حتى إذا هانت به تطوان وهي

وأنت تراه في الرثاء واصفاً لا متأثراً وحاول أن يرينا الألم والحزن والأثر النفسي من
خلال حكاية تاريخ والدته المتوفاة وكيف كانت وكيف آلت حاله الآن؟ وذلك أمر لا يؤثر
في العواطف ولا يقنع العقل.

ولكن لو نظرنا إلى الفارق الكبير بين ألم الشاعر على قاضي و عالم المدينة الحزينة و
ألم الشاعر عبدالرحمن العشماوي على استاذة المرحوم الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا ليتبين
لنا في شعر الأخير الفيضان الحزين والأثر النفسي العميق الذي خلفه رحيل ذلك العالم
الجليل:

يحتز رأس الرضا يودي بأمالي

يارب عونك هذا سيف أهوالي

ويقول:

من الأسى وبعيني دفق شلال

أبا إيمان بقلبي ألف عاصفة

إنني أسائل والآهات عاصفة
أبناء موتك هزني فجاءتها
أحس أن الرياض استوحشت وبكت
وأن بوابة الأفراح مقلنة
والصبر يمنح قلبي كل إهمال
وزلزل القلب منها أي زلزال
مثلي وإن فؤادي ليس بالسالي
ولم تكن تشتكي من جور أقفال

الجزيرة ع/ 5061 – 1406/12/2 هـ

وشعر الشاعر الطبال نلمح فيه معالم القصيدة التركيبية ذات البناء الكثيف فهو رغم سيره في موكب الشكل القديم للقصيدة العربية في أحيان كثيرة إلا إنه استطاع أن يكشف الإيجاء والدلالة وأن يسكبها في قوالب متلونة من الكثافة المضمونية والشعورية والنفسية والقارئ يلتقي بشبكة من التدخلات في تراكم للخواطر وتداعيات نفسية تتأرجح به لكنه ما يلبث أن يسير أغوارها ويرسو على شاطئ الحقيقة، وذلك أنه أجرى داخل بنية الوعاء القديم مجموعة من الأدوات والوسائل التي تمنطقت به القصيدة الحديثة لكنها تنطلق في يسر وليونة واستمرارية عفوية أثناء تجاوزه بعض ألوان البناء القديم.

وتصوري أن الأمر عند الطبال ناهج نهج المسيرة العصرية فالطبال أدرك جيل الشعر المنتزم في المشرق والمغرب وانهمرت عليه التيارات الأدبية التي أخذ يعلو نجمها في الأفق العربي معلنة الحرب على القديم ومعتدلة آونة أخرى ومن هذا اعتبر الطبال في شكلانيته الفنية نموذجاً صالحاً وناجحاً للاعتدال الفني فهو قادر على التلاحم والتناغم بين الفكر ذات الأصالة والمتطلب العصري الحتمي الوقوع.

فالشكل عنده يتأرجح بين الانفلات من القافية وعدد التفضيلات وبين الالتزام بالوزن والقافية مع الاستلهاام العصري لكيفية المعالجة في القصيدة الحديثة وتسخيرها للتكثيف العصري بل وجنوحها للخاصية بدلاً من السطحية واليسر بل ربما اتخذ الرمزية رافداً من روافده وقالباً من قوالبه.

ومضامين الطبال ذات احتواء واقتباس من الأرض الاجتماعية ذات الموضوعية لذا يعتبر مبلوراً للطبقة الشعبية العامة التي ترزح تحت وطأة البوس والفقر والمعاناة الدائمة عائداً

بالأسباب إلى السلطة والطبقات المؤازرة لها وهو لم يحدد الألام والجراح، وإنما دعا إلى الثورة والحجب المدلّمة. ومعالجته ليست على النسج التقريري أو الخطابي وإنما عن طريق بلورة المآسي وحرث الجراح ومحاكاة الأطفال المشردين، والعجزة المعدمين، وفاقدي الأمل والحيارى والبائسين يستنطق هؤلاء ويستوحي شعورهم ويجس بمعانثهم.

وإن كنت أخذ على الشاعر الطبال عدم الاستشعار الديني والدعوة إلى مبدأ فكري راسخ المعالم إنما يحرث عن المشكلة ويكشفها وينتظر الحل الناجح مع التغيير.

وقد تحدث حامد النساج: في كتابه الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى عن عبدالكريم الطبال وأفاض في الحديث عنه متناولاً الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاش فيها الشاعر وتناول أيضاً الخصائص الفنية مستعيناً في ذلك بتحليل واستكشاف عدد من قصائد الشاعر ويرى أنه "يستخدم الرمز أحياناً، ويعتمد على الأسطورة أحياناً ويبحث عن وسائل وأشكال تعبيرية جديدة دائماً ويلتزم بقضية الإنسان فعلاً".

والطبال متمكن من اللغة العربية لديه مخزون لفظي وقدرة تركيبية نابغة من المعاناة الشعورية التي تمتزج مع دواعي التجربة فتتلفع في أسلوب الطبال الخاص به فهو "ينتخب ألفاظه جيداً، ويختار كلماته الدقيقة والرقيقة والبسيطة وصوره الشعرية لا تستلزم ذلك الجهد المرير"⁽¹⁾.

(1) سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر 208

قالت لي الحرية للشاعر: أبي بكر المريني

إن الذين تحدثوا عن الأدب المغربي أثاروا الحديث عن أدب التغريب والناهج نهجه والسالك مسالكة وينظرون شزراً إلى أصحاب الأصالة والاتجاه الإسلامي ويصنفونهم أن صنفوهم في إشارة إلى إنهم مقلدو العصور الوسطى وهذه نظرة فيها إجحاف كبير ألا يجدر أن يكون الحكم نابعاً من الفنية والمضمونية والوظيفة الأدبية والجمالية بل والحق والجمال والعدل و أن لا يحكم على الأدب الجديد لجدته ولا يغمض الأصالة لنهاجها لأننا إذا نظرنا إلى القوالب الشكلانية الجديدة لا ريب في كونها مقتفية الأثر الغربي إذن فليس بجديد بل أن المعالجة الواقعية والوضوح الفكري، والحماس الوطني الذي يناسب العامة والخاصة يتجلى كثيراً في أدب الأصالة أليس هو ما يلجأ إليه في مواطن الحماس؟ أليس هو منبع أناشيد الجمهور المتظاهر؟ أليس هو عمادة الوسائل الإعلامية؟ أليس هو رفيق لموسيقى الإيقاع و النبرات الصوتية؟ إذاً فلماذا كل هذا التحامل لا أتصور أن منزلته تتأخر عن منزلة الشكلانية الحديثة ولذا من الأفضل أن نسمي الشعر الحر بالشكلانية الحديثة والمقفي الموزون بالأصالة ويكون هناك وئام وتكامل وتلاحم ويسيراً جنباً إلى جنب وكل يعمل على شاكلته وتنزع فتيل الحرب بين مؤيديهما.

وقد أخذت الرياح بالمسارات النقدية في المغرب الشقيق نحو الشكلانية الأدبية الأوربية حتى غلبت على إبداعهم وأذواقهم ولذا فإنهم تجاوزوا تسجيل ظواهر الأصالة في شعرهم عند كثير من راصدي الحركة الأدبية فإننا نجدهم يغفلون الحديث عن رواد حركتهم الأدبية والشعرية مثل عمر بهاء الدين الأميري وأبي بكر المريني وأتناول الآن ديوان أبي بكر المريني "قالت الحرية" والذي حاولت أن أعثر على دراسات نقدية حول الشاعر لعلي استعين بها على معرفته فلم أتمكن وخاصة في الكتب التي امتلكها عن الأدب المغربي لذا فإن دراستي نابغة من النص وسيكون مصدرها الأول والأخير ما احتواه هذا الديوان بين دفتيه

وتلتقي في مستهل الديوان بمقدمة لم يتحدث الشاعر فيها عن التجارب والأحداث التي تدفقت من خلالها قصائده غير أن صدرها بقبسات نثرية حول الحرية وتعريفها ومفاهيمها ومعاناتها "ليس هناك في أي لغة كلمة أشرف من الحرية. فهي رمز وقداسة، وبغيرها الحياة تعاسة، ومن عجب أن دعائها يضطهدون باسم السياسة..... تعيش أبداً في محنة منذ الأزل، والأعز بدونها أذل، فهي مخضبة بالدماء في كل عصر ومصر، من عهد الرماح الحجرية، إلى عهد الرؤوس الذرية، جاثمة على فوهة بركان، تحلم في كل وقت وأن بالمدينة الفاضلة بلا حدود فاصلة، بين أفراد العائلة. تسير في درب شائك، طوال ليل حالك، بين قصف المدافع، وصراع المطامع، في صبر وأناة، لا تلين لها قناة، ولا تفرق راحة، فشعارها الصراحة.

"كأنما ولدت في لحظة طوارئ لتشقى على يد كل مستهتر بالحكم خاسع" هذه العبارات توهم القارئ أن الديوان سيكون شعلة ثورية لا يستقر لها قرار ولا يمتصنها مذهب أو منهج سياسي لكن الواقع غير ذلك فإن الشاعر ملتزم بالروح الإيمانية، وبمنهج سياسي، شديد الارتباط بالأواصر العربية.

من ذلك مناشدته بني قومه وتشخيصه للداء الذي يفتك بالأمة العربية:

لا نرى إلا جهلهم في ازدياد
لامهم وانتموا إلى الاحقاد
تهزأوا بالتراث والأجداد
ل مصل وقانت في البلاد
هم ذكاء كشعلة وقاد
ومضياء وخبرة واجتهاد
وجميعاً قد احتموا بالحياذ
أي وربى تكلم وجوه الفساد
ما بكم حتى ترجعوا للرشاد

يدعون العلم الغزير ولكن
وفخار لهم إذا ما ازدروا اس
واداروا لهم إذا ما نكثوا واس
مطلقين العنان للسخر من ك
وقضايا بلادهم لم تجدد في
كي يخلو عويصها بدهاء
بل رأتهم في قلعة اللامبالاة
ونرى كل أسرة في انحلال
يا بني قومي لا يغير ربي

قالت لي الحرية ص 79

وأنت ترى الشاعر يفصل القول تفصيلاً صادقاً في توزيع فئات الشعب في زمننا هذا فمنهم الناكث لدينه ومبادئه المجانب للعلم الإسلامي والتراث العربي ومع الناهل من الثقافة الغربية قدراً ضئيلاً ومع ذلك يدعي العلم والمعرفة ويفخر بها ولا يب إلى أين تجرفه تلك المفاهيم:

يدعون العلم الغزير ولكن لا نرى إلا جهلهم في ازدياد
وفخارهم إذا ما ازدروا اس لامهم وانتموا إلى الإلحاد

وفئة أخرى تلتحم من السيء والقبيح والنافر من وجوه الحضارة الغربية فأخذوا يستهترون بالدين والأخلاق ويعبون من الآثام وسخروا من الدين والتراث الذي يدعوهم إلى الفضيلة:

وفخار لهم إذا ما نكثوا واس تهزأوا بالتراث والأجداد
مطلقين العنان للسخر من ك ل مصل وقانت في البلاد

والشريحة الأخرى من المجتمع التزموا الحيادة وانشغلوا بذاتياتهم الفردية وفقدوا الإحساس الاجتماعي والوطني والديني، ولم يسعوا للحرية في طرائقها المتشعبة.

وقضايا بلادهم لم تجدد في هم ذكاء كمشعلة وقاد
كي يملو عويصها بدهاء ومضاء وخبرة واجتهاد
بل رأتهم في قلعة اللامبالا ة جميعاً قد احتموا بالحياد

وهذه الواقعية التي نلمحها بارزة في تقسيم الشاعر للمجتمع وتصنيف تلك الشرائح بدلالة واضحة على المعاناة والرصد الكامل لقضايا المجتمع والوطن وأن الشاعر يحمل أثقال أمته وبلادها، وينقب عن الحلول ويقدم نفسه فداء لها.

والشاعر عمل خيراً حين ختم قصائده بتاريخ ومكان إبداعها وتاريخ بثها عبر وسائل الإعلام وأقدم ما في الديوان قصيدته / تحت دق الطبول في 17 / نوفمبر سنة 1965م والذي لا ريب فيها إنها لا تمثل باكورة إنتاجه وذلك لاكتمالها ونضجها فنياً ولأنها نشرت في نفس اليوم على شاشة التلفاز مما يدل على شهرته.

والقصيدة تمثل الروح الوطنية التي تفيض بشراً، وتنتفض فرحاً، وتغرد شذواً بفك الأغلال ودحر المستعمر، وتوحيج الأعمال البطولية بما يتمناه الشعب ويهفو إليه فتوحدت البلاد، خلف قائد مسيرة الجهاد الزعيم الذي أخرج الفرنسيين فاستحق التكريم من أبناء وطنه:

و على النيرات في العلياء
حسب الناس اليوم يوم الجزاء
وزغاريد من بنات ونساء
بأننا في حشر يوم اللقاء
هز أعماقنا بلا استثناء
مه ريح الصبا في الشتاء
د أمازيغ القمة الشماء
يذهلون الأنام يوم الولاء
اب و هذا اعتادهم للفناء
نقمة للأعداء يوم العداء
باعزاز يخال في كبرياء
من سويداتها هتاف البقاء

شارع النصرته على الجوزاء
قد جمعت الورى حواليك حتى
أي وربى لولا هتافات شعب
لذهبنا من غير شك إلى القول
قد مشت وسطك الفيالق مشياً
من شباب كالزهر قد فتحت أكما
ورجال عليهم وهيبة الجن
في لباس الحروب والسلم هام
هذه دبابتهم تملأ الرح
رحمة للعباد يوم سلام
جيشنا يعرض البطولات كلا
وجماهير الشعب تهدي إليه

تحت دق الطبول هذى خطاه
 بل نشيداً أعطى الأصم سماعاً
 قبيلات حرى على الغبراء
 مثلما أعطى صوت للخرساء
 ينقلوا مجدنا لأهل السماء

والمريني يذكرنا في نهجه نهج الشاعر السعودي أحمد إبراهيم الغزاوي فكلاهما يسلك سبل الأصالة الشعرية، ويقتفي أثر الشعراء العباسيين، وكلاهما يمثل المرحلة الأولى لنهضة بلاده، يتصدر لها بالإشادة والتسجيل، ويحاول أن يجمع الصفوف حول الحاكم ما دام يسير على النهج الإسلامي ويكدح من أجل صالح الشعب والمجتمع فانظر إلى الغزاوي يقول:

بك ابتهج الإسلام واختالتا لعرب
 وحالفك التوفيق في كل رحلة
 وما وطئت أقدامك الغثرية
 فماذا يطيق النظم فيك وقد وفي
 وأنت الذي شيدت للعرب دولة
 وزانت بك الدنيا وصح اعتلاها
 وصافحك الإخلاص والنصح والحب
 ودانت لك الآمال واستهل الصعب
 وإن أجذبت إلا وأرغدها الخصب
 وأنت الذي في دينه اختارك الرب
 هي الحلم المنشود والمطمح الوثب
 وعزبك التوحيد والتأم الشعب

أم القرى ع586

ولنكمل قصيدة المريني التي يتناول خلالها الأجداد المغربية الحديثة:

وأحل أطوارها لمن جهل التنا
 تخفق اليوم فيك راياتنا
 قد رفعناها هنا في اعتداد
 وسقتها الدموع من ثاكلات
 ريخ جهلا، وكان في إغفاء
 روي انتصار الكماة في الهيجاء
 بعد ما أروها دم الشهداء
 ودموع الأيتام يوم الفداء

دى المنادي أن هددت باعتداء
دوماً أننا كالصواعق الهوجاء
قة بات العداء في العراء
ل في " وادي زم " وفي البيضاء
كم نرى شراً مستطير البلاء
وسلام كالورد بادى الصفاء
قد فتحناها للصحب دون رياء
لا ولسنا في زمرة الخبثاء
ومضاء من خيرة الأوفياء
ونغيث الإخوان في الإزراء
ولنعم الميراث من عظماء

كلنا جند في حماها، إذانا
هكذا نحن يشهد التاريخ
سله عنا يوم (المخازن) أو زلا
ثم سله أيضاً يحكي عن الأبطا
هكذا نحن ساعة الحرب دوما
غير أنا في حالة السلم برد
دورنا في وجه الضيوف جميعا
ليس فينا غدر، ولا عرق مكر
إنما نحن أهل عزم وحزم
نرتقي المجد والخلود بفخر
هو ذاك الميراث عن جدجد

قالت لي الحرية 77

والقصيدة تمثل الأصالة العربية بل وتمثل الواقع الثقافي ومتابعة تلك الثقافة التي
وحدت العالم العربي وأهبت الحماس وأشعلت الثورات، وأيقظت الفكر، وخاطبت العقل،
وأحييت الروح الإيمانية، وعلى كل ذلك تعاضدت الشعوب العربية، وانتفضت انتفاضتها،
ذلك التيار هو الزعيم الدائم لحركات التحرر وعلى اكتفاء حمل أثقالي التصدي ويسواعده
رفع السلاح وبقوة إيمانه صبر ووقف صامداً في وجه الظلم والاستبداد والقتل والفتك
والجهل والجوع.

والشاعر يمثل تلك الفئة التي تحمل الروح الإيمانية والوطنية العربية وحب الأرض
والمجتمع، فكان شعره ملتزم بالفكر الإسلامي والقومية العربية ووطنه المغرب ومستوحياً
الشكل العربي للقصيدة التي تلتزم بالوزن والقافية شأن المريني شأن الشعراء في العالم العربي
الذين أوقدوا الثورات بهذا النوع من الشعر وقد أشار إلى هذا المنحنى عبدالكريم غلاب "

مهما يكن فإن الوعي بالذات وبالآخر، والوعي الوطني الإنساني ثم اتساع الأفق الثقافي كل ذلك يفرض أدباً ملتزماً ما يزال يطغى على أقلام أجيال الشباب الذي يقذف بهم المجتمع إلى معترك الحياة الثقافية بالمغرب وأعتقد أن المستقبل لهؤلاء الأدباء الملتزمين، ويبدو أنهم إلى جانب التزامهم مجتهدون⁽¹⁾.

غير أن المستعمر وأن أعلن وقف القتال الحربي فإنه أحل محله الصراع الفكري بين طبقات المجتمع واحتضن التيارات الطارئة والإلحادية وما يو إلى إليه حتى ينسف ذلك الاتجاه المعتدل الذي أخرجه خاسراً وأقول بكل أسف إنه نجح بعض الشيء في ذلك وخاصة في المغرب من الاتجاهات الوافدة هيمنت على الساحة الأدبية وغلبت على أمره وأخفت الأصالة بقوة الحملة عليها.

ويشدهو ببلاده حصن البواسل المنجية الكرام أخوان النجدة الذين يقذفون الأعداء ألواناً من الذل والهوان.

وما أنجبت إلا كرام المنازل	بلادي عرين الأسد حصن البواسل
تعانق بالأشواق سحر الأصائل	من الريف حتى تلتقي بمضارب
إذا هددوا باب العدا في المعائل	رجال صناديد وإخوان نجدة
تدك قلاع الخصم دك الزلازل	وإذا غضبوا يوماً تراهم صواعقاً
إلى ربهم يغشاه كالتجاهل	ويا ويل من يسعى به سوء حظه
إذا ذكر المجد التليد لسائل	كذلك آبائي وفاخر بذكرهم
فباهي بهم كل الورى في المحافل	ولقد وشحوا صدر الزمان بمجدهم
فشبوا كماء للعلا والفضائل	وما ارضعت غير الاباة نساؤهم
بحزم وإقدام وقهر الجحافل	لنا يشهد التاريخ طول حياته

(1) سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى 110

والديوان يشمل بين طياته إبداعات كثيرة تتحدث عن فلسطين وجهاد شعبها ومواقف العرب والمسلمين منها راصداً أحداثها، واقفاً خلف أبطالها داعياً للجهاد والوحدة ومساعدة الأخوة الأشقاء لتحرير الأرض السليبية يتحدث وكأنه جرح ينزف لا يعالج فيبراً وإنما كل يوم تأتيه ضربة قاسية فيتسع ويكبر وينزف ألواناً ويزداد عمقاً وخطراً وتمنع محاولات التضميد وأحياناً يتخاذل من يستطيعه تلك زفرات المريبي الشعرية التي جعل من إبداعها رسوماً متحركة لما يحقد بفلسطين وأهلها وأرضها وما يعانیه أبناءها من تشريد وتعذيب ومطاردة وظلم وبهتان وما تقاسيه الأمهات من ثكل الأبناء وفقد الأزواج وما تؤل إليه دورهم وخيامهم من دمار وشتات وما يلاحق أطناهم وأوتادهم وخيامهم من قصف وفتك كل ذلك وأكثر من ذلك صورته المريبي بعدما أحس به وكمن في نفسه مما جعله ينزف تجاربه وإبداعاته التي تمثل جل قصائده في هذا الديوان، من ذلك نقول أن هذا الديوان يمثل بحق نفثات وأحاسيس عرب المغرب العربي ومشاركتهم لإخوانهم عرب المشرق من ذلك قصيدته "قسماً إنا عائدون" والتي استهلها بقوله:

مسجدي الأقصى يرتجى المسلمين	وفلسطين في يد الغاصبينا
صرخة اليأس في ديار الهدى تع	لو، وذاعرانا يشين الجبيننا
وبنو إسرائيل في كل يوم	يشربون الانحياز—سستهترينا
يتحدوننا بطغمة جيش	يستفز الشعور والأمنينا
وعلى ضفة القتال استباحو	من ذوينا الدماء مستعذبينا

والقارئ يلاحظ تفاعل الشاعر وإدخاله الذاتية في هذا الصراع فهو ينسب المجد إلى نفسه فهو حق له كما هو حق لكل مسلم وادخل نفسه في العار وإضافة إليه كما يعد أبناء فلسطين آباء وأبناء له "استباحو من ذوينا الدماء".

ثم ينتقل إلى وصف الأعمال الشريرة التي تقوم بها إسرائيل فهي تغدر من منطلق عقائدي و بوسائلها الخبيثة تهيمن على الحاكمين و تتحكم بهم في العالمين فتظهر أصحاب المقاصد الضالة حتى تجعل منهم صنائع أمناء لها:

وهذا اسرائيل تطغى و تزهو	ولها كل الغر والفسق دينا
ولقد ظنت أنها أسمى البرايا	ولها تجشو سلطة الحاكمينا
ولها الحكم وحدها كيفما شا	ءت تقود الزمام في العالمين
ترفع الأدنياء للمجد حيناً	وتدنى الأشراف مناحيناً
ولها الحق أن تمارس جهراً	ما أرادات وما تراه مهيناً
ولإيها تؤل كل القضايا	ولها كامل التصرف فينا

ويتحدث عن العوبة مجلس الأمن و بطلان الأسس التي يقوم عليها قراره وهيمنة اسرائيل على أعضائه واستهتارها بقراراته فكلما صدر قرار من هيئة الأمم أُلقت بعدد حروفه قنابل على مخيمات اللاجئين:

مجلس الأمن دمية من دماها	كم لها في الكبار من تابعينا
كلما أصدر القرار عليها	قذفت طائراتها اللاجئينا
لم يخفها الوعيد من أمم يو	ما، ولم تخش غضبة الناقمينا
إنها تعرف النتائج قبلاً	وهي ترثى أصحابها أجمعينا

إن زمان اليوم زمانها و عقارب الساعة تسير في صالحها فهي تنهب الوقت نهباً وكلما حققت نصراً دفعها إلى الأمام وزاد من قدرتها وأحست بتجسيد أحلامها وتحقيق أمانهم وأحلامهم التي يزعمون تدوينها في ثوراتهم، والشاعر على اطلاع بمخططاتهم التي تستهدف القدس والفرات والنيل التي تقع ضمن حلمهم الأكبر من أجل ذلك فإنهم يجندون

كل يهودي في الأرض ويدعمونه ويحمونه مهما كانت أساليبه ووسائله فغايتهم تبرر
وسيلتهم مهما كانت غارقة في الخسة والنذالة وكأنهم يرون أنفسهم البشر وما عداهم خدم
وعبيد ولا يعبأون بالوعيد والتنديد وهم يدركون أنه مجرد تضليل وهراء:

ولذا تسعى للمقاصد قبلاً	وتعد الوقت القصير ثميناً
كلما احتلت شبر أرض غدت تح	سب أن الأحلام أضحت يقينا
وعلى مرآنا ومسمعنا تغمزوا	أراضينا غزوا الفاتحيننا
وتعد احتلالها حقها المش	روع بين التوراة كان دينا
فمن النيل للفرات ترى ملك	اعظيماً، والقدس حصنا حصينا
حلمها الأكبر الذي عملت من	أجله أذكى في اليهود الحنينا
فتراهم في كل قطر صهايي	نا وأنكى اللصوص رجالينا
يسرقون الشعوب سرأ وجهرا	ولهم صارت "تل أبيب" حزينا
وكان الدنيا لهم وحدهم و ال	ناس أمسوا عبيدهم صاغرنا
كل تنديد باليهود قصور	والادانات منطلق العاجزينا

ويعرج على أوصاف اليهود التي اشتهروا بها بين الأمم فهم يحملون أوزار الأنبياء
وعليهم لعنة الخلود ونشروا الإلحاد في الأرض ويمتصون دماء الشعوب في حقد دفين منهم
أبشع مجرمي الأرض:

شهد الله أن إسرائيل قوما	يحملون الأوزار مغضوبينا
وبهم لعنة الخلود أحاطت	إذ تبنوا زعامة الملحدينا
يأكلون الربى ويتهكون ال	حرمات المثلى انتهاكا مشينا
ينخرون الشعوب حقدأ ومكرا	هم بدنيانا قادة المفسدين
غصبوا الأرض في فلسطين عدوا	نا وهم فيها أبشع المجرمينا

ومهما تجبر العدو وتكبر وعثاء وفساداً فإننا إلى فلسطين عائدون ذلك ما وعدنا به
رسولنا محمد ﷺ:

قسماً بالقرآن والمسجد الأقصى
قسماً إنا عائدون لها بالنار
قسماً نفدى الثأر ثأر الذين
قسماً بالدم المراق سنفدى
ي نعيد الأرض السليبة حيناً
رغم الأحلاف والمدعين
احترقوا بالنابلم في وادينا
راية الحق في الوغى مؤمنينا

1969م

وفي أواخر القصيدة يصرخ داعياً قادة المسلمين في مؤتمرهم الأول في الرباط إلى
تحرير الأرض السليبة:

ها هنا دقت تواقى
تنذر الغاصبين بالوثبة الكب
مرحبا بالملوك والرؤساء ال
قد دعاكم أخ كريم فأهلا
ولنا في لقائكم ألف حلم
وحدوا الصفوف واعتصموا بال
ذكرونا بجيبر وتبوك
إننا ظامنون للثأر يا قوم
غصة القدس ليس يطغى لظاها
فافتحوا الباب للجهاد فإننا
س الجهاد الكبير للمسلمينا
رى لأهل الإسلام اجمعينا
مسلمين الكرام والنائبينا
بجماعة الإسلام مؤتمرينا
ولقاء الأبطال نصر يقينا
عروة الوثقى كي تردوا العرينا
وبيدر وبعدها حطينا
ي وقد حان الوقت للظامئينا
غير حرب المصير بالثأرينا
مستعدون للفداء اجمعينا

ويتابع كل تجديد عليه يؤدي إلى نتائج خيره في طريق التحرير واستعادة القدس الشريف وها هو يردد مع أبطال (فتح) "ثورة حتى النصر" ويجعلها عنواناً للقصيدة التي بارك فيها انطلاقة هذه المنظمة الفلسطينية القوية التي تصدرت الجهاد:

"فتح" يا ثورة الفداء والآباء
أنت للحق جنة وملاذ
قد بعثت الآمال في نفوس
ولكم خدرت بأزهي شعار
ومشت في جنازة العار تبكي
ثورة حتى النصر أسمى شعار
هكذا قالت فتح وامتشقت أم
ومضت للثأر الكبير كرعده
تقذف الرعب في صفوف العدا
تنسف الغاصبين نسفاً مريعاً
بالصواريخ المحرقات وغزو
اقسمت بالرحمن بالمسجد الأقصى
لتردن الأرض خالصة شب
قسما قالت فتح أنا لها إما
لا يفل الحديد إلا الحديد
يا فلسطين أبشري جاء الفت

يا عرين الآباء والكرماء
ولأنت الرجاء للغرباء
صدئت بالنفاق أقسى البلاء
قادهما للهزيمة النكراء
سوء القيادة الخطباء
للذي يفدى أرضه بالدماء
ضى حسام وواعدت بالجلءاء
صاعق كالزوابع الهوجاء
حيناً مجين في ثورة الشهداء
وعليهم تلتقي لظي الأنواء
انتقاماً للأرض للأبرياء
ى بيت الخليل، بالأنبياء
رافشراً من قبضة اللقطاء
فناء أو عودة للبناء
والعدا لا تجلو بغير الفداء
ح "بفتح" من خير الأبناء

12 قالت لي الحرية

وهذه الأبيات لسان كل عربي ومسلم شهد انطلاقة وأحس بالقوة ورأى الخلاص
فيما تقدمه من شهداء واستمر العربي يقف خلف فتح غير أن الخلاف في صفوفها في الآونة
الأخيرة قلل من عطاءه، نرجو الله أن تعود إلى سالف تاريخها البطولي.
والعيد يحتل مكانة بارزة في الشعر فهو راحة قلبية ونفسية وتكاتف وتعاضد وتحاب
ولكن إذا ما أقبل العيد وقد فقد الإنسان أحد لوازمه فإنه يثير في النفس لو أعج من الحرقة
والحسرة غالباً ما تتجسد عند الشعراء في إبداعات شعرية كما انطلق المتنبي بيته الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

والعيد في نظر الإسلام راحة نفسية ولقاء روح وتعاضد نفسي ومادي لا يقف في
وجهه حزن ولا حرب ولا ظلمات ومحن ولكن الشعراء تجاوزوا المنطق وربما قصدوا إلى
تجاوز الإسراف والبذخ والمظاهر فقط ولكن المربني ينعى العيد:

ما دام الأرض في يد الغريب ما لنا عيد يا بني الحبيب
وأرضنا في أيادي الغريب عيدنا نصرنا في القريب

وللمربني عدة قصائد في العيد منها " ما لنا عيد " و"عيد فتح" يقول فيها:

عيد "فتح" في حقها المهضوم

في جراح المجاهد المكلموم

في قضاء العدو الظلم

وله قصيدة أخرى بعنوان " عارنا يا عيد " استهلها بالأبيات التالية:

كل عام يا عيد أنت جديد وفلسطين ما لها اليوم عيد
من بهاك الأنوار تجلى ظلاما غير ظلم اليهود ليس تبيد

وشعر أبي بكر المريني يمثل الاتجاه المحفلي فهو يشدو بإيقاع قوي ذات نبرات خطابية مؤثرة، وشعره يلتقي مع عدة طبقات من المجتمع وإن كان لا يروق للذين ينزعون بالأدب نزعة خاصة لطبقة محدودة غير أن الواقع يحتم على الأدب الشمولية لأصحاب اللغة فالسياسي يميل إلى الشعر ويتأثر به والعلماء أيضاً كذلك وطبقات المجتمع كل له ذوقه الأدبي وفي نظري أن الأدب الناجح هو الذي يستطيع أن يحضر في جميع المنتديات وكلاً يجد فيه بقيته.

ورغم اعجابنا بالأصالة الراسخة عند المريني فإن المنطق والظروف العصرية تحتم علينا الاقتباسات والاستفادة من الإبداعات العالمية التي اختفي وجودها في شعر المريني فأعرض عن المعالجات الذاتية والإيحاء، والاستشفاف، والرمز المستحب أحياناً. و كذلك فإنه لم يبلغ ما بلغ انداده الشعراء في المشرق من إجادة التصوير والإمام بالبلاغة العربية واستلهم المخزون الثقافي والإبداع الخي إلى فخرج شعره يمثل العاطفة الشائرة والحماس الوطني في أسلوب تقرير ينجح إلى السطحية أحياناً كثيرة.

أجراس الأمل

الشعر الحديث يلتقي مع المعاناة ويعرض عن الشكل القديم ومراعاة المقتضى الشعبي، ويلتجئ إلى شواطئ الإيحاء والدلالة والاستشفاف ويتعد عن الشاطئ العقلي الواضح الذي يستمد المعاني من الدلالة اللغوية للكلمة لكي يتشكل العقل في مسرح تشابكي من العناصر الكونية. والأدب في المغرب العربي أخذ يجنح إلى القصيدة الحديثة ولا أدل على ذلك من تدفق الدواوين الشعرية التي تسلك؛ هذا المسلك وتنحى هذا المنحى العالمي الاتجاه من ذلك ديوان "أجراس الأمل" للشاعر عبدالسلام بو حجر، والذي يضم بين دفتيه ست عشر قصيدة طبع عام 1985 م والديوان يمثل الحضور المشرقي الدائم في الوجدان الإبداعي المغربي فأنت تعيش في النص وكأنك تصحب الأخوة الفلسطينيين والأحداث اللبنانية من مقاومة العدو ومن أحداث بطولية وحصار وألم وأمل وسجن وتعذيب وأعمال فدائية نسائية تعلن دمها ونفسها وحياتها وآملها فداءً للأرضي الفلسطينية. والشاعر عبدالسلام بو حجر يستهل ديوانه بقصيدة (محجوب) رمز لذلك المسلم العربي المشرد عن أرضه الذي حجبه الإسرائيليون ومنعوه عن رؤيتها وكيف أن قلبه يمثل واحة الحنان وفي صدره ثورة بركانية هائلة له آمال دأبة من أجلها وعليه الأم تثقله ورغم كل الجراح والاحتراق فإنه يعلن التحدي الكبير:

يتحدث محجوب

في صوته نبرة للتوهج

في صورته جيل يتحرك

في دمه واحة للحنان

لمحجوب بابان

حين نريد الدخول إليه

لنطلب أسرارهِ الدموية في الحرب والحب

باب يطل على أمل
ثم باب يطل على ألم
فنقول له:
احرقتك السنون
عرفتك السجون
وتألمت حتى ولدت
ونراك تغني التحدي الكبير
على سلم الاحتراق الطويل
فكأنك ترغب الانتقام

وأنت معي ترى قدرة الشاعر الإيحائية تبزغ أحياناً في مثل قوله تألمت حتى ولدت " حيث المعاناة التي حطمها الأب والأم وما كابدهت الأم الحمل من هجمات وهموم وتشريد ومثلها: " على سلم الاحتراق الطويل ".
والشاعر يرمز للوطن بالمرأة المعشوقة فهي تمتلك الشاعر فتحاصره حتى لا نجاة وامتداد الحب امتداد للحياة وزواله هو القضاء لذا فإن تدفق الحب والحنان والعطاء والفداء يتجلى في قصيدته " الحصار عشقاً " (حيث يخاطب سيده) وسيدته هي فلسطين العرب والإسلام التي يمنحها الجدول العامر بالحب وبالحب الصوفي المهيمن:

سيدتي:
أشعر أنني محاصر بعينيك
أرى بينهما موتي
أرى بينهما بقائي
كطائر مصفد بالعشق
لا يقدر أن يخرج عن خريطة السماء

مني إليك كل هذا الجدول الدافق
بالشعر و الغناء
مني إليك كل هذا الجدول العامر
بالحب والحديد
بالتشوق الصوفي للقاء
سيدتي
يتسع الصمت، ولا يتسع الحرف
لهذا الجبل الراقد في دمائي
الجبل الذي يروم ساعة النداء
ندائك الجميل والعفيف
يا أجمل من لم أرها بعد
ندائك الذي يحسم في تقاطع الأضداد
كالسيف و كالسنة

هذه الأرض العربية الحبيبة فإن ابنها عاشقها ومادام محباً فإنه سيحطم القيود
والحدود ويمتطى المخاطر ويهجم على المشانق ولا يب إلى ويتصدى للقنابل بقلب العاشق
الذي لا يب إلى بما سيصير بعد اللقاء:

أعلم يا سيدتي
أنك توجدین خارج اليد
على مسافة من المشانق التي تحبك
والذين يضمرون للمعذبين أكبر العداة
لكنني أراك يا سيدتي
حقيقة محفورة في جسد الضياء

في كل حين تعلنين صوتك القاصف كالرعد
على مسامع الطغاة
والمقوقعين في جلودهم
برغم الرعب
والتريغيب والترهيب
والسوط والافتراء
وأخيراً يعلن الحقيقة التي ترسخ في قلب كل فلسطيني وعربي:
أشعر أنني محاصر بعينيك
أرى بينهما موتي
أرى بينهما بقائي
لأنني جبلت
من طينة الاغتراب والعذاب والفقر
فأعلنت لك انتمائي
ص 10

ويسطر عبدالسلام بو حجر السجلات الفلسطينية والعربية واللبنانية في كثير من
نصوصه الشعرية فتأتي قصيدته " الحضور " وفيها يقف الشاعر الرقيتق مطالاً على الأحداث
المؤلمة في لبنان.

وقوفاً..... وقوفاً
إلى أن يذوب الحصار
ويبدو النهار
هنا طائرات تغير
شوارع مفروشة بالدماء

وبيروت أقوى من الفتك والموت أو من رصاص العدو السادس

والديوان يعالج القضايا العربية السياسية معالجة شاعرية وجدانية فينزف قلبه الحب والعشق ولكن للوطن العربي السليب فهو يستلهم الأحداث وتشديد الحصار والتصدي والرفض القاطع من الأخوة الفلسطينيين الذين حاصرهم اليهود في بيروت وليس هناك من يخاطب المقاتل ويناجيه إلا الغيمة والشمس والموجات الإذاعية التي تتنبأ بمزيد من الأمطار القاتلة في قصيدة "القراءة" من كتاب الرفض:

صبوات الأزمنة الصفراء
في موسم هذا القحط
هذا ما قالته الغيمة في همس
الغيمة وهي تعانق في أفق الشمس
في نشرة أحوال الجو المتقلب هذا اليوم
وقالت إن الطقس
ستشوبه أمطار النهار الغد
بمخاض الزوبعة الجبلي
يعلو صدر الريح الثكلي

ولا أستطيع أن أتابع القصائد الفلسطينية بالتحليل والاستنتاج غير أنني لا أحجب
عن القارئ الكريم قصيدته "تأتي إليك":

تأتي إليك
لتقول رحلتنا تكون

إلى فلسطين العظيمة والجنوب
ويصعد الشهداء من قبر الوصاية
من رماد الأربعاء
إلى يدك
تأتي إليك
لتطل يا عبدالعزيز على الجريمة
والدماء تسيل من يافا إلى بيروت
من بيروت حتى آخر الدنيا
ترى الوطن المحاصر داخل القضبان والشهوات
والصحف الأجيّة
والبكاء على الديار
وبائعي الوطن المكبل بالمزاد
فترتمي في أذرع الأرض التي احترقت
وتفتح ساعدك
وتأتي إليك
ليضيع ذاك الفرق بين الفعل والأفكار
بين الظل والأشجار
تخرج من منابرهم
محابرهم
مجازرهم
تقول: هل العروبة أن نغني للصليب
لمجلس "الأمن الحبيب"
وبين مؤتمر دماء⁽¹⁾

(1) عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل 23

وفي قصيدته "حوار الجنوب" في المقطع الرابع يعلن الحرب على الأعداء في الروح العربية ويطلب رفع الوصاية ووضع أسوار من الحماية للدين والحضارة والوطن:

ثم يقولون:

أن العروبة تسكن جلد الأفاعي
روافدها تلتقي في مصب الوصاية
كل نوافذها الآن مشرعة للذئاب
تجيب:

متى ينجلي الفرق
بين الحصان وراكبه
الدم المشرقي يسيل
من الأرض للبحر
يافا وبيروت وجهان للطلقة الواحدة
والدم الأحمى يسيل
ويبدأ من ساحات (المعجزات) هناك
إلى أطلس الجبهات هنا
ثم تسمع أغنية من رحيق الدماء⁽¹⁾

والديوان بحر يموج بالألم، والجراح العربية ما عدا القضايا المغربية ويعالج الأحداث بصيغ تعبيرية تثير الغرابة يتخللها التخيل الحضورى المستمر وفق مقتضيات الحدث المعالج الناجم عن استقراء الوقائع التي تتشكل على مسرح الحياة وتشعباتها متمازجة مع الاتجاه الفكرى المسيطر على الشاعر والواقع وأن مضامين الشاعر عبدالسلام تهدف إلى التلاحم العربى واسترداد الوطن السليب مع الاحتراس الشديد عن التجاوزات

(1) عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل 31

الدينية التي وقع فيها بعض أصحاب الاتجاه اليساري من الشعراء في المغرب العربي ويعتمد في شكلانيته القصيدة على الصياغة الحديثة الملائمة للتجربة مع التحلل من قيود القافية والوزن والتقسيم المعتدل للبيت الشعري ويسخر اللغة لبلورة التشخيص الذي يرمز له بالمرأة فهو يفتديها بجياته ولكن هذه المرأة ليست حقيقة وإنما هي رمز للوطن لأنها الأم والأخت والزوجة ومنبع الود والحنان فلا شيء يعدلها سوى أرض الوطن.

من الجدير بالذكر التنويه بالرمز الذي استخدمه الشاعر فإنه التزم الاعتدال والذي تميل إليه النفس ولا يجنح بها إلى الغموض أو التكتيف الممل.

والديوان مع صغر حجمه وقلة قصائده فإنه يمثل التآخي والتآزر، وتبادل الشعور واتفاقه بين أبناء البلاد العربية والإسلامية في المشرق العربي وشقه الغربي رغم إرادة التصدع لهذا الجسد وشعر الشاعر يبلور أصداد الشباب العربي الذي يتصدى لأمواج المآسي التي تتداعى على الكيان المنهك، فيئن تحت وطأتها، ويصرخ بجنون في وجه زارعي الظلام وسافكي الدماء وأخيراً فإن الشعر ترف الشباب الدائم الذي لا يفتر عن الغليان والعدو وراء الحلول مقبلاً ومدبراً ذات اليمين وذات الشمال.

ديوان إشراقات

ومن الإصدارات الأخيرة وبواكير إنتاج الشاعر عز الدين الإدريسي ديوانه إشراقات المطبوع عام 1406هـ-1986 م بمطابع النجاح الجديدة / الدار البيضاء والشاعر من مواليد عام 1942 م ودرس بكل من كليتي الآداب والحقوق بالرباط، تنقل كثيراً في دول الخليج العربية فزار الكويت والإمارات العربية ودولة البحرين ثم عاد إلى المغرب وهو يعمل في المحاماة بمدينة الدار البيضاء وقد قال في المقدمة أن ديوانه ينقسم إلى جزئين اثنين: الأول: ويتعلق بأغراض شعرية كالوصف والمدح والرثاء والتغني بالأمجاد والبطولات الوطنية وضم خمسة وعشرين قصيدة.

الثاني: ويتعلق بالجانب الوجداني أو العاطفي وضم ستة وعشرين قصيدة كلها تعبير عن المشاعر الفياضة والأحاسيس الإنسانية دون تكلف أو تصنع⁽¹⁾. ومضامين الديوان تدور حول التغني بوطنه المغرب ورجالاته وأبطال الاستقلال وعشقه لهذا الوطن وأمجاده وتاريخه العريق وما دعاه يشعر بهذه الحرقه بعده عن وطنه حيث قضى بعض الوقت في البلاد المشرقية العربية، غير أنه يستهل ديوانه بمناجاة الرسول ﷺ في قصيدة ذات العنوان "يا رسول الهدى" ويتبعها بقصيدة "مناجاة" يقف ضارعاً خاشعاً أمام الله سبحانه وتتع إلى مستمداً منه العون والرجاء في كشف الكربات والهموم المحدقة بالأمه الإسلامية ومعرجاً فيها على الواقع الإسلامي والاجتماعي والسياسي في إشارات عابرات:

إلهي وأنت رجاؤنا في ليل الظلمات
عم السواد قلوبنا وادمتها الكربات
ولفت أرواحنا الأحزان والهموم والقائمات
لم نعد نرى سنا أنوارك المشرقات

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 6

تغمر الأكوان وتتجلى ناصعات
تضيء سبل الخير والفضل والبركات
وتمنح الحب والصفاء والآمال العريضات
لقد تخلينا عن مبادئ الدين الراسخات
وينابيع الحكمة والهداية والقومات
وتنزىل الوحي وآيات الكتاب المحكمات
وسنة النبي الهادي سيد الورى والكائنات
انغمسنا يارب في المهاوى والملذات
واستطبنا عيش الدعة والشهوات
و استبحنا حرمة الأجداد والمقدسات
وسفكنا دماء الأبرياء بدعوى النضالات⁽¹⁾

وله قصائد متعددة يتحدث فيها عن بلاد المغرب ذاكراً التاريخ الحديث والحاضر
مشيداً بالملك الحسن الثاني وعلال الفاسي مسجلاً ما قاد البلاد إليه من حرية واستقلال
ووحدة ونضال معرجاً على المسيرة الخضراء وتحرير العيون والصحراء ونحن نقتطف بعض
المقطوعات من قصيدة (صرخة الأطلس)

من بين جبال الأطلس الحصينة المنيعة
تردد صوت الجهاد والبطولات الأبية
لاسترجاع كرامة الوطن المهانة
وتحرير أرضه السلبية العزيزة
ودحر فلول الاستعمار والتبعية
ورفع راية النصر خفاقه عالية

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 16

فوق هضبات وقمم الجبال الأطلسية
مخثال بنيل الاستقلال والحرية
وكسب معركة الشرف والأصالة العربية
بالفداء واسترخاص الأرواح الزكية
دوت صرخة الأطلس لوحدة البلاد الترابية
تهز جنبات الجبال وتنادي للفداء والتضحية⁽¹⁾

وحديثه عن فلسطين حديث العربي الذي ينظر إلى دعم الفلسطينيين ولا يدخل
مشاركاً معه فهو يخاطبه مخاطبة كأنه يدفع به إلى الأمام.
ويثير الحماس والوطنية بتسجيل الأحداث المروعة التي تنبع من الحقد الصهيوني في
قصيدة بعنوان "فلسطين"

يا أرض الشهامة العربية
والجهد والبطولات والتضحية
يا أمة الشهادة الأبية
في ملحاح الوغى الدموية
يا معقل الكفاح بالأرواح السخية
والصمود أمام الطغيان والهمجية
ونار البطش والقهر والعبودية
كم سقيتم تراب الأرض الندية
بدماء فوارة زكية
لغسل عار الاحتلال والصهيونية
التي دنست ربوعكم البهية

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 42

وقتل براعم زهوركم الفتية
واغتالت فراشات بساتينكم الوردية
وهجرت عصافير أشجاركم المخملية
وسممت سواقي مياهكم الكوثرية
واغتصبت همى القدس المرعية⁽¹⁾

وهو يشير إلى حادثة تسميم المياه في القرى والأنهار والصنابير داخل المدارس وهو لون من ألوان الاضطهاد الذي تمارسه الصهيونية في أرض فلسطين.
من القصائد الرائعة ذات النفس الطويل "وقفة بغرناطة" ووقفته أمام المعلم الإسلامي الشامخ الذي تتمثل فيه روعة الحضارة وجمالها وإبداعها وإتقانها تمثل تلك الوقفة وقفه المسلم أمام أمجاد الآباء صانعي الحضارة الإنسانية الشاملة فأحس بماضيه الحضاري وأخذ ينسج مع الأجداد بنيان الحضارة مؤمن بالله كما آمنوا مجاهداً كما جاهدوا:

وقفنا بغرناطة باكين
والدمع قد تحجر في مآقينا
لله من وقفه حب وخشوع
عند مآثرنا الغر الميامين
رأينا قصر الحمرا مزدهيا
والقباب العاليات شامخات
زخرف ونقش وماء في ابهائه
والعز لا زال مكتوبا على سوارينا
في كل ركن من أركانه سحر وجمال
وأية من الابداع والأفانين

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 46

نطق الحسن في جنباته مرتلا
نغمات الخلود السرمدي في العالمين
دخلنا محراب صلاته ونسوكه
فسجدنا للواحد القهار خاشعين⁽¹⁾

ولكنه لم يلبث أن يعرج إلى التحلل من الدين الذي كان العنصر والمحور الأساسي في خروج المسلمين من بلادهم ويتبعه الفساد والراحة والدعة حتى عصفت بهم رياح الهوى وانحلت أخلاقهم وخضعت هاماتهم للذل الذي يركز على الاعتدال الإنساني فهو يمثل الخطرات ولكنه لا يتجاوز إلى كثيرة في المهلكات فهي تخلو من الوجدانيات السافرة، ومعاقرة الكأس التي تزخر بها دواوين بلاد المغرب ونحن نصحب الإدريس في مقدمة قصيدته (عينك):

عينك حبيبي شراع تائه
في خضم الذكريات الحالمات
لونها الأزرق يحملني
في ثنايا أمواجه الهادرات
فأخش من الغرق الأكيد
في لجج اليم العميقات
فأين منى شاطئ النجاة
وقد تملكني هواك دون مقدمات
أني سيدتي لا أحسن السباحة⁽²⁾

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 94

(2) المرجع السابق 116

والقارئ لديوان إشراقات للشاعر المغربي عز الدين الإدريسي يرى الوضوح والصراحة والتقرير الأسلوبى كأنما يسير على خطى أولئك المادحين الأوائل الذي يتحدث عن الغير وينسى ذاتيته وتفاعله معها ذلك في بعض قصائده التي تتسم بالوضوح والتقريرية رغم وجود تيار كبير في المغرب يدعو إلى الإيجائية والغموض أن يعود وأعتقد أن الذي أهتم الشاعر هذا الأسلوب ونأى به عن الغموض والسير في ركاب هذا التيار.

الشاعر أولاً وقبل كل شيء محامي والمحامي واضح شديد الصراحة ميال إلى المنطقية والبراهين ثم إن الشاعر طوف في بلاد المشرق وخاصة دول الخليج وتأثر بالتيارات الأدبية التي تميل إلى المعالجة الصريحة أضف إلى ذلك كون الرجل يحمل بين جنبيه مبدأ العقيدة والوطنية ويوظف شعره لهما لذا فإنه انطلق من مبدأ الوضوح والتدفق العاطفي وإيضاح الصورة حتى تجد لها مكانة وقبولاً والذي لحظه فقدان الصور وتلاشيها في شعره الوطني فإن التخيل وامتزاج الصور وتداعي الأفكار وتربطها الفني كان بمعزل عن الشاعر لغلبة المنطقية على تفكيره والذي يظل دائماً من محاسن الشاعر ووجدانياته العفيفة واحجامه عن الوقوع في الخطأ رغم الصراحة غير محبة من شعراء زمانه ومعاصريه في وطنه مما يدل على تشبع الشاعر بالروح الإسلامية ومن الأمر البين اعتماد الشاعر على النغمة أو النبرة في القافية في أغلب قصائده وأحداث جلجلة صوتية تنأى عن الجمالية الفنية في أكثر مناحي الديوان.

بين يوم و ليلة تحلل القواد
من رباط الدين العتيد عمياناً
وانغمسوا في الشهوات والملذات
بين الجواري والحسان منتشين
وما أفاقوا من سباتهم العميق
إلا وقد حاقت بهم المصائب خاسرين
خارت قواهم وأغلت أخلاقهم⁽¹⁾

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 98

ويختتم قصيدته بما يثير الأشجان والأسى الناجم عن فقدان العالم الإسلامي لهذا الفردوس العظيم:

الجرح العميق في القلوب يدمينا
والزهر يعانق الزهر باكياً
عن فقد ديار الفردوس والجنان
والحمام يودع الحمام زافراً
زفرات الأسى والندامة والأحزان
ضاعت مغاني الأنسي لنا
فكل غال بعدها قد هان
لم تعد الآثار تبكيها
وتثير لواعج اللوعة فينا⁽¹⁾

وللشاعر قصائد عديدة في الوجدانيات وتحس بصدق العاطفة وتدقق التعبير وتداخل الصور والإشعاعات الإيحائية الخاطفة التي لا تطل على مشارف الغموض وتجنح إليه غير أنها تعبيرات صادقة في لحظات غرامية واقعية تمثل النظرة الإنسانية للحب. يخضع الحراك الأدبي للحراك الخارجي والداخلي ولكن قاعدته الصلبة هي الموروث، والتوارث الاجتماعي، وحراك الواقع الاجتماعي المعاصر بكل شرائحه الشعبية والسياسية، وعلاقته بالخارجي.

والأدب في دول المغرب في مهب رياح الفكر منذ قيام دولة الإسلام في الأندلس فهو جزء من حراك الأدب الأندلسي الذي له كبير الأثر في التأثير الفكري والأدبي وسائر مكونات الحضارة في الأدب الأوروبي، ونحن ندرك أن الأدب في أقاليم المغرب العربي وأقطارها، خضع في تكوينه الحديث للمكونات الداخلية من خلال الضعف السياسي

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 103

والفرقة والجهل والفقر وتتعاقد هذه مع التواصل مع المغرب وهذا التواصل يحمل اتجاهين متوازيين وإن كانا متضادين أحدهما إشراق أوربا بالعلم والنظام والتطور فقد أذهلت أهل المشرق بتطورها وأرادت الشعوب العربية الاقتباس من تلك الحضارة ولكن العنصر الثاني وهو الحربي الاستعماري، واتخذت الدول الأوربية السياسية تلك الوسيلتين ولكن الحرب هي البارزة وحرب المجتمع وحجب التطور بألوانه كان هدفاً للمستعمر وكأنها تضيء ببعده أمام الشعوب وتحجب وصولهم إلى مصدر الضوء.

ولكن النتيجة أن الشعوب المقهورة أخذت تدعو إلى القيم الإنسانية والعقلية، والمعرفية المنطقية وكان جلّ القيم الأخلاقية تتعاقد مع القيم الدينية المثالية والقارئ للإبداع باختلاف مستوياته الفنية يدرك الدعوة للقيم والأخلاق الإنسانية العالمية ولو عمل بها الغرب وعامل بها البلاد المستعمرة لكانت حضارته مثالية ولكنه الدول المتقدمة حملت عنصرين جعلت السياسة منهما عناصر متصارعة متحاربة، فأضحت عوامل فتك للأمم وانظر إلى أفريقيا الآن رغم رعاية الدول المتقدمة لها ولكنها ما زالت محرومة من التطور بفعل تلك الدول المهيمنة إن الحضارة الغربية تكشف عن نفسها بعد طول معايشة، فأنت تقرأ قصيدة للشاعر المغربي عبدالكريم الطبال الذي عايش مرحلة الاستعمار ومرحلة الحرب ضد النهضة والضعف من الداخل فهو يشتكى من ذلك المارد المدمر للحياة في الأوطان وما يزرعه من أعوان.

فالإنسان العربي يحيا ولكنه مريض بالجهل ويحيا ولكنه محجوب عن النور ويشرب ولكن ماءه ملوث، ويتحدث ولكن خاضع لتحويل الخير إلى شر وتسويق الشر باسم الخير يقول:

قال المذيع الرائع في الصوت وفي الوجه
أحباب القلب. يا مستمعي الإذاعة النبوية
الخبر الأخير: كل شيء في أحسن حال
تأتي إلى بلادنا الفصول الأربعة

لا نطلب الجواز من أحد
حتى من الصيف الطائش
تدخل الشمس في كل صباح
قبل أن تستيقظ الخليقة
الشجر الساكن في السهول والجبال
لا يقدم الجزية
الصوت القادم على الأمواج
لا نمنعه من الدخول
المطر الذي يسقط
لا تحجبه عنه الأرض
حتى الإنسان لا نمنعه من شيء
يستقبل الشمس إذا يشاء أو الليل
يشم العطر أو النتن
يجوع أو يشبع
يلبس أو يعري
يصح أو يمرض
يموت أو يحيا
ينام في النهار أو في الليل
يشرب الماء أو الشاي
يكسر رأسه على الجدار أو يكسر الجدار على الرأس
لكننا فقط نمنعه من أن يحلم في النهار⁽¹⁾

(1) سيد حامد النساج، الأدب المغربي 213

إن القصيدة نابعة من تجربة شعورية نفسية تحمل هاجس ذلك الشاعر ولكن الناقد والمتأمل في أحوال الأمة العربية بأسرها أي كل إنسان فيها، فهو يشاطر الشاعر بل إن هذا الهاجس متوارث تاريخياً ومشهده للمعاصر لا يحتاج إلى برهان ولو قرأنا الشعر العربي للدول المغربية وللدول التي تعرضت للاستعمار لوجدنا الشعر يلتقي مع نبض الشاعر.

الأدب في دول المغرب العربي

أولاً: شعر الارتجال والطبع

كان الهاجس في بداية النهضة يتمثل في القهر الذي يعاني منه الإنسان في المغرب العربي ومن مصادر الألم الشعوري الاستعمار والتخلف والفقر والحروب والانقسام الوطني ولذا كان الأدب يحمل هدفاً وغاية وانفعالاً شعورياً ممزوجاً بالعقلانية الفردية والاجتماعية والوطنية فالغاية من الإبداع هي إثارة الانفعال الجمعي في اتجاه قضايا ملحة مما فرض الأدب الانطباعي الانفعالي الذي يقوم على تأكيد المعنى والمضمون فالعناية الأولى بالفكر والفكرة فظهر الشعر الواضح المعالم الذي يخاطب الأمة فلا عناية بالشكل وتفيض تجارب الشعراء والعلماء والمثقفين بالتغني الوطني المتمثل في الأناشيد ثم بالشعر الذي يحمل مضامين معاصرة مما جذب المجتمع إلى هذا الشعر الذي يحكي واقعه ومن شعراء الأناشيد المكسي الناصري يقول:

فؤادي إلى وطني قد صبا تعشقتة منذ طور الصبا⁽¹⁾

ومنهم علال الفاسي:

كلنا من عربي خالص أو بربري⁽²⁾

ومن الشعراء الأوائل الذين أحيوا الشعر بمضامينه الحماسية التي تلامس قلوب المجتمع يقول محمد الجندي بعد غزو المستعمر:

عن يميني وعن شم إلى قيود وأمامي جيل معنى شريد

(1) عبدالله كتون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 147

(2) المرجع السابق 148

ويتلاشى مع الزمان و يفنى	و يعاني ما لا يعاني العبيد
ضرب السد حوله ورماه	بسهام الردى رقيب عتيد
فكان البنين سرب ضحايا	والفراعين للوجود تعود
وكان المغير أمضى عقوداً	مع هذا الزمان ليست تبيد
وكان الشباب منا هباء	دون قوم و العيش عيش رغيد

ويفصل مكى الناصري هموم المواطن والوطن وأن الحالة الاستعمارية أوجبت الجهاد، ويتمنى جيلاً من الأمة بينون العقول وينشرون المعرفة ويسعون جادين للبناء:

حق البلاد على بنيتها	حق يقدهسها الإله
حتى متى وبنو البلاد	على قداستها جناه
مجد تهدم هل له	من بينكم قوم بناه
عز تمطمم هل له	فيكم مغاوير أباه
داء تفاقم هل له	منكم أطباء أساه
الخطب جل وليس غ	يربنى البلاد لها حماه
أحيوا البلاد وعلموا	شبانها كيف الحياه
هذا الشباب ذخيرة	بل ليس من ذخرسواه ⁽¹⁾

والشعراء في زمن المعاناة من المآسي الفردية والاجتماعية والوطنية في منأى عن الاعتناء باللغة والتزيين الشكل الفني بل الفكري وإنما همهم الفكرة المؤثرة ولذا فهم يخاطبون المجتمع بما يحتاجه الشعب من المضامين يقول المهدي الحجوي:

إلى متى نترك التعليم مهجوراً
ونحسب العلم في الافرنج محصوراً

(1) عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 151

وغيرنا يطلب الدستور والشورى
تقضى على كل من قدبات مغروراً
للمجد صرحا بعلم كان منشوراً
أقصى البلاد بسيف كان منصوراً⁽¹⁾

إلى متى نستلذ النوم و احزنى
متى نفيق وعين الدهر شاخصة
هبو إلى المجد يا أبناء من رفعوا
هبو إلى المجد يا أبناء من حكموا

هب علماء العالم العربي والإسلامي ومفكروهم إلى عملية التكامل للبناء فهم أدركوا الواقع السياسي وهم أيضاً وقفوا بجانب القيم الإنسانية والعقلانية فحثوا الأمة وشبابها على التلاحم مع القيم التي تنمي الأمم بل الفرد وهذا الشأن نلاحظه في بداية النهضة في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب ولو أخذ العالم العربي بهذا التكامل وابتعد عن الثنائية لوجدنا خيراً كثيراً يقول الشاعر المدني الحمراوي عن تلك القيم والالتزام بها:

قد رأيت الشباب في استهتار
شرف النفس من فسوق و عار
في خياض الخنا بدون استتار
يتنافي مع الحيا والوقار
حرمتها شرائع الكفار
قتل العرض جهرة في نهار
أين فحش من عفة الأحرار
ويجافي مخازي الفجار
قلبه من قبائح الأوزار
كاد يفنى في غمرة التيار
تنذر المرء أن لها بانداحار

يا شباب البلاد مهلاً فأنى
لا أرى لنجحكم إذا لم تصونوا
قد رأينا جموعكم تهاوى
فاستطابت من الهوى كل لون
واستحلت من الفجور صنوفاً
كم رأينا على الطريق شبابا
فإذا ليم قال حراً أراني
إنما الحر من يصون عفافاً
إنما الحر من تحرر حقاً
فأعد أيها الشباب صواباً
وتعلم من الحياة دروساً

(1) عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 151

لا يرى الفوز فيها غير الخيار
يتلف العمر بين حان و (بار)
ويضيع الرشاد حول القمار
غمه بين علة وافتقار⁽¹⁾

إنما هذه الحياة صراع
ويح من غره الشباب فأمسى
يرشف السم من شفاه مراض
فإذا أدبر الشباب تو إلى

إن هذه الأبيات لا تستدعي المنظار النقدي الع إلى للمعالم الجمالية وإنما تهدف إلى الشحن الفكري للمجتمع فالمضمون هو الغاية والهدف في زمن قلّ فيه التعليم والدراسات العليا والنقد الصحفي فالأمة مشغولة بالحرب على المستعمر والجهل والفقر، وفقدان المعرفة العلمية وقد كثر شعر العلماء والأدباء والمفكرين وكذلك أكثر الشعراء من الأناشيد التي يتفاعل معها المجتمع وشبابه، وكثر شعر علماء الحلقات والتدريس، وأكثروا من الشعر في محافل المدارس ورجال العلم، والمناسبات الدينية مثل الصوفية وتخفيف القرآن.

وهذه الانطلاقة الشعرية التي تقوم على الارتجال، والاتباعية وشعر العلماء، فقد جعلت من الشعر قوالب جديدة لاستحواذ المفاهيم الحديثة شيئاً فشيئاً وهي قد بدأت في مصر ولبنان والعراق وسوريا ودول الخليج وفلسطين والسودان والأردن، إنها تمثل الجذوة التي نفضنا عنها الرماد فاشتعلت وقد ظهر هذا الاتجاه في شعر الشعراء الجزائريين والتونسيين والليبيين، فالقارئ لديوان شعره يجد مساحة كبيرة من هذا اللون، ويتميز هذا الشعر بأنه منبعث من كم هائل من القائلين أكثر من الشعراء المشهورين.

يتداعى الإسلام بفصل الإعلام المجد للعقول، والقاتل للهمم والعزائم، فالإعلام اللاهني الملهي بهزله ولعبه ومغامراته وألعاب المجالس فتجد له أثره على شباب الأمة الإسلامية والعالم الآخر الخاضع لهيمنة الأمم الغالبة واستحواذهم، ولكن حين ترى طغيان الشعوب الغربية الأمريكية والأوروبية والروسية وما لحق بهم من الدول العظمى الناشئة إن هذه الدول تضع كل قوتها لإضعاف المجتمعات العربية زيادة لها على ضعفها وتمزقها، فإنها

(1) عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 173

عودتنا وأدركنا منها إنها جالبة علينا بقواتها الأرضية والسماوية وقذائفها عبر الأجواء أو بفعل عملية الاستخبارات وزرع القلاقل الداخلية والفرقة فإذا أجهزت على البلاد العربية أو على بعضها مع ممارسة الضغط على الآخر فإنها تحتل أو تفرق، مع هذا التدمير الإسلام يشتعل في قلوب الشعب وكأنها مرحلة تجديد إسلامي يقوم به العدو ونحن مع العالم المجاهد بالفكر والإصلاح عبد الحميد باديس يصور ذلك:

و إلى العروبة ينتسب	شعب الجزائر مسلم
أو قال مات فقد كذب	من قال حاد عن أصله
وبك الصباح قد اقترب	يا نـشـء أنت رجاؤنا
وخض الخطوب ولا تهب	خذ للحياة سلاحها
ن قديمنا الجـم الحـسب	نحن ال إلى عرف الزما
في نسل العروبة ما تصب	ومعـين ذاك المـجد
فعلى الكرامة والرحب	من كان يبغى ودنا
فله المهانة والحرب	أو كان يبغى ذلنا
بالنور خط وباللهب ⁽¹⁾	هذا نظام حياتنا

إن القرنين الماضيين ولدا الأكذوبة الفنية الأدبية التي تدمر المعالم الجمالية فتسير جنباً إلى جنب مع الضعف التقليدي، بل إن الاستعمار العربي حمل راية التضليل الإعلامي، والتدمير الفكري السليم فإن احتلال الأوطان وقتل الشعوب المستعمرة وبذر الخلاف والحروب أمر تحول إلى أعمال خيرية في نظر الإعلام الغربي وكذلك من تلبس باسم الدين من المسيحيين أما الدين المسيحي فهو براء كما نزل على حقيقته على عيسى بن مريم عليهما السلام.

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 192

إن التاريخ يسجل تدمير الإنسان وإنسانيته، في حروب الاستعمار ولعل حقوق الإنسان تفتح ملفات تاريخية، إنها تمثل تدمير الإنسان من أجل رفاهية إنسان آخر، إنها تعمل على فقر شعوب إنسانية من أجل رفاه شعوب إنسانية أخرى أو من أجل رفاه كلاب وحيوانات أليفة بانتزاع ثروات الإنسان الفقير الضعيف ليس الأمر مقصوراً على الجيوش الظالمة بل أقتفي أثرهم المفكرون والأدباء فأخذوا يحدون و يباركون القتل والفتك والاحتلال وتدمير مقدرات الإنسان ويصافحون أولئك الجناة الطغاة فالإعلام ووسائله، وأصحاب الفكر من الكتاب، وجيش من الشعراء باركوا سيول الجيوش على الأمم الضعيفة بمد يد العون و الإنسانية وبث المعرفة ولعل الغرب أنفسهم لو عادوا القراءة الصحف والدواوين الشعرية لأوقعوا اللوم والحزني على أنفسهم فلعل البحث العلمي الإنساني يعود لقراءة التاريخ ويكشف عن طغيان الإنسان الذي يباهي بعلمه وتطوره.

" وانحرف عدد من الأدباء في تيار العجرفة العرقية، والتع إلى العربي، والاستهانة بكرامة الشعوب، فرأوا في التدمير والقتل، وتفلت الغرائز، واستغلال خيرات الآخرين، دليلاً على الرقي الأوروبي، فرأينا مثلاً، بعد تسع سنوات من سقوط الجزائر، وبالضبط في 9 تموز 1893، الشاعر الفرنسي " الفونس ده لامارتين (1790-1869) يقف في الجمعية الوطنية يمدح الذين قضوا على كلمة "مستحيل" متغنياً بالسياسيين والضباط والجنود لإقدامهم على فتح الجزائر لتكون، حسب تعبيره، نافذة هواء جديد لفرنسا."

هكذا انطلقت ملحمة الجزائر التي امتدت فصولها ومآسيها عشرات السنين، ليتألف من أحداثها وملابستها ونضال محاربيها وأدبائها صفحات مثالية من العناد المستميت للحفاظ على التراث، وإغنائه بجهد جديد ضد قوى قاهرة ومدمرة.

أشار إلى ذلك الشاعر الجزائري محمد بن دويده، رافعاً إلى شوقي تحية شعب رازح

تحت المحنة:

أُهدي تحية شعب لج في نصب

في كل يوم بأنواع من العطب

شوقي إليك وإن قصرت في كلمي

شعب تو إلى عليه الخطب يفجع

فلم يزل وُصُوفُ الدهرِ تُؤلمه بين المخاوف يشكو حملة الغلب

والشاعر الطيب العقبي يصف حالة الشعب الجزائري بعد الاحتلال من الفرنسيين أصحاب الديمقراطية والحرية، فيدعو للتبصر بحال هذا الشعب المدمر بألة العلم:

عرج على قطرنا وانظر لحالته
يا معشر القوم هبوا من سباتكم
ولا سميع لنا منكم وكلكم
فما له اليوم بين الناس تُخزيننا
طال الزمان وكم غنى مغنيننا
أصبحتم لقديم المجد ناسينا⁽¹⁾

وتألم الشاعر عمر قدوري من حالة الفقر والجهل والاستعمار والأبيات تكشف عن إصرار الشعب على المعاناة رغم استمرارها ويتمنى زوال تلك المعاناة:

يا شرق هل هذي المصائب تنجلي
وانهض فديتك واتخذ لك قوة
أو ينتهي الغليان من ذا المرجل
مقرونة بالسعي دون تمهل⁽²⁾

ويصف الشاعر سعد الدين الخمار الشعب بأنه هالك مدمر فيقول الشاعر:

قفا نبك شعباً ميتاً يزدري به
بني جلدتي لا تياسوا وانهضوا بنا
وما الموت إلا الجهل والضيم والكدر
فلليس كرات إذا امتلك العسر⁽³⁾

نقل الشعراء الجزائريون صوراً خالدة للفتك والدمار والقتل والاعتصاب وهذه الصور المرعبة المفزعة التي قام بها الغرب المتحضر هي أنموذج متواصل المسيرة منذ قرنين

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 188

(2) المرجع السابق 189

(3) المرجع السابق 189

ونحن وشباب الأمة العربية تتراكم عليه هذه الصور انظر ما حدث في العراق وفي سوريا وفي ليبيا يمثل التراكم في شباب الأمم يقول الشاعر أبو القاسم سعد الله:

نجرورك.. حرقوك

دون عطف أو ضمير

دون وجه من حياء

يا لهم من جناء

هكذا يتصرفون

يشنقون الأبرياء

ويصبون الخراب

كالجراد

كالتتار الزاحفين⁽¹⁾

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 378

محمد العيد محمد علي الخليفة

ولد الشاعر محمد عيد الخليفة عام 1323 هـ في مدينة عين البيضاء، ودرس هناك ثم انتقل إلى بكرة وأكمل دراسته على يد المشايخ هناك ثم انتقل إلى تونس ومكث بالجامع يدرس على علمائه ثم عاد إلى الجزائر والتحق بفكر الكفاح وقام بالتدريس وصحب علماء الإصلاح وسجنه المستعمر تارة وتارة أخرى خضع للإقامة الجبرية وتاريخ حياته انموذج لتاريخ الجزائر في مراحل الجهاد والكفاح ثم الانتصار⁽¹⁾.
ثم يسجل الشاعر نتائج حياة العالم وأثره في تكوين دولة الجزائر

يا ابن باديس يا أبا الشعب قم فان	ظر بفخر لشعبك المقدم
قم تجدد شعبك المخلف قبلاً	سار شوطاً مع الشعوب النومي
قم تجدد دولة الجزائر قامت	وأقامت بالحكم حُر النظام
قم تجدد راية الجزائر تعلقو	فوق كل الربوع والأكام
شبت الثورة التي منك هبت	ريحها حين شب عود الضرام
واستتبت أسبابها فاستحالت	كل أنغامنا إلى الغمام
صد جيش التحرير فيها قوى البغ	ي ورد العرين للضرغام
كيف تنسى الجزائر اليوم وفداً	كنت تحتل صدره في المقام

كل العالم العربي والإسلامي يعرف الشيخ عبد الحميد بن باديس وكان الأساتذة يسردون سيرته في كل محفل علمي وفي كل قاعة، فهو العالم الذي نشر العلم أولاً وأحيا روح الجهاد من خلال التعليم السلمي يقول عنه وهو في الزحف قائد الجيل حقاً وهو في الدين حجة الإسلام:

(1) محمد الخليفة، الديوان

ية وراعي ما فيه من أحكام
طيب القلب راحماً للأنام
لام يرعاهما و في الذمام
غير تشريعها لفض الخصام
ضادها لاهجا به في الكلام
يا صميماً من سادة الأقسام

وهو واعي الذكر الحكيم وداع
كان عبد الحميد رائد بر
عاش وقفاً على الجزائر والإس
وغيوراً على الشريعة يأبى
وغيوراً على العروبة يفشى
وغيوراً على الجزائر قوم

اتجه علماء الجزائر إلى الميدان السلمي، فأخذوا ينشرون العلم ويقومون بالإصلاح الاجتماعي، فتواصلوا مع الشعب وأناروا لهم طرائق الخير، ولم يدفعوا بالمواطنين إلى الفرقة والتناؤد بل إلى التلاحم ما عدا بعض الشذوذ من الحكام فإنهم رفضوه ولم يعلنوا المقاومة ضده حفاظاً على السلام والتلاحم. وهذا ما كان من علماء الجزائر الذين حافظوا على وحدة الشعب والشاعر محمد الخليفة يستذكر ويستدعي مواقف العلماء الربانيين الذين رفضوا الطغيان ولكنهم قالوا ما يعتلج في نفوسهم فالشاعر الخليفة يسجل موقف أحد العلماء في وجه الو إلى الاستعماري:

ار في وجه من طغى كالحسام
صور أو مالك برفض الحرام
أو كعمر والعز عبد السلام
وابن تيمية فقيه الشام
سيف إنكارهم على الظلام
بالهوى من طغى من الحكام
ق بذكراك تحنفي كل عام⁽¹⁾

موقف حاسم سهرت به الأذك
كتحدي أبي حنيفة للمن
وسعيد والمنذر بن سعيد
أو كيعقوب، وابن يعمر يحيى
هكذا أعلن الأئمة قبلاً
ويح من أسخط الإله وأرضى
يا ابن باديس هذه فئة الح

(1) محمد الخليفة، الديوان 499

الشاعر الجزائري يمثل الثورة الوطنية في العالم العربي والإسلامي ضد المعتدي الاستعماري والواقع أن الثورة جالت مثل الرجل في كل قلب عربي حتى الأطفال والشباب فهم يتألمون بألم الشعوب ويكتونون بنيران المدافع على الأوطان المستعمرة وأذكر في زمننا في بلدتنا تبوك إن المعلمين يبصروننا بجهاد إخواننا في الجزائر. وقد عقدت اجتماعات شعبية للتبرع والتأييد في مدينة تبوك عام 1960 م و أتذكر و أنا أقف في صفوف المدارس أن اسم والدي أخذ يصدح به منادي التبرع فيقول على الملأ عيد أبو طربوش تبرع بثمانين ريال وهي مبلغ كبير في ذلك الزمن، وما زال ذلك التبرع يذكرني به كبار المنطقة ومنهم الشيخ عناد الغريض وحتى صديقي ابنه عبدالعزيز الغريض يروي تلك الحادثة عن والده و كذلك الصديق عبدالعزيز مكّي الشريف يرويها عن والده و الواقع أن سائر مدن المملكة العربية السعودية تداعت لهذه المهرجانات وقد أشاد بذلك شعراء المملكة العربية السعودية مثل أحمد إبراهيم الغزاوي.

والقصيدة الجزائرية تنقل الصورة الواقعية لكل مدينة عربية:

بلادي فداك الروح والله عالم	عليك سلام خالصا لقصد سالم
يحبيك مشتاق على القرب مشفق	من البعد مشغوف بجبك هائم
له فيك ألوان من الرأي عدة	فأبيض وضاح وأسود قائم
تباكره في صبحه غير نائم	وتطرقه في ليله وهو نائم
فأونة في ما يرى متفائل	وأونة فيما يرى متشائم
على أن رأي الفال أقوى علائماً	وتقوى الأمانى حيث تقوى العلائم
فهذا بحمد الله للضاد موسم	كريم وعيد للعروبة باسم
وحفل بهي للشبيبة زاهر	كروض ندي باكرته النسائم
تلاقى به أنصارها وحماؤها	كما تتلاقى في السماء الغمام
وطرب فيه الناشئون وغردوا	كما غردت فوق الغصون الحمام
فكل لياليها وأيامها لنا	ولائم لم تبرح تليها ولائم

فبات قريراً شملنا المتلائم
إليه وأنف الكفر خزيان راغم
وفضل لنا من دائم الملك دائم⁽¹⁾

تلاءم في الدين الحنيفي شملنا
أبى الله إلا أن يضم قلوبنا
عطاء لنا من واسع الملك واسع

الشاعر الجزائري محمد العيد يمثل رجل الأمة التي يحمل أثقال الوطن فهو رجل عالم شرعي، وهو مثقف ع إلى الثقافة خبير بتحولاتها، واتجاهاتها عالم بالعلاقات الدولية وأطماعها مثقلاً بهموم الوطن الاجتماعية والجهل والفقر والفرقة إنها تلك النيران التي تمثل القاسم المشترك لأبناء العرب والمسلمين في تلك المرحلة، فلا غرابة أن يذهل العالم المفكر فيما حوله من القضايا وهل لكل قضية حقيقة تحصرها أو يجمع عليها الحكماء والمفكرون ورجال الوطن أم أن الأمر يكون فيه اختلاف وافتراق. وقد عايشنا تلك المراحل وأخذ تطفو علينا بالأزياء الجديدة لعل ذلك ابتلاء للمسلم فهذا الشاعر محمد العيد يقف حائراً كلما تجاوز حزنناً من الهموم والآلام تكشف له آخر، وكلما أيقن بقضية أخذ الأعاصير تلفحها ذات اليمين و ذات الشمال.

كادت على عقلي الشكوك تسود
إلا اصطلاحات بها وقيود
وتشيد بالإيمان وهي جحود
خلاصة، وعلى الأكف جلود
ضربت عليه من الشكو كسدود
لا يحتويه اللفظ وهو جمود
من يرشد الأعمى بها ويقود؟
شتى وأمك يا جنين ولود
حتى يشق من الصباح عمو

هل للحقائق في الحياة وجود
ما في الحياة حقيقة محدودة
تدعو إلى العرفان وهي جهالة
مثل الدفوف على المسامع رنة
أو كلما أو شكت أجلو مبحثا
لا ريب سر الكون وهو لطيفة
دنيا على الأعمى التوت أو عارها
ظلمات أمك يا جنين كثيفة
صبرا على ليل الحياة وطوله

(1) محمد الخليفة، الديوان 135

الموت دنيا واللحود مهود
ما بعد جودك لابن آدم جود
كبرى وظل وارف ممدود⁽¹⁾

من مات لا ريب استهل فلا تخف
يا موت خولت ابن آدم راحة
في القبر نزل طيب وكرامة

إن الشعر العربي يفيض بقضايا الأوطان والأمة بل يغوص في أعماق القضايا التي أحدثت بالأمة فمنها من الداخلة الجهل والفقر والتخلف ومن الخارج الاستحواذ على المقدرات، والاستعمار الطاغوي الذي لا يهدف إلى الإنسانية، وإنما يدمر أخاه الإنسان يجدر الصراع والفقر والجهل ويمنع وسائل المعرفة والتقدم. وهذه المعاني وقف عندها شعراء الأمة والشاعر الجزائري محمد الخليفة يمثل النموذج فهو نشأ وعاش الاستعمار وفتكه، والتخلف في الأوطان و عانى الجهاد ضد المستعمر في بلاده الجزائر يقول عن الأوطان ومعاناتها:

وليس لعقد شده الله فاصم
مباركة كالخلد لولا المزاحم
فلم يمتنع منهم عن القطف طاعم
تهدها من حولنا وتهاجم
عسى تنجلي عنها النسور الحوائم
سوائم بالمكروه فينا سوائم
وأكنافنا للنازلين نواعم
أثاراتها في الآخرين عظامم
وسارت على البيضاء والليلفاحم
بها، فهل الأحفاد أسد ضراغم؟
إلى الحق لا يأخذكم فيهل ائم

لقد شد بالإيمان عقد قلوبنا
وبوأننا في العالمين مباءة
رياض دنت للطامعين قطوفها
هلم نذد عنها جوائح جمه
هلم نذد عنها نسوراً حوائماً
سخونا فسامتنا بكل إذاية
مراتعنا للناجعين خصيبة
حوت أعظماً للأولين رميمه
حوت أمة دانت بدين محمد
لقد كانت الأجداد أسداً ضراغماً
إلى الحق ولوا أيها القوم وجهكم

(1) محمد الخليفة، الديوان 20

ولا ذاع حق للمحامين عادم
فكم فيه مراتب وكم فيه واهم
أنحن جمادات بها أم بهائم؟!
لها القول سلك والعقول قوائ
فليس يقيقك الضر أنك واجم
وأنت له في جانب الصدر كاتم
لنك رقاب أثقلتها الأدهام⁽¹⁾

فما ضاع حق للمحامين واجد
هلم نبن عن حقنا في بلادنا
علام بغى الباغي بها غمط حقنا
وما الحق إلا كهرباء خفية
فقل لضرير القلب لا تك واجماً
ومن أين يدري الناس ضرك بينهم
وقل لبني قومي: دعوا الجبن وانهضوا

إن شعر الشاعر محمد الخليفة تاريخ وطني عربي وجزائري فشعره لوحة الجهاد
الوطني ضد الاستعمار عبر خمسين عاماً وهو يدعو أبناء الأمة العربية تارة وأبناء الإسلام
وأبناء أفريقيا فيقول في قصيدة:

مطار في من خيوط الشمس للشهب
إلى العباقرة الصيابة النخب
في ظل قطر لهم بالبشر منسكب
والجامعين عليها الهم في الطلب
وهم كتائبه الفراجة الكرب
في أرضه خير نشء تحت خير أب
كالأفق جالت بها الأكدار كالسحب
عليكم فهو بين النزع والعطب
وأنقذوه سراعاً من يد الغلب
كانوا له وزراً عنغارة النوب⁽²⁾

اليوم أسدي على نول من الأدب
اليوم أهدي تحياتي وموعظتي
النازلين كقطر الغيث منسكبا
الزاحفين لغارات النهي طلباً
كم في الشم إلى من إفريقيا كرب
برؤه نشأ ورباهم أبافهم
يافتية طلوعوا كالزهر في وسط
النجدة النجدة ارعوا للشمال يداً
هزوا القلوب قناً واعلوا النهي حُصناً
الستم نسل آباء به سلفوا

(1) محمد الخليفة، الديوان 136

(2) المرجع السابق 231

المراجع

- ابن زيدون، الديوان.
- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة - ديوان، دار الكتب الشرقية: تونس 1955م.
- إحسان عباس، الشعر العربي في المهجر، دار صادر بيروت.
- أحمد بن المقري التلمساني، نفح الطيب تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر.
- الأدب العربي الحديث 2011م.
- إقبال العرقيج، الرومانسية في الشعر السعودي، الطبعة الأولى.
- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث دار العلم للملايين.
- أوستن وارين، رينيه ويليك، نظرية الأدب ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة د. حسام الخطيب.
- إيليا حاوي، الشعر العربي المعاصر، عمر أبو ريشه إبراهيم ناجي، بدوي الجبل، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية 1980م.
- بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، نشر المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2001م.
- تزيفتان تودوروف، ترجمة د. منذر عياشي، النادي الأدبي جده عام 1411هـ/ 1990م.
- جامعة الأمام، مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي (بحوث مؤتمر) 1429هـ/ 2008م.
- حاتم الصكر، ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الأولى عام 1998م.
- حسن الأمrani، القصائد السبع، الطبعة الأولى، المطبعة المركزية، وجده، 1984م.
- حلمي القاعود، تطور الشعر العربي في العصر الحديث، الطبعة الأولى 1429هـ/ 2008م.

- د / نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت 1918م، الطبعة الأولى.
- د مسعد عيد العطوي، الرمز في الشعر، مكتبة التوبة، 1412هـ.
- د.أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، دار المعارف المصرية.
- د.السيد أحمد عبدالغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الأولى 1401هـ/ 1981م.
- د.جميل حمداوي، مناهج النقد العربي الحديث و المعاصر اصدار نادي القصيم 2009م.
- د.شكري محمد عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى.
- د.شوقي ضيف، استدعاء الشخصية.
- د.شوقي ضيف، بناء القصيدة في الشعر المعاصر.
- د.شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف المصرية.
- د.عباس حسنى، اتجاهات النهضة والتغيير، مكتبة السلام بمصر.
- د.عبد الستار إبراهيم، الأبداع، وكالة المطبوعات، الكويت..
- د.مجيد عبد الحميد ناجي، الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- د.محمد الربيعي في نقد الشعر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
- د.محمد بن حسين، الأدب الحديث، تاريخ ودراسات، الطبعة الخامسة 147هـ/ 1990م مطابع الفرزدق، الرياض.
- د.محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي، مكتبة سعد الدين، الطبعة الأولى.
- د.محمد غنيم هلال، الأدب المقارن، مطابع سجل العرب، عام 1970م.
- د.محمد مفتاح، دينامية التناس، المركز الثقافي.
- د.مسعد العطوي، الفكر والشكل في الشعر السعودي، عالم الكتاب الحديث 2014م.
- د.مسعد بن عيد العطوي، الشعر الوجداني، عام 1415 هـ/ 2011م.

- د.مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة 1995م.
- د.يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1393 هـ/ 1973م.
- راث كيمبسون، نظرية علم الدلالة السمانطيقية، ترجمة عبد القادر قنيني، الدار العربية للعلوم، الرباط، الطبعة الأولى 1430 هـ/ 2009م.
- رجاء عيد، فلسفة الإلتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، منشأة المعارف بالأسكندرية الطبعة الأولى 1988م.
- روبرت جلكنر، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1986م.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1989م.
- سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1935م.
- الشابي، أغاني الحياة، دار الكتاب الشرقية، تونس.
- الصادق بن الناعس ترجم "مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي" نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1429 هـ/ 2008م.
- عباس الجراري، الأدب المغربي، مكتبة المعارف الرباط.
- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، عالم المعرفة الكويت.
- عبد الكريم الطبال، الأشياء المنكسرة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
- عبد الواحد، المرابط، السيمياء العامة، وسيمياء الأدب، منشورات الأختلاف.
- عبدالسلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب الطبعة الثانية، 1982م.
- عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل، ديوان شعر، المطبعة المركزية، وجدة 1985م.
- عبدالله خضر حمد، اسلوبية الأنزياح في شعر المعلقات، عالم الكتب الحديث، الأردن.

- عثمان بن طالب، مختارات تونسية في النقد والفكر، منشورات إتحاد الكتاب التونسيين، الطبعة الأولى.
- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، الطبعة الثانية دار الفكر العربي 1978م.
- عزالدين الأدريسي، إشراقات/ شعر، 1406 هـ/ 1986م.
- على بن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي.
- كاتارينا مومزن، جوته والعالم العربي، ترجمة، عدنان عباس على، عالم المعرفة.
- كامل حسن البصير، بناء الصورة الفنية في البيان العربي، الطبعة الأولى 1987م.
- كول لريدج، النظرية الرومانتيكية في الشعر، ترجمة عبد الحكيم حسان دار المعارف بمصر 1971م.
- محمد الحبيب الفرقاني، دخان من الأزمنة المحترقة، دار النشر المغربية.
- محمد العيد خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر.
- محمد بن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، الطبعة الأولى 1402هـ/ 1983م.
- محمد خفاجي دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسة، مكتبة الأزهر.
- محمد صابر عبيد، العلاقات الشعرية، قراءات في تقانات القصيدة الحديثة، عالم الكتب الحديث.
- محمد غنيمي هلال، في النقد التطبيقي والمقارن، دار نهضة مصر.
- محمد ياسر شرف، النثيرة والقصيدة المضادة، النادي الأدبي الرياض 1401هـ/ 1971م.
- منذر عياشي، العلاماتية السميولوجيا، عالم الكتب الحديث الأردن، 2013م الطبعة الأولى.
- نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة 2005م.

- اليوت نشاردز، مبادئ النقد العربي، ترجمة الدكتور/ مصطفى بدوي، مراجعة الدكتور/ لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة.
- يوسف ميخائيل اسعد، سيكولوجية الإبداع، الهيئة المصرية للكتاب عام 1986م.

المجلات

- إبداع.
- أقلام.
- بحوث مؤتمر جرش، عن الأدب الأندلسي، الأردن.
- صحيفة الجزيرة (الملحق الثقافي).
- صحيفة الرياض (الملحق الثقافي).
- صحيفة المدينة المنورة (ملحق الأربعاء الثقافي).
- العلامات، نادي جدة.
- فصول، مجلة مصرية.
- كتابات معاصرة، مجلة الإبداع عدد 58.
- الكرمل.
- مجلة شعر، بيروت.
- المجموعة العامة، مجلة ابولو.
- ملتقى علم النص، مجلة ملتقى علم النص، الجزائر.

Bouquets

From the Maghreb poetry

المؤلفات والبحوث

- ١- أحمد الغزالي وأثره الأدبية.
- ٢- تبوك قديما وحديثا.
- ٣- المقطعات الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام.
- ٤- الرمز في الشعر السعودي.
- ٥- الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية.
- ٦- الاتجاهات الفنية للشعر إبان الحروب الصليبية.
- ٧- الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية.
- ٨- الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية.
- ٩- الغموض في الشعر العربي.
- ١٠- العاشق العفيف عروة بن حزام.
- ١١- البنات في شعر الآباء.
- ١٢- العتابي حياته وأدبه.
- ١٣- الاتجاه الفكري في شعر الخليج العربي الحديث.
- ١٤- الفكر والشكل في الشعر السعودي.
- ١٥- تبوك المعاصرة والأثار حولها.
- ١٦- بناء الفكر.
- ١٧- بناء الفكر التربوي.
- ١٨- بناء الفكر الإداري.
- ١٩- الأدب العربي الحديث.
- ٢٠- عدد من الأبحاث المنشورة في المجلات المحكمة.
- ٢١- عدد كبير من المقالات.
- ٢٢- التحول (سيرة ذاتية).
- ٢٣- النقد في أحضان الجامعات.
- ٢٤- وطنيات الواقع والامل.
- ٢٥- السرد فكراً وبناءً.